المفاخرات والمناظرات

١- مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء للشيخ أحمد البربير

٢- المفاخرة بين الشمس والقمر للشيخ بهاء الدين البيطار

٣- غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسماء للشيخ محمد المبارك

٤- نضرة البهار في محاورة الليل والنهار للشيخ محمد المبارك

٥- أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والإقامة للشيخ محمد المبارك

٦- مناظرة بين العلم والجهل للشيخ محمد الدّيسي

عُنِيَ بها
الدكتور محمد حسان الطيان
جامعة الكويت - كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية



١- مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء للشيخ أحمد البربير

٢- المفاخرة بين الشمس والقمر للشيخ بهاء الدين البيطار

٣- غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسَّماء للشيخ محمد المبارك

٤- نضرة البهار في محاورة الليل والنَّهار للشيخ محمد المبارك

٥- أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والإقامة للشيخ محمد المبارك

٦- مناظرة بين العلم والجهل للشيخ محمد الدّيسي

عُنِيَ بِها

الدكتور محمد حسّان الطيّان

جامعة الكويت - كلية الآداب

الطَّبْعَةُ الأولىٰ
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
e-mail:
bashaer@cyberia.net.lb
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥


المفاخرات والمناظرات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد البلغاء والفصحاء المبينين، محمَّد ﷺ وآله وصحبه الغُرِّ الميامين.

اللّهُمَّ إنِّي أعوذ بك من فتنة القول كما أعوذ بك من فتنة العمل، وأعوذ بك من التكلُّف لما لا أُحسن كما أعوذ بك من العُجب بما أحسن، وأعوذ بك من السَّلاطة والهَذَر كما أعوذ بك من العِيِّ والحَصَر، وأسألك السداد والإخلاص وتمام النعم.

وبعد، فقد عرف أدبنا العربي من أفانين القول في الشعر والنثر والخطابة والترسُّل.. والحكمة والمثل... ما اتَّشح به تاريخه الطويل بيانًا وبهاءً.. وبلاغة وفصاحة.. وجمالاً وإمتاعًا.. وكان لتنوُّع هذه الفنون أثر كبير فيما وصل إليه هذا الأدب من رفعة ومكانة لا تكاد تدانيها مكانة.

على أنَّ أكبر الأثر في هذه المنزلة والمكانة إنما يعود إلى ذلك النوع الذي شرَّف الله به العربية وآدابها فسمت على آداب الدنيا قاطبة وهو القرآن الكريم، كلام الله المبين، وحبل الله المتين، وآيته المعجزة، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق عن رد.

يزيد على طول التأمُّل بهجةً ... كأنَّ العيون الناظرات صياقل

* * *

والرسائل التي نقدِّم لها هنا تنتمي إلى فنٍّ جَمَع هذه الفنون كلَّها، وهو فن المقامة، ولعله من أطرف فنون الأدب وأغناها، إذ يتنقل فيه قارئه بين ألوان الأدب حتى لا يكاد يُخلِف واحدةً منها، فما شئت من نثر وشعر.. وقرآن وحديث.. ومثل وحكمة.. يجمع ذلك كله ويؤلف بينه كلام مسجوع تنوَّق فيه أصحابه حتى بلغ الغاية أو كاد، وإن لم يخل من تكلُّفٍ وتمحُّل أحيانًا؛ وعذرهم في ذلك أنَّ المقامة لا تقوم إلَّا على هذا، فهي ــ كما يعرِّفها الدَّارسون ــ: «نص أدبـي مسجوع مرصَّع بالمحسِّنات البديعية وغير مقيَّد بطول معيَّن، يتعاطاه الكاتب لإظهار براعته وتفوُّقه أو لإبداء رأيه في قضية ما، أو لاتِّخاذه ستارًا للتعبير عن نزعاته الظاهرة أو المكبوتة أو للدلالة على مكانته»[1].

أما مضمون هذه الرسائل فينتظمه خيط واحد يجمع بينها وهو المفاخرات، ثم هي تتنوَّع بتنوُّع المقامات، ففي المقامة الأولى مفاخرة بين الماء والهواء، وفي الثانية مفاخرة بين الشَّمس والقمر، وفي الثالثة مفاخرة بين الأرض والسَّماء، وفي الرابعة مفاخرة بين اللَّيل والنَّهار، وفي الخامسة مفاخرة بين الغربة والإقامة، وفي المقامة السادسة ــ وهي الأخيرة ــ مفاخرة بين العلم والجهل.

وبرغم اختلاف مؤلِّفي هذه المقامات ــ وقد ترجمنا لكلٍّ منهم قبل نص مقامته ــ فكأنَّما ينزعون عن قوس واحدة شكلاً ومضمونًا.. مبنًى ومعنًى ــ وإن اختلف قُطبا المناظرة بين كلٍّ منها ــ حتى لكأنَّ

---

(١) عن كتاب «الإمام الحافظ جلال الدِّين السّيوطي معلمة العلوم الإسلامية» للأستاذ إياد خالد الطباع، ص ٢٤٧.

مؤلِّفها واحد، ممَّا يؤذن بأن أصحابها يحاكون فيها مثالاً سابقًا يتقيَّلون آثـاره.

* * *

هذا وقد سبق لكلٍّ من هذه المقامات أن طبع طبعة حجرية قديمة تعـود إلـى بـدايـات القـرن السـابـق (الـرابـع عشـر الهجـري = العشـريـن الميلادي)[1]، فأحبَّت دار البشائر الإسلامية أن تسهم في نشر هذا اللون من الأدب بما عهد القرَّاء في نشراتها من جمال الإخراج وأناقة الطباعة وتخيّر الموضوع ودقَّة التصحيح.. إلى غير ذلك من بصماتها المتميّزة التي لا يخطئها أيّ عاشق للكتب أو محبٍّ للتراث في عصرنا، فأنت مع مطبوعاتها في نعيم لا يبيد.

وإن كان من فضل في المبادرة إلى إخراج هذه الرسائل بهذا اللبوس الزاهي فهو مصروف إلى أخوين فاضلين جمعا من كريم الشمائل ما يندر وجوده في هذا الزمان.

أولهما الأستاذ المحقق الشيخ محمد بن ناصر العجمي، الذي حوَّل غربتي إقامة، وليلي نهارًا، وأرضي سماءً.. كيف لا؟! وقد أحاطني بجميل عطفه وجليل مكرماته، فالله وحده من يتولَّى جزاءه.

إذا نحـنُ أثنينـا عليـكَ بصـالـحٍ   فأنتَ كما نُثني وفوقَ الذي نُثني

وهو صاحب الفضل في تخيُّر هذه الرسائل وجمعها والتأليف فيما بينها والترجمة لأصحابها ومتابعة إخراجها.

---

(١) أشرنا في مستهلّ كل مقامة إلى تاريخ نشرتها السابقة.

وثانيهما الأستاذ الناشر رمزي دمشقية، الذي أحسن الظنّ بـي، فرغب إليَّ أن أقرأ هذه الرسائل بغية ضبطها، وتفصيلها، وترقيمها، وتمييز شواهدها، ووزن أشعارها، وشرح غريبها. . . فجزاهما الله عنِّي خير ما جزى صاحبًا عن صاحبه وخليلاً عن خليله.

وأسأله سبحانه أن يتقبَّل هذا العمل وينفع به، إنَّه خير مسؤول وبه المستعان وعليه التّكلان.

والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

الدكتور محمد حسان الطيان

دمشق ــ ضاحية دمَّر

الخميس ١٧ جمادى الأولى ١٤٢١هـ

١٧ آب ٢٠٠٠م

المفاخرات والمناظرات

(١)

مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء

تأليف

الشيخ أحمد بن عبد اللطيف البربير الحسني البيروتي

(١١٦٠ ـ ١٢٢٦ هـ)

عُني بها

الدكتور محمد حسان الطيان

جامعة الكويت ـ كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف(١)

هو العلاَّمة الأديب، والشاعر النَّاثر؛ أديب الفقهاء، وفقيه الأُدباء؛ الشيخ شهاب الدِّين أبو العبّاس أحمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمد البربير الحسني البيروتي الأصل، الدمياطي المولد، الدِّمشقيّ وفاة.

وُلِد بدمياط سنة ١١٦٠هـ لأبٍ تاجر، ولمّا نشأ أخذ بطلب العلم، فحفظ القرآن الكريم صغيرًا، ثمَّ لمّا بلغ اثنتي عشرة سنة حفظ ألفية ابن مالك، وحضر شرحها لابن عقيل على الشيخ عبد الحيّ فتح الله. وعند الثالثة عشرة تعلق بنظم الشعر؛ فصار يشبب ويتغزَّل؛ فاعترض عليه في دعوى الصبابة بعض الأُدباء، فأنشد:

لقـد أنكـرَ الـلاحـي شجـونـي وصبـوتـي
لكـونـي صغيـرًا قلـتُ لا تُنكـروا الفضـلا

---

(١) مـصـادر ترجمته: «حلية البشر» لعبد الرزاق البيطار (١/ ٢١٧)؛ و «أعيان دمشـق» لجميـل الشطـي (ص ٣٣)؛ و «منتخبـات التـواريـخ لـدمشـق» للحصنـي (٢/ ٦٤١، ٦٧٥، ٨٥٧)؛ و «الأعـلام» للـزركلـي (١/ ١٤٨)؛ و «أعيـان القـرن الثالث عشر» لخليل مردم بك (ص ١٤٥)؛ و «معالم وأعلام» لأحمد قدامة (١/ ١١٧).

رآنـــي الهـــوى طفـــلاً فمـــازحَ مهجتـــي
ومِـــن عـــادةِ المَـــزَّاح أن يـــألَــفَ الطفـــلا

ثـم حضـر قـراءة المنهـج وتفسيـر البيضـاوي علـى الشيـخ محمـد الدنهيجي، وجمع الجوامع على الشيخ عبد السلام أبي النصر، وتجريد الخطيب وابن قاسم مرارًا على الشيخ عبد الحي، وقرأ عليه أيضًا مختصر السعد والسُّلَّم للأخضري وغيره، وحضر على الشيخ مصطفى المحلي ـ الشهير بـالسَّقَّا ـ شـرح الهـدهـدي وشـرح اللقـانـي علـى الجـوهـرة والاستعارات لعصام، وحضر على الشيخ أحمد البستاني في العروض والفرائض والأشموني على الألفية.

وفي سنة ١١٨٣هـ هاجر إلى بيروت، فتضايق أول أمره حين نزل بها، وأنشد:

لقــد غــرَّنــي إبليــسُ قــومــي بقــولِــهِ
تغــرَّبْ عــن الأوطــانِ فــي طلــبِ المجــدِ
كمـــا غـــرَّ إبليـــسُ الشيـــاطيـــنِ آدمًـــا
وأخـــرجَـــهُ بـــالمكـــرِ مـــن جنَّـــة الخلـــدِ

ثمَّ رحل إلى دمشق، فوافق مجيئه قدوم محمد أبي الذهب، فلم يجتمع بأحد من فضلائها سوى الشيخ مصطفى الرحمتي، فلما لقيه أنشده:

أيُّهـــا الســـاكنـــون روضَ دمشـــقٍ حـــزْتُـــمُ فـــي الأنـــامِ عيشًـــا رفيهـــا
قـــد سكنتُـــم قصـــورَ جنّـــاتِ عـــدنٍ وظفـــرتُـــم بـــرحمـــةِ اللّـــهِ فيهـــا

وقد طلب منه الأمير يوسف الشهابي أن يتولى الفتوى والقضاء في بيروت، فامتنع الشيخ البربير عن ذلك حتى أقنعه الأمير بالموافقة، غير أنَّ

الشيخ وضع شروطًا لقبوله، فإذا أخلَّ الأمير بإحداها اعتزل المنصبين، وكانت الشروط هي:

* أن لا يتصدَّى الأمير للدعوى بعد أن يكون هو فصلها بمجلس قضائه، وأن يأمر بتنفيذها دون إبطاء.

* إذا كانت الخصومة بين الأمير وبين أحد المواطنين العاديِّين، وكان الحُكْم ضد الأمير، فإنَّ على الأمير أن ينفِّذ ما أمر به الشرع الحنيف.

* أن يبعث الأمير من قِبله أحد أتباعه ويجلس في المحكمة لتحصيل ما على الدعوى من الرسوم المقرَّرة بين القضاة.

* أن لا يلتزم الشيخ البربير بارتداء الزيّ المقرَّر للقضاة من لبس العمامة والفَرَجيَّة.

وبقي الشيخ في القضاء يتمنَّى أن يخلّ الأمير بشرط حتى يتخلَّص، فما وقع ما أراد، فصار يتمنَّى أنه لم يكن خُلِق أو يتمنَّى زوال عقله لينجو. وعندما ولي القضاء أنشد:

قد عدلْنا وما عدلْنا بغَيٍّ وحكمْنا بأمرِ ربِّ السماءِ
فأبى النّاس حكمَنا ولَعمري قلَّ مَن يرتضي بحكمِ القضاءِ

وقوله:

رماني زماني بما يجهدُ فمَن ذا أرومُ ومَن أقصدُ
وأوقفني في القضاءِ القضا وما كنتُ أحسبه يوجدُ
وظيفةُ كرْبٍ، لأثقالها تراني لموتي الرَّدَى أحمدُ
وحسبي انقلاب صديقي بها عدوّاً، إذا فاته المقصدُ

فبـــاطنهـــا الـــذُلّ والابتـــلا وظـــاهـــرهـــا العـــزّ والســؤددُ
وإذ ليـــس دأبـــي ولا ديـــدنـــي ولا أرتضيـــــه، ولا أعمـــــدُ
وصعـــبٌ علـــى المـــرء تكليفُـــهُ أمـــورًا خـــلاف الـــذي يَعْهَـــدُ

وقيل: إنَّ الأمير يوسف الشهابي حين اطَّلع على هذه الأبيات دخلت قلبه خشية الله، فبادر إلى إعفاء الشيخ من القضاء وعيَّن له مرتَّبًا يكفيه، فامتدحه الشيخ البربير بقوله:

أميـــرُنـــا أكـــرم مـــن حـــاتـــمٍ لـــه بَنَـــانٌ ضـــاق عنهـــا الفضـــا
بحلمـــه أدركـــت مـــا أشتهـــي وقـــد كفـــانـــي الله شـــرَّ القضـــا

وقال أيضًا:

أميـــرٌ عظيـــمٌ لـــهُ رتبـــةٌ علـــى غيـــرِه صعبـــةُ المُـــرتَقَـــى
قصـــرتُ ثنـــائـــي علـــى وصفِـــهِ وأعطيتُـــهُ فـــي الـــورى مَـــوْثِقـــا
ولا غـــروَ فـــي كـــونِـــهِ وارثًـــا ثنـــائـــيَ دونَ الـــورى مطلقـــا
فقـــد أعتـــقَ القلـــبَ مـــن كـــربِـــهِ وصـــحَّ الـــولاءُ لمَـــنْ أعتقَـــا

وبعد ذلك أنشأ مكتبًا (كُتَّابًا) لتعليم الأطفال قانعًا بما يناله منه من الرِّزق الكفاف، إلَّا أنه لم يسدّ حاجته، وافتقر.

وفي سنة ١١٩٥هـ عزم على الرحيل إلى دمشق ورغب في سكناها، ورأى أنها خير البلاد. فلما قصدها نزل بالشيخ خليل المرادي ــ مفتي دمشق ــ فلمَّا دخل عليه مدحه بقصيدة طرب لها ورفع شأنه عنده.

سكن الصَّالحية واستقرَّ بها وأُعجب بها غاية الإعجاب، وذكرها بشعره مادحًا يقول:

قــد ظفــرنــا بعيشــةٍ مــرضيــة ... مــذ حللْنـا فـي جنَّـةِ الصـالحيّـةْ

ورأينــا الــزهــورَ تبســم لطفًــا ... عـن ثنـايـا مـن النـدى لـؤلـؤيّـةْ

وجــواري السحــاب جلَّلَـتِ الأر ... ضَ ببسـطٍ مـن غـزلهـا سنـدسيّـةْ

رقـص المـاءُ مـن غنـا الطيـر حتـى ... نقَّطَتْــه أوراقُهـــا الـــذهبيّـــةْ

وجـهُ روضٍ يـريـك نجـلَ عيـونٍ ... وخـــدودًا مــن زهــرِهِ عنـدميّــةْ

وقــدودًا مــن الغصــونِ نشــاوى ... مــن طــلا الطــلِّ بُكــرةً وعشيّــةْ

حبَّــذا حبَّــذا معـــانـــي مغـــانٍ ... كبــروجٍ حَــوت نجــومًـا مُضِيَّــةْ

ويقول أيضًا:

فـي الصَّـالحيـةِ ذو أيـادٍ عنـدهـم ... مَلقى الضيوف كفرضِ عينٍ لازمِ

قــومٌ قــد استغنَــوا بعبــدِ غنيِّهــم ... وتعلَّمـوا مـن جُـود ذاك الحـاتمـي

* * *

وقال الشيخ عبد الرزاق البيطار في «تاريخه»: كان والده يتعاطى التجارة. ولما بلغ رُشْده حفظ القرآن العظيم وجملة من أحاديث النبـي الكريم، ونظم الشعر وهو ابن ثلاثة عشر عامًا. وحضر إلى بيروت وطنه الأصلي في سنة ١١٨٣هـ، ثمَّ توجَّه إلى دمشق، ثم عاد إلى بيروت فأكرهه الأمير يوسف الشهابي على تولِّي القضاء بها، فقام بأعبائه ثم استعفى منه لورعه، ثم عاد إلى دمشق سنة ١١٩٥هـ، وسكن بالصالحية. وأخذ عن العلاَّمة الشيخ مصطفى الصلاحي، وشرح له شيخه المرقوم بديعته المشهورة[١].

* * *

---

(١) «حلية البشر» للبيطار (١/ ٢١٧).

وقال الشيخ القاياتي: «عالم فاضل نحرير من كبار العلماء المشاهير. له مؤلَّفات جليلة ومصنَّفات جميلة، في العلوم العربية والفنون الأدبية. اطَّلعتُ له على شرح بديع يشهد له بحسن الصنيع، يسمَّى بـ: «الفتح الجليّ على بيتي الموصلي»، وقد طُبِع هذا الكتاب بالمكتبة الأدبية في بيروت، واشتغل الفقير بخدمة تصحيحه مع حضرة الشَّاب إبراهيم الأحدب. وهو كتاب لغة وأدب كله عجب، وقد أُهديت إلينا منه نسخة بعد الطبع ظريفة الشكل والوضع.

وله: «الفصيحة العجما في قوله ﷺ: «أحبب حبيبك هونًا ما»». و «محاكمة بين الماء والهوى»[1]، وغير تلك الأشياء من الكتابة الفائقة والأشعار الرقيقة الرائقة، مع لطافة النكتة وظرافة الذائقة.

ومما حكاه لي قريبه أبو إبراهيم البربير أنه كان ذات يوم عند أحد أعيان شرفاء مكة المكرمة، وكان في إصبعه[2] خاتم وله فصّ من الأحجار الثمينة، فانكسر الحجر وسقط من يده، فتشاءم الشريف من ذلك، فأنشد الشيخ على البديه من كلامه وبديع نظامه:

لا تخشَ يا ابنَ رسولِ اللَّهِ من حجرٍ
رأى المكارمَ في كفَّيكَ فانفجرا
فإنَّ سعدَكَ سعدٌ لا نظيرَ له
فاقَ السعودَ وأضحى يفلق الحَجَرا»[3]

* * *

(١) وهي هذه التي بين يديك.

(٢) أي الشريف.

(٣) «نفحة البشام في رحلة الشَّام» للقاياتي (ص ١٦).

ووصفه كمال الدِّين الغزِّي بـ: الشيخ العالم الفاضل الأديب الشاعر المُجيد المُفْلق الناظم الناثر المفتنّ الأوحد.

وقال: وُلِد في عاشر محرم ١١٦٠ بدمياط، وبها نشأ، وقرأ القرآن على الشيخ قاسم بن داود تجويدًا وحفظًا، وأخذ الفقه والعربية عن جماعة كالشمس محمد الدنهيجي، والشهاب أحمد البستاني، والعزّ بن عبد السلام بن نصر، والشيخ عبد الحيّ بن فتح الله البيروتي، وأخذ عن السيِّد محمد مرتضى الزبيدي، والشيخ صالح المغربي الفلاني، والسيِّد عبد الرحمن العيدروسي، وغيرهم. ورحل إلى بيروت وتوطَّنها سنة ١١٨٠هـ وحج سنة ١٢٠٣هـ، وقدم دمشق قبلها وبعدها[(١)].

* * *

وقال خليل مردم بك[(٢)]: ومن مؤلفاته: مقاماته التي أولها: «حكى بليغ هذا الزمان والعصر، من حديث ألذّ من سُلافة العصر». وله بديعيّة علَّق عليها شروحًا: مصطفى بن عبد الوهاب بن سعيد الصلاحي، وله كتاب: «الشرح الجليّ على بيتي الموصليّ»، وهو تأليف واسع أودعه صاحبه فنونًا من الآداب وفصولاً في كل علم من العلوم، والموصلي المذكور هو عبد الرحمن بن إبراهيم الموصلي. أما البيتان اللذان شرح البربير رمزهما، فهذان:

إنْ مرَّ والمرآةُ يومًا في يدي ... مِنْ خَلفِهِ ذو اللطف أسمى من سما

دارت تماثيلُ الزجاج ولم تزلْ ... تقفوه عدْوًا حيثُ سارَ ويمَّما

(١) «موسوعة علماء المسلمين» (١/ ٣/ ٣٠٩).

(٢) «أعيان القرن الثالث عشر» له (ص ١٤٥، ١٤٦).

ومن شعر البربير، قوله في التوحيد:

لـقـــد آمـنــــتُ بـــالله وأصــبـحـــتُ بــه آمِـــنْ
هـــــو الأولُ والآخِـــــر والــظــاهــرُ والــبــاطِــنْ

وقوله في كبح الشهوات:

إنَّ الـــذيـــنَ يجـاهـــدون النفـــسَ شبّـــانًـــا وشيبــا
مَــنَّ الإلــٰـه بـنــصـرِهــمْ وأثـابـهـم فـتــحًـا قـريـبـا

* * *

وذكره تلميذه مفتي بيروت العلاَّمة عبد اللطيف فتح الله في ديوانه، حيث قال مادحًا جنابَ قُرَّة عين الأُدباء الكرام، وواسطةِ عقد الجهابِذَةِ الفخام، حضرةَ شيخِهِ السيد أحمد البربير، وكان إذ ذاك حضرَ من دمشقَ الشام سنة ١١٩٨هـ[(١)]:

شَمْسُ الكَمَالِ كَسَا بَيْرُوتَنَا حُلَلاً مِـنْ نُـورِ طَلْعَتِـهِ لَمَّـا حَـلاَ وَحُـلاَ
غَزَالُ سِرْبٍ غَزَا الأَلْبَابَ نَاظِرُهُ وَثَوْبُ سُقْمٍ لِجِسْمِي بِالْهَوَى غَزَلاَ
بَدْرُ الجَمَالِ جَمَالُ الْبَدْرِ حَلَّ بِهَا قَدْ حَلَّ بُرْجَ الْعُلَى وَالْعِزِّ مُكْتَمِلاَ
الْجَـوْهَـرُ الْفَـرْدُ عَقْـدُ الْمَجْـدِ مَـنْ نُظِمَـتْ
بِـــهِ الْفَضَـــائِـــلُ حَتَّـــى زَيَّـــنَ الْفُضَـــلاَ
وَمَنْ سَمَا فِي سَمَاءِ العِزِّ مُرْتَفِعًا فَوْقَ السِّمَاكِ عَلَى أَوْجِ السُّهَى وَعَلاَ
الأَلْمَعِيْ حَسَنُ الأَفْعَالِ ذُو حَسَبٍ عَلِـيٌّ قَـدْر عَلَـى أَمْثَـالِـهِ كَمـلاَ
أَعْنِي بِذَا أَحْمَدَ الْبَرْبِيرَ مَنْ جُمِعَتْ فِيـهِ مَـزَايَـا بهـا قـد نَبْلُـغُ الأَمَـلاَ

---

(١) «الديوان» (١/ ٤٩، ٥٠)، وقد ذكره مادحًا له في مواضع منه (١/ ٥٢، ٥٥، ٦٠ ـ ٦٢، ٦٦، ٧٠، ٧٧، ٧٨).

نَسْـلُ الأَكَـارِمِ بَحْـرٌ مِـنْ مَكَـارِمِـهِ إِكْـرَامُ وَافِـدِهِ إِنْ نَحْـوَهُ وَصَـلاَ
كُـلُّ الْمَحَـاسِـنِ نُـورٌ مِـنْ مَحَـاسِنِـهِ لَمَّا عَلَى الْحُسْنِ مِنْ دُونِ الوَرَى ٱشْتَمَلاَ
لَـهُ حَـدِيـثٌ غَـرِيـبُ النَّظْـمِ سَلْسَلَـهُ بِكُـلِّ مَعْنًـى لَطِيـفٍ حَيَّـرَ العقـلاَ
هَذَا هُوَ الْكَوْكَبُ الزُّهْرِيْ الَّذِي مُحِيَتْ عَنَّـا الغُمُـومُ بِـهِ لَمَّـا الْهُمُـومَ جَـلاَ
شَبَّهْتُـهُ الْبَـدْرَ لَكِـنْ لَيْـسَ يُشْبِهُـهُ فَـذَا يَغِيـبُ وَهَـذَا قَـطُّ مَـا أَفَـلاَ
هَذَا الَّذِي قَدْ حَوَى حِلْمًا بِلاَ شَبَهٍ لِأَنَّـهُ مِـنْ كَمَـالِ الحِلْـمِ قَـدْ جُبِـلاَ
هَذَا الَّذِي هَامَ قَلْبِي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ شَجًا، فَيَا وَيْلَ مَنْ فِيهِ لَنَا عَذَلاَ
تَبَسَّـمَ الـدَّهْـرُ مِـنْ فِيـهِ بِـهِ فَـرِحًـا يُشِيـرُ لِـي أَنَّـهُ قطـبُ الـزَّمَـانِ بِـلاَ
يَمِّـمْ حِمَـاهُ لِتَجْنِـي مِـنْ بَـدَائِعِـهِ دُرَّ العُقُـودِ إِلَـى أَنْ تَبْلُـغَ الأَجَـلاَ
وَٱقْصِدْهُ تهْدِكَ نِيرَانُ القِرَى سُبُلاً لِرَبْعِهِ المُعْتَلَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسَلاَ
وَلاَ تَكُنْ غَافِلاً عَنْ فَيْض رَاحَتِهِ فَلَيْـس ينْكـر ذَا، إِلاَّ الَّـذِي جَهِـلاَ
لاَ زَالَ طَـالِعُـهُ بِـالسَّعْـدِ مُقْتَـرِنًـا يَـزِيـدُهُ رِفْعَـةً، لاَ تَنْتَهِـي، وَعُـلاَ
مَا هَزَّ غُصْنَ الرُّبَـى رِيحٌ وَمَا نَشَدَتْ شَمْسُ الكَمَالِ كَسَا بَيْرُوتَنَا حُلَلاَ

زواجه ومؤلفاته:

تزوَّج الشيخ من آل الشمعة بدمشق بعد استقراره بها، ولكنه لم يُرزَق بولد.

ترك جملة من مؤلفات ضاع معظمها، وبقي منها:

- شرح بيتي الموصلي (طبعة المطبعة الأدبية ببيروت).

ـ كتاب في اقتباس القرآن.

ـ الفصيحة العجما في الكلام على حديث «أحبب حبيبك هونًا ما»[(١)].

ـ رسالة في المفاخرة بين الماء والهواء (وهي التي بين يديك).

ـ تشطير البردة.

ـ قصيدة بديعية.

ـ جملة رسائل ومقامات.

ـ رسالة زهر الغيضة في ذكر الفيضة.

ـ ديوان شعر.

وفاته ورثاء تلميذه له:

تُوُفِّي الشيخ البربير رحمه الله تعالى في السابع عشر من ذي الحجة ختام سنة ١٢٢٦[(٢)]هـ، وقد رثاه تلميذه، مفتي بيروت، الشيخ عبد اللطيف فتح الله، بقوله[(٣)]:

ما للحمائم لا تكادُ تطيرُ؟	ما للأراضي بالأنامِ تَمورُ؟
ما للجبالِ الشامخاتِ تَدَكْدَكَتْ،	وأبو قُبَيسٍ قد هوَى وثبيرُ
ما للنفوسِ تكادُ تُزهَقُ لَوعةً،	ولها شهيقٌ قد علا وزفيرُ
ما للعيونِ دموعُها مصبوبةٌ	مثلُ الدماءِ على الخدودِ تسيرُ
فكأنها، حُمرًا وسُودًا، أحرفٌ	لكنها فوقَ الخدود سطورُ

---

(١) طُبعت هذه الرسالة في دار البشائر الإسلامية ضمن مجموع رسائل «لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام» رقم (١٠)، بتحقيق الأخ الشيخ رمزي دمشقية.

(٢) «ديوان عبد اللطيف فتح الله» (١/ ٣٧٤).

(٣) «الديوان» (١/ ٣٧٥، ٣٧٦).

ما بالُ قلبي قد تلهَّب حُرقةً؟.. مِن أينَ فيه جهنَّمٌ وسعيرُ؟..
ما للنجومِ غربْنَ وهي طَوالِعٌ جُنحَ الدجى، وخَسَفْنَ وهي بدورُ
ما للشموسِ لبسنَ في رأدِ الضحى ثوبَ الكسوفِ وما لهنَّ ظهورُ
ما للجنانِ تزخرفَتْ ثم اغتدَى منها يلوحُ منازِلٌ وقصورُ
وتزيَّنت ولدانها وتقلَّدت عِقْدَ الجواهرِ في النحور الحورُ
فعجبْتُ من هذا وقلنا حادث في الكون بانَ وإنه لكبيرُ
فأُجِبْتُ: لا تذهل.. وقيل لِيَ: انتبهْ!

فاليومَ ماتَ العالمُ النحريرُ

شيخُ الجَهابذِ والأفاضِل مفردًا نجمُ العلومِ الجهبَذُ المشهورُ
بدرُ الشريعة والطريقةِ والهُدَى شمسُ الحقيقة: أحمدُ البربيرُ
بحرُ المعارف ما له من ساحلٍ منه استمدَّتْ في الأنامِ بحورُ
ربُّ الفَطَانَةِ والفُهوم مع الذكا في طَوعه التحقيقُ والتحريرُ
عنه الحديثُ سماعُهُ قد ينبغي والفقهُ، والتوحيدُ، والتفسيرُ
وكذا الأصولُ، وكلُّ فنٍّ ينتمي للنقل أو للعقل، وهو شهيرُ
كم قلبِ علمٍ سرَّهُ تأليفُهُ وأقرَّ منه طرفه تقريرُ
مولَى القوافي قد تملَّك أمرَها فأطاعه المنظومُ والمنثورُ
فيها تصرَّف كيف شاءَ، وصاغَها صَوْغًا على الإتقان ظلّ يدورُ
مِن كلِّ معنىً ليس مسبوقًا له، كلاّ، ولا بسواهِ فيه شعورُ
من كلِّ مختَرَعٍ يسيلُ بلاغةً ويكاد في سحر البيان يطيرُ
ما البحتريُّ لديهِ؟ ما سَحبانُ؟ ما نحو الفرزدق عندَهُ وجريرُ؟..
فيه أُصِبنا، والمصائبُ جَمَّةٌ، منها العظيمُ، كموتِهِ، وحقيرُ
لا بِدْعَ إنْ ذهبَ الكرامُ فإنما عُمرُ الكرامِ من الأنام قصيرُ!

يـا ليـت أعمـارَ الكـرام مـديـدةٌ، ويكـونُ فيهـا الطـولُ والتـأخيـرُ

يـا ويـحَ بيـروتٍ وقلَّـةَ حظِّهـا، هيهـاتَ منهـا مثلُـهُ ونظيـرُ

لكـنْ لهـا فخـرٌ بـه لا ينتهـي يفنَـى الـزمـانُ ومـا لـه تغييـرُ

أرواحُنـا، لـو كـان فيهـا يُفتَـدى، جُـدْنـا بهـا، وبهـا الفـداءُ يسيـرُ

لكـنْ فنـاءُ الخلـق حُكـمٌ نـافـذٌ لـم ينـجُ منـه كبيـرُنـا وصغيـرُ

ما كان في الدنيا خلودٌ لامرئٍ ظَـنُّ الخلـودِ جَهـالـةٌ وغـرورُ

لو كان فيها لم يمتْ فيها امرؤٌ بـل لـم يكـن لـلأنبيـاءِ قبـورُ

فـاللّٰـه يلهمُنـا الـرضـاءَ بحكمِـهِ والصبـرَ عنـد الـرُّزْءِ، فهـو قـديـرُ

والحكـم للّٰـه العلـيِّ وإنمـا خيـرُ المصـابِ مُسَلِّـمٌ وصبـورُ

فـي صـالحيـةِ جلَّـقٍ وريـاضِهـا أودَى، فـراح إلـى الجنـان يسيـرُ

وضريحُه فـي روضـةٍ قـد أنـورت بضريـحِ محيـي الـدين وهـو منيـرُ

بجـوارِهِ قـد حـلَّ وهـو ضجيعُـهُ نِعـمَ الجـوارُ، وكـم لـه تـأثيـرُ

فعليـهِ رضـوانٌ ورحمـةُ ربِّـهِ مـا غـرَّدت فـوقَ الغصـون طيـورُ

أو مـا ابـنُ فتـحِ الله أنشـدَ راثيًـا مـا للحمـائـمِ لا تكـادُ تطيـرُ

* * *

مقامة في المفاخرة بين الماء والهواء

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا[١] لمن خلقَ العناصر، وجعلَ لكلٍّ منها فضلاً تُعقَدُ عليه الخناصر. وصلاةً وسلامًا على الجوهرِ الفردِ الذي منه عَرَضُ العالمَ، ومن هو في الدارين سيِّدُ بني آدَم. وعلى آلهِ وصحبهِ، وَمَن تَعَلَّقَ بحبِّه. ما اكتحَلَتْ عيونُ الطروسِ بمراودِ[٢] الأقلام، وقُلِّدَتْ نحورُ الدروسِ بعقودِ ألفاظِ العلماء الأعلام.

وبعدُ: فإنَّ الفكرَ والخيال، دَخلا بـي إلى رياضٍ ضاعَ[٣] زهرُها، فنمَّ عليهِ النسيمُ ودارَ عليه الماءُ الزلال. أكُلُها دائمٌ وظِلُّها، كأنّما قابلَتْ مرآتُها جنةَ النعيم فانطبعَ فيها مثالُها وشكلها.

فتلقَّتنا عودياتُ طيورِها بالصَّدْح، ومجامر كمائم ورودها بالنفح،

---

(١) طبعت هذه المقامة طبعة حجرية قديمة تعود إلى سنة ١٣٠٠هـ، وقد أورد نصها كاملاً الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ضمن ترجمة مؤلفها الشيخ أحمد البربير، وعلق على النص محقق الحلية الشيخ بهجة البيطار رحمهم الله جميعًا. فاستعنت بنص الحلية في تقويم نص المقامة، وأوردت بعض تعليقات المحقق معزوةً إليه برمز (ب). وبالله المستعان.

(٢) جمع مِرْود: وهو الميل من الزجاج أو المعدِن يُكتحل به.

(٣) ضاعت الرائحة: طابت وفاحت.

وزهرُها بثغرٍ باسمٍ ونهرُها بقلبٍ صافي[1]، وأدواحُها ببسطِ البسطِ من ظلِّها الضافي. وقامت لنا الأشجار على سوقها، وسَفَرَتْ لنا عرائسُ الورود عن لثام غبوقِها. وأدارَتْ علينا سُلافَ طلها كؤوس الزهور، قبلَ أن ترشفَهُ شمسُ البُكور. وحيّتْنا راحة الرَّاحةِ والسرور، بأصابعِ المنثور. وغنَّت لنا مُطَوَّقاتُ شواديها على العيدان، وأعربت وهي عجماء بفنونٍ تمايَلَتْ لها قدودُ الأفنان. حتى لو سمعها ركبُ العشّاق، على النوى لنسي الحجاز والعراق. وتمنَّى الدخولَ لذلك البستان. ورقصت بين أيدينا جواري الماء، وظهرت مع وجود شموسنا وبدورنا نجومُ[2] النبات حتى ظننَّاها نجومَ السماء. ولاحَ لنا عارضُ الغيثِ وشاربُ الآس فأذكرنا العيشَ السالف، وطافَ النسيمُ بكعبةِ صفانا طوافَ القدوم؛ فما كان ألطفَ ذلك الطائف.

غير أننا كنا نسمع مُحاوَرَة، ضمنها منافرةٌ ومفاخرَةٌ. فسألنا الرياضَ عن جَلِيَّة الأثر، فقالَت: سلوا النَّسيمَ فقد أصبحَ عند النَّسيم الخبر. فوجهنا وجه السؤال الوسيم، إلى قبلة النَّسيم. فتدلَّى وتدلَّل، وما أَلطفَ النَّسيم إذا تعلَّل. ثم مرَّ بنا مقبلاً ومقبِّلا، هذا وكلَّما مرَّ حلا.

وقال: يا أهل الفراسة والسياسة، والفتوَّة والمُروءة والحماسة، إنَّها منافسة بين الماء والهواء أوجبها حبُّ انفراد كلٍّ منهما عن صاحبه بالرياسة. فهل تنعمون بحضورهما لديكم، ومثولهما بين يديكم. ليعرض كلٌّ ما له من حُسن الأوصاف، وتحكموا بينهما بالعدل والإنصاف؟.

---

(١) حقها أن تكون محذوفة الياء: «صاف». ولكنه أثبتها لمناسبة السجع.

(٢) جمع نجم، وهو: ما لا ساق له من النبات.

فقلنا: لا نكره ذلك ولا نأباه، فهلمَّ بهما إلينا لنرفع ما بينهما من الاشتباه. فشمْس الحق لا يحجبها حجاب الباطل، وهيهات تكتم في الظلام مشاعل. فلم يزل الحق أبلج، والباطل لجلج. وحسبك قول خالق الخلائق: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فعند ذلك سرى النسيم إليهما مسرى النوم في الأجفان، والروح في الأبدان، والراح في النَّدْمان[١]. فأتى بهما وهو يتبسَّم ويتنسَّم ويتسنَّم، فحيا كل منهما وبيَّا وسلَّم.

فقلنا: وأنتما حُييتما بالسلام، وحُبيتما[٢] ما عطس الفجر ودبَّ الظلام. فإنكما أعظم دعائم الجماد والنبات والحيوان والإنسان، وأنتما الشقيقان اللَّذان لم يوجد لهما ثالث في عالم الإمكان. فهل ولج بينكما ذو نفاق، حتى صدر منكما هذا الشقاق؟ أو ذاك من دسائس النفس الأمّارة، ووساوس تلك العدوَّة الغدَّارة الغرَّارة؟ التي لا تأمر إلاَّ بالشر، ولا تصبو إلاَّ إلى الضُّر!!.

كيف لا؟ وهي عروس إبليس، ومصدر أفعال التدليس والتلبيس. أعدى العدى، وسبب الردى. قال لها الحقُّ: أقبلي. فأدبرت، وأعرضت عن جنابه واستكبرت. حتى ألقاها في الجوع، وألجأها به إلى الذلِّ والخضوع. فالشرّ في إهمالها، والخير في إعمالها وإذلالها. فمن أطاعها ندم، ومن عصاها سلم. ومن قهرها بالجهاد فهو بَطَل، ومن ملَّكها من مدينة جسمه خَرِب نظام إنسانيته وبَطَل.

---

(١) الراح: الخمر. والنَّدْمان: من النديم، وهو المنادم على الشراب.

(٢) في الأصل: وحييتما وهو تكرار لا يناسب السياق.

فالرأي للعاقل أن يحذر مكرَها، ويخالف أمرَها. لا سيّما إن أمرته بقطع رحم القرابة والأدب، أو رحم الصحبة أو الحرفة التي كل منها لُحْمة كلُحْمَة النسب. والمرء قليل بنفسه كثير بالإخوان، والرَّحِم مشتقة من الرحمٰن. ولهذا يوصَل[1] من وصلها، ويُفصَل من فصلها. وخير الناس من جنح إلى الصلح، ولم يداو جرحًا بجرح، كما قال الشاعر:

[من الكامل]

داوىٰ جوىً[2] بجوىً وليسَ بحازمٍ ... مـن يستكِـفُّ النـارَ بـالحَلْفـاءِ[3]

وقال آخر: [من الكامل]

مَـنْ يُشْـفَ مِـنْ داءٍ بـآخـرَ مثلِـهِ ... أُشِـرَتْ[4] جـوانحُـهُ مِـنَ الأدواءِ

وقال آخر: [من الطويل]

ومـا كنـتُ إلا مثـلَ قـاطـعِ كفِّـهِ ... بكـفٍّ لَـهُ أخـرى فـأصبـحَ أجـذَمـا

والحزم فيما قاله الشاعر: [من الكامل]

قَـوْمـي هُـمُ قَتَلُـوا أميـمَ أخـي ... فـإذا رميـتُ أصـابنـي سَهمِـي

على أن الدنيا دار زوال، ومنزلة ارتحال، ولا يليق بالعاقل أن ينافس فيما يزول، ويوجه وجه آماله إلى ما للفناء يؤول، كما قيل:

---

(١) في الأصل: يصل. وما أثبته أشبه بالصواب.

(٢) الجوى: شدة الوجد من حزن أو عشق، وداء في الصدر. (ب).

(٣) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل. (ب).

(٤) في الأصل: «أثرت» وما أثبته من الحلية أشبه بالصواب. لأن المعنى: شقَّت جوانحه، يقال: أشر الخشبة أشرًا: شقها أو نشرها.

[من الوافر]

منافَسةُ الفتى فيما يزولُ ... على نقصانِ همَّتِهِ دليلُ
ومختارُ القليلِ أقلُّ منهُ ... وكلُّ فوائدِ الدنيا قليلُ

ولا يغترَّ الفتى بقول الشاعر: [من الوافر]

وكلُّ أخٍ مفارِقُهُ أخوهُ ... لعمرُ أبي إلاَّ الفرقدانِ

بل يتأمل قول الآخر: [من الخفيف]

قلتُ للفرقدينِ واللَّيلُ مُلْقٍ ... سودَ أكنافِهِ على الآفاقِ
ألقيا ما استطعتُما فسَيُرمى ... بينَ شخصيكِما بسهم فُراق

ولقد استعاذ النبي ﷺ من جار السوء في دار المُقامة؛ إشارة إلى أن جار الدنيا يتحول عنك أو تتحول عنه وأنه لا يليق الضجر منه ولا السآمة. ومن المعلوم أن الدنيا إن بقيتَ لها لم تبقَ لك، فطوبى لمن جعلها قنطرة لآخرته فمر بها على هذا القصد وسَلَك. وويل لمن اغترَّ بسكونها وهي تمر مع السكون كالظلِّ مَرَّ السحاب، وظنها شرابًا ولو اختبرها لم يجدها غير آلٍ[1] وسراب. ويا سعادةَ مَنْ أقصر عندما أبصر، واعتبر لما اختبر؛ فالدهر أفصح مُؤْذِنٍ بالزوال، وأنصحَ[2] مُؤَذِّنٍ بالارتحال.

فلمَّا سمع الماء ما قلناه من الكلام، وتأمل ما فيه من منثور النثر وقلائد النظام. تموَّج وتأوَّد[3]، ورغا وأزبد. وجرى واضطرب، وعبس بعد القهقهة وقطَّب، وقال: يا معشر الأكابر، أما بلغكم قولُ الشاعر:

---

(١) الآل: ما يبدو كالسراب في أول النهار وآخره.

(٢) في الأصل: «أفصح» وآثرت ما في الحلية.

(٣) انحنى وانعطف.

[من الطويل]

إذا لـم يكُـنْ إلاَّ الأسنَّـةُ مـركبًـا فـلا رأيَ للمضطـرِّ إلاَّ ركـوبُهـا

وقول الآخر:

[من البسيط]

ولـم تـزل قلـةُ الإنصـافِ قـاطعـةً بينَ الرجالِ وإن كانوا ذوي رَحِمِ

وقول الآخر:

[من الطويل]

وظُلمُ ذوي القُربـى أشدُّ مضاضةً على المرءِ مِنْ وقعِ الحُسامِ المهنَّدِ

وقـول السفاح وهـو أول مـن وطَّد للخـلافة العبـاسية حين قتـل بني عمِّه أمية:

[من الطويل]

نُفلِّـقُ هـامًـا مـن رجـالٍ أعـزَّةٍ علينـا وإن كـانـوا أعـقَّ وألأمـا

أما عرفتم أن الأخ المعاند، كالعضو الزائد. يشين الذات، ويمنع اللذات. فقطعه من الرشَد، وإن آلمَ الجسَد. هذا ولا يغرَّ الهواءَ صفائي فكـم تكـدَّرْت، ولا يثـق بسـلاستـي فكـم انعقْـدتُ واستحجـرت. والـذي جمعت في صفاتي الأضداد، كما قال الشاعر وأجاد:

[من الخفيف]

أنـا كـالـورد فيـهِ راحـةُ قـومٍ ثُـمَّ فيـهِ لآخـريـنَ زُكـامُ

وحسبك ما قاله الشاعر:

[من المنسرح]

. . . . كـالمـاء فيـهِ الحيـاةُ والغَـرقُ

فإن زعم الهواء أن له عليَّ فضيلة، فليعرضها على أسماعكم غير متعلِّل بعلَّة ولا متحيّلٍ بحيلة.

فقلنا: نعوذ بالله من اجتماع النفس والهوى، فمن رامَ منكما أن يتكلَّم فليجعل منبر الفخر له مستوى.

فعند ذلك ثار الهواء وله غبار، وصعد منبر الفَخار. وقال: الحمد لله الذي رفع فلك الهواء، على عنصر التراب والماء، ونفخ في آدم من روحه وعلَّمه جميعَ الأسماء.

أما بعد، فمَن عرفني فقد اكتفى، ومن جهلني فسأبدو له بعد الخفا. أنا الهواء الذي أؤلف بين السحاب، وأنقل ريح الأحباب، وأهبُّ تارة بالرحمة وأُخرى بالعذاب. نصر الله بي محمَّدًا وصحبَه الأمجاد، وأهلك الله بي قومَ عاد. وأنا الذي تمَّ بي ملك سليمان، وأجري الماء في خدمتي لكل مكان. وسيِّر بي الفلك في البحر كما تسير العيسُ في البطاح، وأطارَ بي في الجو كلَّ ذاتِ جناح. وأنا الذي ألعب بالطُّرَر[1] فوق الغرر، كما ألعب بلِحى الجبابرة من البشر.

وأنا الذي يضطرب مني الماءُ اضطرابَ الأنابيب في القناة، والثعبان في الشعبان[2]. وأنا الذي أُميل قاماتِ الأغصان، وأُدني عارضَ الغيث وعِذار الآسِ من خدِّ الشقيق وشارب الريحان. إذا صفوْتُ صفا العالم وكان له نَضرة وزُهُوّ، وإذا تكدَّرْتُ انكدرت النجوم وتكدَّر الجوّ. لا أتلوَّن مثل الماء، المتلوِّن بلون الإناء. لولايَ لما عاش كل ذي نفس، ولولايَ ما طاب الجو من بخار الأرض الخارج منها بعد ما احتبَس. ولولايَ ما تكلَّم آدمي ولا صوَّت حيوان، ولا غرَّد طائر على غصن بان. ولولايَ ما سمع قرآن ولا حديث، ولا عُرِف طَيِّبُ المسموع والمشموم من الخبيث.

---

(١) جمع طُرَّة: وهي ما تتزين به المرأة من الشعر الموفي على جبهتها بالقص والتصفيف.

(٢) في الأصل: «والشبان في الثعبان» وما أثبته من الحلية أشبه بالصواب، وقد شرح الشيخ بهجة «الشعبان» بقوله: موضعه، يريد موضع الثعبان.

فكيف يفاخرني الماء الذي شبَّهَ الله به الدنيا البغيضة، التي لا تعدل عنده جناحَ بعوضة؟! وأنا الذي أطير بلا جناح إلى جميع الجهات، وهو الذي يخرُّ على وجهه ويمشي على بطنه كالحيات. وحسبي وحسبه هذا التفاوت العظيم ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢].

وحسبُ الماء ذمًّا خلوُّهُ من الحرارة المشتقَّة منها الحرية، وكونُ الرطوبة فيه طبيعةً غريزية. وأنا الذي سلم قلبي من القلب وإن كان من أحرف العلَّة، وهو الذي قلب الله قلبه لتحركه وانفتاح ما قبله[١]. وأنا الذي جعلني الله نشرًا بين يدي رحمته، وجعل مني طوفانًا استأصل به ما تركه آدم من ذرّيته. هذا وما خصّني الله به من المزايا يعجز عنه فم الدواة ولسان القلم وصدر الرقيم ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وأما أنت فحسبُك عيبًا قولُ بعضِ الأدباء: «فلان كالقابض على الماء».

وبالله قل لي: أي فخر لمن يعِزُّ مفقودًا ويهون موجودًا؟! ومن إذا أطال مكثه، ظهر خبثه. وإذا سكن متنه؛ تحرَّك نتنه. ومن نبع من الصخور، ومُرّ مذاقِهِ في البحور. وشرِق[٢] به شاربه، وغرق فيه مجاوره ومصاحبه، وعلَتْ فوقه الجيف، وانحطت عنده اللآلي في الصَّدَف؟!

---

(١) يريد أن الواو في كلمة هواء لم تُعَلَّ إذ أصل الهواء هوي، على حين أعلت الواو في كلمة ماء ألفًا إذ الأصل مَوَهٌ تحركت الواو بعد فتحة فقلبت ألفًا ثم أبدلت الهاء همزة.

(٢) شرِق بالماء: غصّ.

وقد بان الصحيح من السقيم، والمنتج من العقيم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

ثمَّ انحدر من منبره، ووعينا ما سرده من مفخره. وقال للماء: هات يا أبا الدَّأْماء[1].

* * *

فعلا الماء بموجه؛ حتى صعد إلى ما انحطَّ عنه الهواء من أوجِه. ولولا الأرضُ تملكُه لسال، لكنَّه تجلَّد وأقبل علينا وقال:

الحمد لله الذي خلق كلَّ شي، وجعل من الماء كلَّ شيءٍ حيّ.

أما بعد، فقد سمعت جَعْجَعَة ووَعْوَعَة[2]، ظننتها صريرَ باب، أو طنينَ ذباب. باطلٌ في صورة حق، وسرابٌ إذا تأملتَهُ زال وانمحق. فاسمع أيها الهواء ما أتلوه من آيات فخري الشامل، وما أجلوه عليك من عقد فضلي الذي أنت منه عاطل، ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١].

اعلم أولاً أن الدعوى قبيحه، وإن كانت صحيحه، كما قيل:

[من الطويل]

وما أعجبتْني قطُّ دعوى عريضةٌ ... ولو قام في تصديقِها ألفُ شاهدِ

فكيفَ إذا كانتْ بالزخارف مموَّهة؟! فهي أقبح من الخلقة المشوَّهة. ولعمري لا يروج الدرهم المغشوش، وإن أحكموا فيه أنواع النقوش. لا سيما إذا كان الناقد البصير[3]، ولا ينبِّؤُكَ مثلُ خبير. هذا وقد سردتَ ما

---

(١) الدأماء: البحر.

(٢) الجعجعة: صوت الرحا. والوعوعة: صوت الكلاب والذئاب.

(٣) في الأصل والحلية: بصير، ولا يصح لأنه لا بد من نصبها على الخبرية فآثرت =

زعمتَهُ فيك من الخصوصيات على سبيل المفاخرة والمباهاة، وأنا أقول ما مَنَّ الله به عليَّ على سبيل التحدُّث بنعمة الله.

فأقول: أنا أول مخلوقٍ ولا فخر، وأنا لذَّة الدنيا والآخرة ويوم الحشر. وأنا الجوهر الشفّاف، المشبّه بالسيف إذا سُلَّ من الغلاف، وقد خلق الله مني جميع الجواهر حتى اللآلي في الأصداف. أحيـي الأرض بعد مماتها، وأخرج منها للعالم جميع أقواتِها. وأكسو عرائس الرياض أنواع الحلل، وأنثر عليها لآلىء الوَبْل والطَّل[1]؛ حتى يُضرَب بها في الحُسْن المثل، كما قيل: [من البسيط]

إنَّ السمـــــاءَ إذا لـــــمْ تبـــكِ مقلتُهـــا

لمْ تضحكِ الأرضُ عن شيءٍ مِنَ الزهرِ

وأنا الذي أقتل العجوز، وأُذهب حرارة آب وتموز، وقد أفتاني الأفاضل: أنَّ مَنْ دخل عليَّ من باب المفاخرة أنه لا يجوز. فكيف ينكر فضلي من دبَّ أو درج، وأنا البحر فرعي، وفي الأمثال: حدِّث عن البحر ولا حَرَج.

وأمَّا أنت أيُّها الهواء، فكم ذهبت فيك نصائح النصاح، كما قال ابن هرْمة: [من الوافر]

وبعــضُ القــولِ يــذهــبُ فــي الــرِّيــاحِ

= أن أجعل كان تامة والبصير صفة للناقد.

(١) الوبْل: المطر الشديد الضخم القطر، والطلُّ: المطر الخفيف.

ولعمري إنه لا يفي قبولك بدبورك[1]، ولا تقوم جنتك بسعيرك، ولطالما أهلكت أممًا بسمومك وزمهريرك. فكم تواتر عنك حديث تشمئزُّ منه النفس وتمجُّه الأذن، وحسبك من العناد أنك تجري بما لا تشتهي السفن. وأنت المولَع برقص الجواري كفعل الفساق، وأنت الذي تهيج التراب وتغري النار بالإحراق، كما قال فيك ابن الرومي:

[من الكامل]

لا تُطفيَـــنَّ جـــوىً بلـــومٍ إنَّـــهُ ... كـالـريـح يُغـري النَّـارَ بـالإحـراق

ومن عيوبك أنك لا تسكن ولا يقرُّ لك قرار، ولم تفهم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾ [الأنعام: ١٣]. وقد ضربتِ العربُ بعدم استقامتك الأمثال، كما نقله عنهم أصحاب القصص، فمن ذلك قولهم: [من الرجز]

إنَّ ابـنَ آوى لشـديـدُ المقتنَـصْ ... وهو إذا ما صيدَ ريحٌ في قفَصْ

وأما قولك: لولاي لما عاش إنسان، ولا بقي على الأرض حيوان. فجوابه: لو شاء الله لعاش العالم بلا هواء، كما عاش عالم الماء في الماء. ولِمَ لا قلت: إن غالب هلاك كل ذي روح من الوباء. وإنه لولا الرطوبة التي اكتسبتَها أنت مني بالمجاورة، لاحترقتَ أنت فضلاً عن العالم لمجاورتك لطبيعة النار الحارّة. فعُلم بهذا أن حرارتك عرضية، لا أنها فيك طبيعية. ولو شئتُ لافتخرت بالحرارة التي تعرض لي من النار والارتماض[2]، ولكن لا يليق بالعاقل أن يفتخر بالأعراض، لأن العَرَض

---

(١) في الأصل: بدلورك، وما أثبته من الحلية هو الصواب.

(٢) ارتمض من الحزن: احترق (ب).

لا يبقى زمانين، كما برهن على أنه لا ينتقل إلى مكانين. وما الافتخار بشيء سريع الزوال، أو بعَرَضٍ ليس لطبيعة الشخص عليه انجبال. قال الشاعر: [من مجزوء الكامل]

وأحقُّ مَنْ نكستُهُ ... بالذلِّ مِنْ درجاتِهِ
مَنْ مجدُهُ مِنْ غيرِهِ ... وسفالُهُ مِنْ ذاتِهِ

ولذلك قيل: [من السريع]

لسنا وإنْ أحسابُنا كَرُمَتْ ... يوماً على الأحسابِ نتَّكِلُ
نبني كما كانَتْ أوائلُنا ... تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا

وأما قولك: إن طبيعتي الرطوبة. فذلك أعظم فخري؛ لأن الرطوبة مادة الحياة التي في الأجسام تسري، إذ الحرارة بمنزلة النار في الأبدان، والرطوبة لها بمنزلة الأدهان، فإذا خلص الدهن انطفأ السراج، وزال ما فيه من النور الوهّاج. وأما تعييرك لي بأني متلوِّن. فالتلوُّن صفة عارف الزمان، المتخلِّق بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وأمّا قولك: إن قلبي قد انقلب. فالحمد لله الذي قَلَبَهُ لأعلى الرتب؛ لأنه كان آخرَ الحروف فصار أولها. وكان مفضولَها فصار أفضلَها. إذ الألف تدلّ على الذات الأحدية، والباء تشير إلى الحقيقة المحمدية، فكل الأحرف من الباء، والباء إذا فنيت صورتها، وتعينها[١] ونقطتها، كانت عينَ الألف بلا مراء.

---

(١) لعل المراد تحنِّيها أي ما في جانبيها من انحناء فلو زال لعادت صورتها صورة الألف.

وأمّا قولك: إن فيَّ حرف العلة، وإنني منسوب بوجوده فيَّ إلى الذلّة. فلا يليق أن تعيبني بشيء أوجد الله فيك مثله. وهب أنك خلوت منه، فهل تخلو من قول الأطباء فيك: إنك أساس كلّ علّة؟!.

وأمّا قولك: إن الله شبّه بي الدنيا فقد شبّه الله بك أفئدةَ الكفّار، وجعل زمهريرك سعيرًا في النار. فأنت المذموم مقصورًا أو ممدودًا[1]، إن مددت كنت جبارًا عنيدًا، وإن قصرت كنت إلـٰهًا معبودًا. وأنا الذي لا أتغيَّر بالمدّ ولا بالجزر، وكيف يتغيَّر من هو مادة البحر.

وأمّا افتخارك برِفعة المنازل، وعدّك ذلك من أعظم الفضائل. فلا فضيلة للشخص بالمكان ولا بالزمان، كما قال الشاعر الملسان:

[من الوافر]

ولو كان المكانُ لَهُ عُلوٌّ   لطارَ الجيشُ وانحطَّ القَتامُ[2]

وقال الطغرائي: [من الكامل]

وإن علانيَ مَنْ دوني فلا عَجَبٌ

لي أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَلِ

هذا وأنشدك الله، أيُّنا كان عليه عرش الرحمن قبل خلق العالمين؟ وأيُّنا الذي جعل منه كل شيء حيّ وذكره بذلك في كتابه المبين؟ وأيُّنا الذي بعث به ابن عباس إلى ملك الروم في قارورة كان أرسلها إليه مع بعض الجنود، وطلب منه أن يضع له فيها كل شيء؟ والشيء عندنا هو

---

(١) المقصور: الهوى. والممدود: الهواء.

(٢) القَتام: الغبار.

الموجود. أما كفاك شهادة الله لي بالطهورية في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩]؟ أما بلغك شهادة الله ببركتي ـ وحسبي بها فخرًا ـ في طول البلاد والعرض؟ حيث قال في كتابه العزيز: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٣][1].

أما رأيت ما حباني الله به من عظيم المِنَّة، حيث جعلني الله نهرًا من أنهار الجنَّة؟ أما علمت أن مني حوضَ من كان إذا مشى في الشمس تظله الغمامة؟ أما تيقَّنت أنني نبعت من بين أصابعه فكنت له معجزة كما أكون لوارثي مقامه الرفيع كرامة؟ أما عرفت أنني أرفع الأحداث، وأطَهِّر الأخباث. وأجلو النظر، وأكون للمؤمنين في الآخرة نورًا في محلي التحجيل والغرر[2]؟ أما رأيت الناس إذا غبتُ عنهم يتضرَّعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء، ويسألونه تعالى إرسالي من قِبَل السماء؟.

واعلم أنني ما نلت هذا المقام الذي ارتفعت به على أبناء جنسي، إلاَّ بانحطاطي الذي عيَّرتني به وتواضعي وهضم نفسي. وأنا لا أحب المعالي، وأنا سلم للمحلِّ المنخفض وحرب للمحلِّ العالي. لا أتجاوز حدَّ العبيد، ولا أنازع سيدي فيما اختص به من الصفات التي لا تفنى ولا

---

(١) وردت هذه الآية في الأصل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ـ مباركًا ـ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو تلفيق بين آية سورة المؤمنون هذه وآية سورة [ق ٩]: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ وقد نبه على ذلك محقق الحلية.

(٢) إشارة إلى الحديث الشريف: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غرًّا محجّلين من آثار الوضوء». رواه البخاري، الوضوء باب (٣)، ومسلم الطهارة (٢٤٦) ٣٥.

تبيد، بل أخشى دائمًا بطشه، وأستحضر قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. فلذلك باعدني الله من النار، وجعلك حجابًا بيني وبينها، أتقي بك ما تطاير منها من الشرار. وقد علم كل عالم أن فضائلي تجل عن الحصر، وأني سيد العناصر ولا فخر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله من لغو الكلام، وأسأله لي ولأحبابي حسن الختام.

ثم نزل والتمس منا أن نحكم له بالفضل على الفور، وأن نجانب في حكمنا الميل والجور.

* * *

فقلنا له: إن كلاًّ منكما أدلى إلى الفضل بحجّة، وسلك من الدلائل العقلية والنقلية أوضح محجّة. غير أن تكافؤ الأدلّة، غادر منا الأفكار مضمحلّة، وقد عجزتْ عن ترجيح فضلكما الأفكار، كما عجز القاضي الأفعى عن الحكم لأبناء نزار[1]. وليس لهذه المعضلة، والحادثة العظيمة المشكلة إلاَّ الكبار، لا الهَمَج الرعاع، كما قيل: [من الكامل]

إنَّ الكبارَ أطبُّ للأوجاعِ

قال بعضهم: [من الرجز]

إنَّ العظيمَ يحملُ العظيما كما الجسيمُ يحملُ الجسيمَا

---

(١) الأفعى الجرهمي: حكيم جاهلي قديم، كان منزله بنجران، تقصده العرب في قضاياهم فيحكم ولا يرد حكمه، وقصته مع أبناء نزار في ابن الأثير (٢/ ١١). (ب).

ولعمري ليس لها غير إمام عصرنا، وغُرّة شامنا ومصرنا، المجتهد الذي قلّد ببره أعناقنا تقليدًا، وأخجل لطفُهُ غضَّ الزهر فتستَّر بأكمامه حتى رأينا في خدوده توريدًا. أعظم الموالي قدرًا، وأعلاهم نجرًا، وأرحبهم صدرًا، وأكثرهم برًّا، وأنفذهم نهيًا وأمرًا، وأعدلهم نحيزة، وألينهم شنشنة وغريزة. ذو اليدين، الذي كأنه ذو الخلال أو ذو النورين. من لو رآه ذو الجناحين لطار لفضله، أو ذو البطين لمال لبذله. أو ذو الأذنين لروى أحاديث شمائله الملاح، أو ذو الهلالين لقال: إنه الشمس وغرّة الصباح.

صاحب الطالع السعيد، الجاري سَيْبُ[1] كفِّه على الصعيد جريَ السعيد. الجواد، المذهب غُلَّة الجِياد[2]. من برز في ميدان الفضل وبرَّز، وحوى قصباتِ الرهان وأحرز، وزركش تاج المجد وطرز. المحسود، المحشود. رشيد الموالي وعين أمينها، وأبو عذرة المروءة وابن مدينها، والمتقلّد من فرائد المحامد بثمينها.

خلاصة العبّاد من العباد، وثمرة دوحة روض الحقائق من آل مُراد. من فضله الجوهر الفرد عند كل منصف وعندي، جناب مولانا وسيدنا عين أعيان الموالي الكرام السيد عبد الرحمن أفندي. لا زال وهو البَرُّ بحرَ الجود، ونجمَ الهدى والسعود. موطىء العقب والأكناف، حامي الذمار والأطراف، منيفًا على آل عبد مناف، ملحوظًا بعين العناية والألطاف.

---

(١) السيب: العطاء.

(٢) في الأصلين: الجواد. وما أثبته أقوم للعبارة لأن الجياد جمع جواد وهو النجيب من الخيل، وغُلّته: شدة عطشه.

فإنه عذيق الشام المرجَّب[١]، وروضُها المشذب المهذب، ومعشوقها المحبب. وروحها الذي به قوامها، وسلكها الذي لا يتم إلاَّ به نظامها. فكل من لم يثن إلى قصده العِنان، كان أشدَّ ندمًا من الكُسَعي[٢] وأخسر صفقة من أبي غبشان[٣]؛ لأنه لا يصرف الهِمَّة، لدنيِّ الهِمَّة، ولا تبصر منه إلاَّ رأيًا[٤] كالنجم في الدآدىء[٥] المدلهمَّة. عنده الحُجْنَة[٦]، أعظم هُجْنَة. وخُلْف الوعد، خُلُق الوغد. وعدم الجود بالموجود، من سوءِ الظنِّ بالمعبود.

له توكّلُ الطير، وعنده لا سرفَ في الخير. يحب المحاسنة، ويكره المخاشنة، ويحاشي مجلسه من المحاشنة[٧]. فيا له من جواد واسع المجَسَّة[٨]، لا يرتاع من المِحَسَّة[٩]. ونجيب لا يقعقع له

(١) رجبه: هابه وعظمه. ومنه: «أنا عذيقها المرجّب». أي المهيب المعظم. (ب).

(٢) إشارة إلى المثل القائل: «أندم من الكُسَعي». انظر: مجمع الأمثال (٢/ ٣٤٨)، ومعجم الأمثال العربية (٤/ ٣٩).

(٣) إشارة إلى المثل القائل: «أخسر صفقةً من أبي غَبْشَان» ويروى أيضًا: «أحمق من أبي غبشان». انظر: مجمع الأمثال (١/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، ومعجم الأمثال العربية (٣/ ٢٦٩).

(٤) في الحلية: «رؤيًا» وهي جمع رؤية.

(٥) الدآدىء من الليالي: الشديدة المظلمة (ب).

(٦) الحجنة: الاعوجاج، أو ما خصصت به نفسك. (ب).

(٧) حاشنه: شاتمه وسابّه. (ب).

(٨) أي رحب الصدر. (ب).

(٩) المِحَسَّة: ما يزال به الغبار عن الدابّة.

بالشِّنان[1]، ولا يُنبَّه بطرق الحصا وهل يُنَبَّه اليقظان؟.

وإن تأملت عزمه ولحظه، تحقَّقت أنه أسد بيشة[2] ولحظه. فمن باراه فقد ماقس[3] حوتًا وصارع ضرغامًا، وقاوم بالهِراوة عضبًا حسامًا. ونطح بقرنه المقطم، ورام أن يحكي بسرابه البحر الغطمطم[4]. ولم يعلم أن بيت القُدْس، غير بيت الفُدْس[5]، وأن بقيع الغرقد[6]، غير رقيع الفرقد[7]، وأن شجر المَرْخ[8]، غير شجر الورخ[9]. وأن الزُّنْبور غيرُ البازي وإن شاركه في الخفق والطيران، وأنَّ ورْدَ السَّلَم[10] غير ورد البستان. ولله در من قال:

---

(١) أي لا يروعه ما لا حقيقة له.

(٢) في معجم ما استعجم للبكري: بيشة: وادٍ من أودية تهامة، وبيشة أخرى وهي بيشة السماوة وهي مأسدة (١/ ٢٩٣)، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. (ب).

(٣) ماقس مماقسة: غامسه وغالبه في الغوص، ويقال: «هو يماقس حوتًا» إذا خاصم أقوى منه.

(٤) الغطمطم: البحر العظيم. (ب).

(٥) الفُدْس: العنكبوت.

(٦) بقيع الغرقد: مقبرة المدينة على ساكنها الصلاة والسلام. (ب).

(٧) الفرقد من الأرض: المستوي الصلب. (ب).

(٨) المَرْخ: شجر كثير الوَري سريعه. وفي المثل: «في كل شجر نار، واستَمْجدَ المَرْخ والعَفار».

(٩) الوَرْخ: شجر شبيه بالمرخ في نباته غير أنه أغبر، له ورق دقيق مثل ورق الطرخون أو أكبر.

(١٠) السَّلَم: شجر ذو شوك يُدبغ به، واحدته سَلَمَة.

[من البسيط]

قَدْ يبعدُ الشيءُ من شيءٍ يشابهُهُ ... إن السماءَ شبيهُ البحرِ في الزَرَقِ

ومن قال: [من الوافر]

وَقَـدْ يتقـاربُ الـوصفـانِ جِـدًّا ... ومـوصـوفـاهُمـا متبـاعـدانِ

وقال: [من الوافر]

فـإنْ يفـقِ الأنـامَ وذاك منهـمْ ... فـإنَّ المسـكَ بعـضُ دمِ الغـزالِ

كما قلت فيه: [من المجتثّ]

لا غـــروَ لابـــنِ المُـــرادِي ... وذاك شمـــسُ المـــواكـــبْ

إنْ فـــاقَ كـــلَّ المـــوالـــي ... فـالشمـسُ بعـضُ الكـواكـبْ

فهلمَّ للوفود عليه، والمثول بين يديه. فهو الذي يستنبط المَسائل ويرضى بفضله وبذله كل مُسائل، وإن لم يكن غير مكارمه إليه وسائل.

* * *

فلمَّا سمع الماء والهواء بمعروف ذلك الحبيب السري، والإمام الهمام العبقري؛ تعشَّقاه على السماع، وطلبا منا المبادرة إلى جنابه ليبلغا منه حظ الاجتماع.

فسرنا بهما إلى جَنابه، حتى بلغنا فسيح رحابه، وكحَّلنا الجفون بإثْمِد أعتابه. فصادف دخولنا خروج كعبة ذاته من حرم الحرم، فكأنما خرج الورد من الأكمام والليث من الأَجَم[1]. فنهضنا له على الأقدام، وحيانا بألطف سلام. وتسلم سلم قصره الفريد، وأشار إلينا أن نتبعه في

(١) الأَجَم: جمع أَجَمة: وهي الشجر الكثير الملتفّ.

الصعود إلى ذلك القصر المشيد. فرأينا قصرًا ينسب الخورنق[1] للقصور، ويغمد غمدان[2] كما تغمد في أجفانها الذكور[3]. وما بالك بقصر شهدت فضلاء الأكياس، بأنه جمَعَ محاسن الدنيا كما جمع صاحبُه محاسنَ الناس.

فكنا كما قال القاضي الفاضل: [من الطويل]

فمتَّعتُ آمالي بمولىً هُوَ الورى ودارٍ هيَ الدنيا ويومٍ هُوَ الدَّهرُ

ثم أمر لنا بالجلوس. هذا وعِطْفُ كلٍّ منا من الطرب ينوس.

فأقبلت علينا ذاتُ الدولة وبنتُ الوجاق، التي كلَّما مرَّت حلَّت، وكلَّما ثقلت خفَّت، على كل مَنْ رشف منها وذاق. السمراءُ المعشوقة، المقبولة مشروبةً ومرئيةً ومنشوقة، بنت اليَمَن واليُمْن، ذات الجَمال والحُسْن. شعر:

[من الخفيف]

كسَـــوادِ العيـــونِ تُظهـــرُ للنَّـــا س ســـوادًا وفـــي الحقيقـــةِ نُـــورُ

التي أرخصت الغالية[4] وكانت ندَّها، وملكت عنبر الطيب فأصبح يقول: لا تدْعُني إلاَّ بيا عبدَها. وغارت منها بكر السُّلاف[5] حتى اصفرت

---

(١) قصر في العراق عمره نعمان اللخمي لبني ساسان، ثم وسعه العباسيون. (ب).

(٢) قصر في صنعاء اليمن، كان يعد من عجائب الدنيا. (ب).

(٣) أي كما تغمد في أغمادها السيوف. (ب).

(٤) أخلاط من الطيب، جمعه غوال. (ب).

(٥) السَّلاف: الخمر أول ما تعصر، وأخلص الخمر وأفضلها.

من غيرتها، وأصبحت عجوزًا شمطاء ما رآها راءٍ إلاَّ وقطَّب وجهه من قباحة صفرتها. وأين بنت الحرام من بنت الحلال؟ وأين جُونَة[1] المسك من قوارير الأبوال؟ فأخذنا تلك البنيّة بالنيّة الصافية، وشربناها فقامت بها دعائم العافية. ولم نزل نرشُف منها ذوبَ المسك ومحلول السَّبَج[2]، حتى جاءتنا قصباتُ السبق للسرور تنادي ما على من أحرز قصبات السبق وتاه من حرج. فيا لها قصبات تدهش الأبصار، كأنها أغصان بان في طرف كل غصن زهرة من جُلَّنار[3]. وقد اشتمل مجلسنا على كل نديم له صورة الدمية ونفحة الريحانة، ونشوة السُّلافَة ولطافة الدرة اليتيمة والجمانة. أديب ألمعي، كأنه الأصمعي. تراه الكامل في الأدب، والعمدة في كل مطلب. يأتيك من البديع، بما يخجل ربيع الزهر وزهر الربيع. يثمر المسامرة، ويحضر المحاضرة، ويتقن المحاورة، ويحسن المجاورة. يبادهك بما رقَّ وراق، ويجلب لك الغصن من أزهار الأفكار وثمراتِ الأوراق. يجود على السمع بما يطلبه القلب من الاقتراح، ويجلو عليك من راح ملحه ما يوجب لك الراحة والارتياح. كما قيل في أمثالهم:

[من الطويل]

لنــا جلســاءُ لا يُمَــلُّ حــديثُهــم ... ألبَّــاء مــأمــونــونَ غيبًــا ومشهــدا

إذا ما خَلَونا كانَ حُسْنُ حديثِهم ... مُعينًـا علـى نفـيِ الهمـوم ومُسْعِـدا

يُفيدونَنا من عِلمِهم عِلمَ مَنْ مضى ... وعقــلاً وتهــذيبًــا ورأيًــا مُسَــدَّدًا

ولا غيبـةً نَخْشـى ولا سـوءَ عُشـرةٍ ... ولا نتَّقـي منهـم لِســانًــا ولا يَــدا

---

(١) الجُوْنَة: سُلَيلَة مغشّاة بالجِلد يحفظ فيها الطيب.

(٢) السَّبَج: الخرز الأسود. (ب).

(٣) الجُلَّنَار: زهر الرمان. فارسية معربة.

وما زلنا نقتطف منهم زهور الآداب، ونخترف[١] ثمار الألباب. وهم يمزجون جِدَّهم بالمفاكهة والمداعبة والمباسطة، ويزهون كالعقد وصاحب المنزل لهم كالواسطة. ومجلسه يحتفل بالوافدين، ويغصُّ بالواردين. وهو يخاطب كلاًّ على حسب قدره وعقله، ويتحف كل من له وَطَرٌ بقضاء وَطَره ولا يتعلَّل كغيره بشغله. حتى أقبل ملك الليل بسواده الأعظم، ونثر على الأفلاك جواهر النجوم التي كأنها العِقْد المنظم. وهذا ونحن في فلك السعود، كواكبنا وسماؤنا دخان العنبر والعود، وقد أشرق بدر تلك المنازل بالنور والكمال، وأشرف علينا بجبين لطيف رأينا عليه الهلال، وشنَّف بدرُ مَنطِقِهِ منا الأسماع، حتى خُيّل لكلٍّ منا أنه جليس القعقاع[٢].

وما زلنا في ليلنا نجمع عقود السرور كأنها فذالك[٣]، ونتمتع بنعيم لو سُئلنا عن أنفَس أعمارنا فذلك. حتى نبذ الله الكرى في هامة منا وراس، فأسكرتنا سِنَةُ النوم والنعاس. وهجم علينا ملك الكرى، وقد كاد أن يشيب عارض الليل مما سال من دمع الشمع وجرى. وعند ذلك طوينا من المنادمة بساطَها، وتفرَّقنا تطلب كلُّ نفس منا راحتها وانبساطها، ثم اضطجعنا على الوساد للرقاد، وأعطينا الجفون حقَّها من الإغفاء بعد السُّهاد.

---

(١) نخترف: نجتني.

(٢) شاعر مجاهد، فتح دمشق تحت قيادة خالد بن الوليد رضي الله عنهما. (ب).

(٣) فذلك الحساب: فرغ منه، والفذلكة: مجمل أو خلاصة ما فصل أولاً. (ب).

ولم نزل في ضيافة المنام، تقرينا أياديه السرور في الأحلام. حتى لفظ الشرق من لهواته ياقوتة سهيل[١]، ودبَّ مشيبُ الفجر في عارض الليل. فنهضنا للصلاة، وجلس كلٌّ منا بعدها في مصلاه. حتى طلعت شمس صاحبنا الفائق على الصاحب ابن عبّاد[٢]، فنفذ شعاعها من ظواهرنا إلى كلِّ قلب منا وفؤاد. ثم دخلنا عليه وسلمنا ودعونا بطول البقاء، فأجاب وأجاد وأجاز وتلقَّانا أحسن اللقاء. ثم جاءت القهوة التي طابت منظرًا ومخبرًا وذوقًا وشمًّا، ثم جيء بقصبات التبغ فارتضعنا منها كلَّ ثدي يلذ درُّه ريحًا ولونًا وطعمًا.

* * *

فلمَّا استوفينا منها أوفر حظّ، وخلا مجلسنا من كل بارد ثقيل فظّ. وشرب ذلك البحر المحيط بالفضل غليونه، وأراد أن يلقي عليَّ لكوني من الساحل بعض درره الثمينة. بادرته بالدعاء، وعرضت عليه مفاخرة الماء والهواء. وسألته فصل الخطاب، والإنعام بالجواب.

فالتفت عند ذلك للماء وأخيه، وقال: إن كلاًّ منكما مُحقّ فيما يدَّعيه. فما أشبهكما في السماء بالفرقدين، وفي الأرض بالعينين. ففضلكما معجِز، لا يكاد يميِّز أحدَكما عن أخيه مُمَيِّز. وقد نفع الله بكما العالم على تباين أنواعه وأشكاله، وقد ورد: «إن الخلق عيال الله، وإن أحبّهم إليه أنفعُهم لعياله». فلا تشتغلا بالمفاخرة عن شكر هذه النعمة، واعلما أنَّ حب الفَخار أهبط إبليس إلى حضيض اللعنة من أوج

(١) سُهَيل: أسطع النجوم الثوابت بعد الشعرى اليمانيّة.

(٢) وزير غلب عليه الأدب (ت ٣٨٥هـ). (ب).

شـرف الـرحمـة. فـلا تجعـلاه لكمـا إمـامًا، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

واعلما أنَّ الفخر في الدنيا بالمال، وفي الآخرة بالأعمال. وأحسن الافتخار الافتقار، وظهور الذل والانكسار. فقد قال مَنْ سال من بين أصابعه الماء المنهمر: «الفقر فخري وبه أفتخر». فمن كان عبد الله كان له به الافتخار، لا من كان عبد النفس أو الهوى أو الدرهم أو الدينار. فمن مناجاة عليّ كرَّم الله وجهه وزاده منه قربًا: سيدي كفانا شرفًا أن نكون لك عبيدًا وكفانا عزًّا أن تكون لنا ربّا.

وللقاضي عياض[1]: [من الوافر]

وَمِمَّـا زادَنـي شَـرَفًـا وتيهًـا ... وكِـدْتُ بـأخمصي أطـأُ الثـريَّـا

دخولي تحتَ قولكَ يا عبادي ... وأنْ صَيَّـرتَ أحمـدَ لـي نبيَّـا

على أنَّ مرآة الحق أَرتني فضيلةً تَفْضُلُ بها أيُّها الماء أخاكَ الهواء. وحقَّقت لي بأنكما لستما في الفضل سواء، وهي أنَّ الله خلق آدم من الماء، وخلق منك إبليس. فاعترِف لأخيك بالفضل عليك، ودع عنك زخارف التلبيس. فأكْبَرُ من الحق مَنْ قَبِله، وأصغرُ من الباطل من عَمِله. والتذلُّل للحق أقربُ للعزّ مـن التعزُّز بالباطل، وأعظم الزلّات زلّـة العاقل.

فعند ذلك عَدَلَ الهواء عن هَوَجه واعوجاجه، ومخاصمته وعلاجه. وأقبل يقبِّل ذيل الماء ويعتذر إليه، من استطالته عليه. وأقبل كلٌّ منهما

---

(١) عالم المغرب، محدث وفقيه وأديب (ت ٥٤٤هـ). (ب).

على صاحب المنزل يؤدي بالدعاء له حقوقه، حيث سلك بكلٍّ منهما مجاز الطريقة والحقيقة. وسألاني أن أمدح جنابه عنهما بطريق النيابة، ففتح الله لي من النظم بابه. فأنشأت أقول: [من الكامل]

عارضتُ قومًا عن ودادِك أعرضوا ... وتركتُهم إن صرَّحوا أو أعرضوا
مِـنْ كـلِّ ذي مَلَـق لَـهُ إن جئتَـهُ ... نفسٌ مـذبـذبـةٌ ورأسٌ مُنغـضُ[1]
يلقــاكَ منــهُ عنــدَ أولِ رؤيــةٍ ... جسمٌ صحيحٌ فيه قلبٌ مُمرضُ
يَحكي ثُعالـةَ وهْوَ فـي رَوَغـانِـهِ ... والحيّةَ الرقطاءَ حينَ تُنَضنِضُ[2]
قـد طنَّب الأنـدالُ فـي ساحـاتِـهِ ... بلْ أطنبوا وبنوُ المكارمِ قوَّضُوا
ويُقيـمُ منـهُ علـى ودادك حُجـةً ... ويظـنُّ جهـلاً أنَّهـا لا تُنقـضُ
يـا أيُّهـا الـراجـي لِخُلَّـبِ بَـرْقِـهِ ... خُذْ بالأصولِ ودَعْ عوارضَ تَعرِضُ
فلقد رجوتَ من التيوسِ حلوبةً ... ومخضـت مـاءً مثلُـهُ لا يُمخـضُ
تـاللَّـهِ لـو أنّـي فَـرَغْـتُ لثَلبهـم ... بالفكرِ واستنهضتُ ما يستنهضُ
لسللتُ سيفَ الهجرِ حتَّى إنَّني ... لـم يبـقَ فـي كَفّـيَّ إلاَّ المقبـضُ
لكـنْ أَبـى طبعـي الطهـور لأنـهُ ... يومًا برجسِ صفاتِهم يتمضمضُ
وشُغِلتُ من هجوي بمدحةِ سيِّدٍ ... لمـديحِـهِ يُلغـى المهـمُّ ويُـرفَـضُ
مـن بـاتَ للـرحمـنِ عبـدًا كلَّـهُ ... وسواهُ عبدٌ في العبيد مبعَّضُ[3]
نجـمُ أدارتْـهُ السعـودُ علـى ذرى ... قطـبٍ تـراهُ عـن العُـلا لا يقـرضُ
شيـخ الحقـائـق بـلْ مـرادُ إلـهِنـا ... مِنْ خَلقِهِ والنـاهـضُ المستنهـضُ

---

(١) أي محرك رأسه تعجبًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾. (ب).

(٢) النضنضة: صوت الحية، وتحريك الحية لسانها، ويقال للحية نضناض ونضناضة.

(٣) في الحلية: مبغض.

فــلأمــدَحَــنَّ جَنَــابَــهُ بجــوارِحــي
وجــوانِحــي سَخِـطَ الحــواسـدُ أورضُــوا

وبظـاهــري وببــاطنـي وبكـلِّ مَنبـ ـــتِ شَعــرةٍ وبكــلِّ عِــرقٍ ينبـضُ
فالمدح يُكرهُ للفتى في كلِّ ذي بخــلٍ وأمَّــا فــي عــلاه فيُفْــرَضُ
فهُــوَ المحبَّــبُ للقلــوبِ وغيــرُهُ أبــدًا وإنْ راقَ العيــونَ مُبَغَّــضُ
شَهــمٌ إذا أبطـأتُ عنــهُ جــاءَنــي مِنْ فيضِ راحتِهِ نوالٌ موفِضُ[1]
مَنْ لم يَرِشْ بالجودِ منهُ جناحَهُ كـرمًـا فِـدَاكَ إلـى العُـلا لا ينهـض
مـا سـاءنـي دهـري بـوجهٍ أسـودٍ إلاَّ بـــدا لـــي منـــه وجـــهٌ أبيــضُ
بَــرٌّ يُــريـكَ خِضَـمَّ بحـرٍ زاخـرٍ فــالحلـم منـهُ كـالنّـدا يتفضفـضُ
إن ليـمَ زاد علـى المَـلام كـأنمـا هُوَ بالمَلامِ على النّوالِ يُحرَّضُ
عجبًـا لقــومٍ أبصــروهُ شمسَهــم فتطــاولُــوا لمنــالِــهِ وتعــرَّضُــوا
ورأوه مِـلْءَ صـدورهـم وعيـونهـم كالليث في صدر المجالس يربِضُ
فتحــوا لأقــوال الــوشـاة عيـونَهـم جهلاً وعن بادي المزايا غمّضُوا
فليكفِهـــم ذُلاً وخِـــزيًـــا أنَّـــه بحــرٌ وإن هُــمْ فــي نَــداهُ خــوَّضُــوا
نَــدِبٌ فــأمَّــا عِــرضُــهُ فمــوفَّــرٌ أبـــدًا وأمَّـــا مـــالُـــهُ فمعـــوَّض
للَّـــه فـــوَّضَ أمـــرَ دنيـــاهُ وهَـــلْ يلقَــى العنــا عبــدٌ إليــهِ مُفَــوِّضُ
يــا وابــلاً كــلُّ الأنــامِ ريــاضُــهُ فمـــذهِّـــبٌ هـــذا وذاك مُفَضِّـــضُ
أصبحــتَ نفعًــا لــلأنــام وبعضُهــم لأذى البـــريَّـــة والبـــريِّ مُقَيَّـــضُ
فلغيـــر ذاتِـــك لا تتِـــمُّ فضيلـــةٌ ولغيـرِ مدحِكَ لا يشُـدُّ المغـرضُ
لا زلتَ في العزِّ الذي لا ينقضِي ومُشيِّـدَ المجـدِ الـذي لا يُنقَـضُ

---

(١) في الحلية: مفوض.

ما أحمد البربيرُ عاشَ بمدحِكم   طـربًـا ومـاتَ بـه العـدوُّ المبغـضُ

ثم رجعت بعد إنشادي من عالمِ الخيال إلى عالم الإحساس، فلم أرَ أحدًا ممن رأيته من تلك الأنواع والأجناس. فعلمت أن الدنيا كلها خيال، وبرق خلَّب وآل. والناس كلهم نيام، وما يرونه في الدنيا أضغاث أحلام. فسألت الله أن ينبهني وأحبابـي من نوم الغفلة قبل هجوم الحِمام، وأن يمتعنا بوجهه الكريم في دار النعيم والسلام[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) بعدها في حلية البشر (١/ ٢٣٧): وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والحمد لله على التمام.



المفاخرات والمناظرات

(٢)

المفاخرة بين الشمس والقمر

تأليف

الشَّيخ الأَديب بهاء الدِّين مُحَمَّد بن عبْد الغَني البيطَار

(١٢٦٥هـ - ١٣٢٨هـ)

عُنِيَ بِها

الدّكتور محمّد حسّان الطّيّان

جامِعة الكويت - كليّة الآداب

دار البشائر الإسلامية



ترجمة المؤلف

هو الشيخ الأديب محمد بهاء الدِّين بن عبد الغني بن حسن بنِ إبراهيم، البيطار.

ولد في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٦٥هـ.

حفظ القرآن الكريم على والده وجوَّده، ثُمَّ قرأ عليه الشاطبية وشرحها لابن القاصح، وقرأ عليه جملة من كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والعروض والقوافي وغير ذلك، ثُمَّ قرأ في الفقه والتوحيد والتفسير والحديث.

لازم علماء دمشق الأعلام؛ فأخذ عن الشيخ محمد الطنطاوي علم الجبر والمقابلة والحساب والميقات والفلك حتى برع، وقرأ على عمه الشيخ محمد البيطار جملة من كتب المذهب الحنفي، وقرأ على عمه الآخر الشيخ عبد الرزاق البيطار بعض رسائل الربع المجيب والمقنطر. وكان للمترجَم مطالعة مع فهم جيد في علم الرمل.

له نظم لطيف، ونثر رقيق، وكتب مقامة أنشأها في المفاخرة بين الشمس والقمر. وترك مؤلفات منها:

- النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية. ط مصر سنة ١٣١٤هـ (مجلد ضخم).

ـ فتح الرحمن الرحيم.

ـ الواردات الإلـهية (ثلاثة مجلدات).

وله رسائل كثيرة منها:

ـ فيض الواحد الأحد في معنى خلود الأبد.

ـ قرة العين في حل البيتين (أولهما: يا قبلتي خاطبيني في سجودي).

ـ منظومة في الوجود والشهود والحق والخلق والجمع والفرق (أكثر من تسع مئة بيت).

وكانت له أملاك كثيرة ورثها عن والدته التي لم يكن لها ولد غيره فباعها، وأنفقها، ولم يخلف عقارًا، وكان يسمى أبا الفقراء.

توفي سنة ١٣٢٨هـ[١].

* * *

(١) مصادر ترجمته: حلية البشر لعمه الشيخ عبد الرزاق البيطار(١/ ٣٨٠)، ومعجم المؤلفين لكحاله (١٠/ ١٧٩)، وعلماء دمشق في القرن الرابع عشر لمطيع الحافظ ونزار أباظة (١/ ٢٥٦).

المفاخرة بين الشمس والقمر

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا[1] يسارُ بن حازم، عن فتح الله أبـي المكارم، قال: رويت عن الورقاء[2]، بسندها عن العنقاء[3]، قَالت: نشرت جناح الهمة، وطرت في فضاء الحكمة. ثم عرجت على الرفارف، إلى عالم اللطائف. فلم أزل أخترق حجابًا بعد حجاب، وأستفتح بابًا بعد باب. إلى أن وصلت مواطىءَ الأنوار، وحصلت بمواطن الأسرار.

فلما مَرَحتُ في مغانيها، وانشرحْتُ بمعانيها؛ جُلْتُ بأعلى مجالي، في وجوه تلك المجالي. فرأيتُ في مرايا العجائب، ومزايا الغرائب: مجلسًا من مجالس السمر، جمع الشمس والقمر. وهما متقابلان في النظر، في ليلة أربعةَ عَشَر. فألِفْتُ منهما الحديث والنظرة، ودلفتُ لتلك الحضرة. ثم بادرت بالتسليم، وحييت بالتعظيم. فقالا: مرحبًا وأهلاً، فلقد صادف الغريبُ أهلا.

ثم أجلساني على موائد الفوائد، وآنساني بفرائد العوائد. ثم شرعا يتناجيان، وقد برعا بسحر البيان، فعاينت ما أخذ بمجامع قلبـي، واستولى

---

(١) أورد هذه المفاخرة كاملة الشيخ عبد الرزَّاق البيطار في «حلية البشر» (١/ ٣٨٢ـ ٣٩٩).

(٢) الورقاء: الحمامة.

(٣) طائر متوهم لا وجود له.

على عقلي ولبِّي: من طرائف ألفاظ، أسحرَ من الألحاظ. وظرائف معاني، هي نزهة كل مُعاني[1]. فما أحلى ثمرَ تلك الفاكهة، وما أجلى ذاك السحر والنباهة. وما أرشقَ هاتيك الفِقَر، المُزرِية باللآلىء والدُّرَر. وما آنقَ تلك الأسجاع، الممتزجة بالطباع والأسماع. لقد رقَّتْ وراقت، ودقَّت وفاقت: [من البسيط]

كأنَّ سامِعَها مُذْ مالَ من طَرَبٍ بينَ الرياضِ وبينَ الكأسِ والوَتَرِ

ثم إنهما لم يزالا في منافثةٍ[2] أطيبَ من العناقِ للمشتاق، ومحادثةٍ أطربَ من الصبا والبياتي[3] للعشّاق. إلى أن جرَت بهما سوابحُ المحاورة، وجرَّتهما سوانحُ المحاضرة، فألقتهما من مسالكِ تلك المسامرة، في مهاوي المهالك ومساوىء المفاخرة.

* * *

فصعد القمر، على المنبر الأزهر، وقال: الحمد لله والله أكبر. هذا جمالي قد زهر، وجلالي قد بَهَر، لمن شاهد ونظر، وحقَّق واعتبر. أنا السرُّ الأكبر، والكبريت الأحمر. ذو السناء الزاهي، والضياء الباهي. جُليت في أحسن الصور، وانشققت لسيِّد البشر، وكان يناغيني في الصغر، ويناجيني كما في الخبر. فأنا سلطان الكواكب، وزينة المراكب. أزور غِبًّا، لأزداد في القلوب حبًّا. فسبحان من حلَّاني بحلل النُّضار[4]، وولاني

(١) كذا في الأصل، وحقها أن تكون: وظرائف معان، هي نزهة كل معان.

(٢) نافثه منافثة: خاطبه وسارَّه.

(٣) الصبا والبياتي أو البيات: نغمتان مشهورتان.

(٤) النُّضار: الذهب.

ملك المجد والفخَّار. وهدى بـي في ظلمات البر والبحر، فأنا سيد النيِّرات ولا فخر.

ثم أنشأ وارتجل، وأنشد بغيرِ وَجَل: [من الوافر]

أنـا قمـرُ المحاسـنِ والسّنـاءِ ... ولـي بيـنَ المـلا أبهـى لـواءِ
فوجهي مشرقٌ في الأرض يُبدي ... مـن الأضـوا صبـاحًا فـي المسـاءِ
أروق بطلعتـي الأبصـارَ أُنسًـا ... وأُبهـجُ بـالمسـرَّةِ كـلَّ راءِ
يـرى شِبـهَ الحبيـبِ بـي المُعَنَّى ... ويشكـو مـا عـراهُ مـنَ العنـاءِ
وينتظـرُ المـلا مَجلـى طُلـوعـي ... هـلالاً بـالمسـرَّةِ والهنـاءِ
فـإنْ لـم يلمحـوا مـرأى هِـلالـي ... تـراهـم شـاخصيـنَ إلـى السمـاءِ
فبـي صـومُ الأنـامِ بكـلِّ قطـرِ ... كـذاكَ العيـدُ يبـدو مِـن لقـائـي

فالحمد لله الذي قدَّرَني منازل، وصدَّرني في ميدان السباق وقدَّمني على كل مُنازل. وصوَّرني بأكملِ صورةٍ وأجمل إنشاء، ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء.

ثم ختم إنشاء كلامه، بصلاته على النبـي وسلامه.

❊ ❊ ❊

فلما سمعت الشمسُ نثرَه ونظامَه، ووَعَت قولَه وكلامه؛ زفرت زفرةَ القيظ، وكادت تتميَّز[١] من الغيظ. فارتَقَت عرشَ اليراعة والجمال، وانتقت فرش البراعة والكمال. ثم قالت بعد أن تَجَلّت ببرود السَّناء، وتحلَّت بعقود الحمد والثناء:

---

(١) تتقطع.

أنا العروس الناضرة، والعين الناظرة. بـي تحلو ثمار لواعب الأدواح[1]، وتبدو محاسنُ الكواعبِ الملاح. ويأمنُ لعمري الخائف، طارقَ الليل الحائف[2]. وتُنسخُ بـي آيةُ الليل الحالك، وتستنير المسالك لكل سالك. ويمتـاز اليقيـن مـن الحـدْس[3]، واليـوم مـن الأمـس. ولـولاي لـم تتحـرَّر مواقيت الصلاة، ولم يتيسر نيلُ يواقيت الصِّلات.

فتباركَ الذي جَعَلَ في السماءِ بُروجًا، وأجراني لمستقرِّي بها نُزولاً وعُروجًا. وجعلني فيها سراجًا وهَّاجًا، وأوضح لي منها مَسْلكًا ومِنهاجًا. وجلَّ مَنْ رفعني مكـانًا عليًا، وحباني من فضله نورًا جليًّا. وأسكنني أوسط الأفلاك، والوسط خير الأمور، ونظمني في سِلك العالين من الأملاك، فسائر الأنوار عليَّ تدور. وأحلَّ بفلكي نبـيَّ الله إدريس[4]، قطبَ الوجود في كل زمان، وغيرُه في هذا المقام النفيس، نائبٌ عنه في هذا الشان. وأقسم بـي وبضُحاي، وفضَّلني وأكرم مثواي. فلي القطبيَّة العُظمـى بيـن الأنـوار، وبطلـوعي وغـروبـي منـاطُ الليـل والنهـار. ومـن مشكـاتـي أشـرق كـلُّ نـورٍ فـي العـالميـن ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم رَنَـت[5] القمرَ بعيـن مُحمَرَّة، ووجنة مُصَفَـرَّة. وقـالت: عجبت

---

(١) الشجرات العظيمة المتسعة، وهي جمع الجمع لدوحة.

(٢) اسم فاعل من حاف يحيف إذا جار وظلم.

(٣) الحدس: الظن والتخمين.

(٤) قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

(٥) يتعدى هذا الفعل بنفسـه وبحرفي الجـر: اللام وإلى، يقـال: رنوتـه ورنوت إليـه ورنوت له: أدمت النظر.

للمملوك، يجاري في مَسراه الملوك. وللدِّرهم المصكوك، يباري الذهَب المسبوك.

أيها القمرُ القاضي بحدسه، المتغاضي عن معرفة نفسه. كأنك تقول لي بلسان الإشارة: «إيَّاكِ أعني فاسمعي يا جاره»[١]: [من الرجز]

سوفَ تَرى إذا انجلى الغُبارُ أَفَرَسٌ تحتَكَ أم حِمارُ

أما علمتَ أيها المتغالي في الحدّ، والمتعالي بما ليس في اليد: أن دعواك في النور، محضُ مَيْنٍ وزُور[٢]؟؛ حيثُ كنتَ ليلة الميلاد، مرتديًا السواد، فلم أزل أُربِّكَ بسنائي وليدا، وألبِسُكَ من ضيائي ثوبًا جديدا. إلى أن اشتدَّ ظهورُك، وامتدَّ في الآفاق نورُك. فإذا كانَ ليلةَ الرابعةَ عشرةَ من الشهر، أقابلك بكمالي فتكون كاملَ القدر. فعند ما تمّ لك مني السَّنا، جهلْتَني ولم تدرِ من أنا! أما علمت أن نورَكَ منِّي وإليّ، وحُكمك في الإضاءةِ عائدٌ عليّ؟ فكيف تفتخر علينا بنا، وتسوِّي في المقام بينك وبيننا؟ وأما زَهْوُك[٣] بالانشقاق للسيد الحبيب، فليس بأعجبَ من ردّي له بعد المغيب[٤].

ثم أنشدَتْ بلسانٍ صادع، وأرشدت ببيانٍ بارع: [من البسيط]

لي رتبةٌ في العُلا تسمو بها الرُّتَبُ وأوجُ مجدٍ لهُ العلياءُ تنتسبُ

---

(١) مَثَل يضرب لمن يتكلم بكلام، ويريد به شيئًا غيره. مجمع الأمثال (١/ ٤٩)، والرواية فيه: «. . . واسمعي يا جاره».

(٢) المَين الكذب، مان يمين مَينًا: كذب، والزّور الكذب والباطل ومنه شهادة الزُّور.

(٣) الزَّهْوُ: الكِبْر والتِّيهُ والفخر والعظمة.

(٤) تراجع معجزاته هذه ﷺ في كتب السيرة النبوية.

وآيةُ الحسنِ بالإشراقِ تشهدُ لي ... بأنَّ منِّي جميعَ النورِ يُكتسبُ
إذا بزغْتُ فلي ملكُ الضياءِ وإنْ ... أغِبْ فعنيْ ينوبُ البدرُ والشُّهُبُ
لولايَ لم يستقِم للنَّاسِ عيشُهُمُ ... ولا بَدَتْ لهمُ الأيامُ والحِقبُ[1]
ولا حلا ثمرٌ ولا نما شجرٌ ... ولا بدا قمرٌ ولا هَمَتْ سُحُبُ
عيني أنارَتْ وجودَ الكونِ أجمعه ... ومن هُداي اهتدى الأعجامُ والعربُ
ومن ظلالي مواقيتُ الصلاةِ ومِنْ ... غروبيَ الفطرُ للصُّوامِ يُرتقبُ
فلي الكمالُ الذي حُزْتُ الفَخَارَ بِهِ ... «وإن علانيَ مَن دوني فلا عَجَبُ»

* * *

فلما سمع القمرُ ما هاله، قال: لا دارَتْ لي هالة[2]. إن لم أبرز لك في ميدان السَّبْق، وأبدي شرفي عليك لسائر الخلق. أما سمعتِ أيَّتها الشمس، قولَ بارىء الجنِّ والإنس: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فأنتِ بي في الفضل مندرجة. على أنك وُسمت بالعين، وقد شاهدت بالعينين ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وأعدلُ شاهدٍ بسبقي لمن اعتبرَ، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠].

وأمّا ما تعاليتِ به عليَّ، قائلة: إن نورَكَ مني وإليَّ. فالفرع قد يشرِّفُ أباه، أحبَّ ذلك أو أباه: [من الرمل]

إنَّما الوردُ مِنَ الشوكِ وما ... يَخرجُ النَّرجسُ إلاَّ مِنْ بَصَلْ

فلا غروَ أني القمر المنير، ذو الشأن الخطير. بسنائي تطيب القلوب، وعلى ضيائي يجتمع المحب والمحبوب. فالأفراح لا يتمُّ

(١) جمع حقبة، وهي المدة من الوقت.

(٢) الهالة: دارة القمر، كالطفاوة لدارة الشمس. جمعها: هالات.

سرورُها إلاَّ بحضرتي، والراح لا يكمل حُبورُها إلاَّ لدى طلعتي. وكم من ذي جفن ساهر، وذهن حائر. وطرف جائل، ودمع سائل. وقلبٍ ذائب، وكربٍ دائب. يبثُّ لي شكواه، ويَنَثُّ[1] لي بَلواه. وكم من كَلِفٍ يحنُّ إليّ، لما يرى من شَبَهي بالحبيب، ودنف يئن لدي، كأني لدائه طبيب. فأنا الشقيق لأهلِ الحُسن والجمال، والشفيقُ على من صبا عشقًا ومال. إن أنكر المحبوب وَجْدَ الحبيب، أجابه: سل أخاك فإنَّه عليّ رقيب. وما أعذب ما قاله ابنُ سهلِ الهمام، في هذا المقام: [من البسيط]

سَـلْ فـي الظـلام أخـاكَ البـدرَ عـن سَهـرِي
تـدري النّجـومُ كمـا تـدري الـورى خَبَـري

مع أني شريكُ ذوي السُّهاد[2] ليلا، والهائمُ معهم بجمالِ سُعدى وليلى. فأنا رئيسُ ديوان الصبابة، وأنيس من فوّقَ[3] له الهوى سهمَ الحب فأصابه: [من الطويل]

فمـا شَـرِبَ العشَّـاقُ إلاَّ بقيَّتـي ولا ورَدوا في الحبِّ إلاَّ على وِردي

خلا أني أقربُ الكواكب إلى عالم الإنسان، وأعذبُهم في تمام الحسن وكـمـال الإحسان. فـلذا جمالي باد، لكل حاضر وباد. تقرُّ الأعينُ برؤيتي، وتشتهي الأنفس شهود طلعتي. فغُرَّتي طالعُ السعد والبشـر، وسمـائـي مـوطـن آدم أبـي البشـر. فلتكـفَّ الشمـسُ عـن

---

(١) نَث الخبر: أفشاه.

(٢) السهاد: الأرق.

(٣) فوّق السهم: جعل له فوقًا وهو الموضع الذي يثبّت الوَتَر منه.ح

مـضـاهـاتـي، ولتُمْسِـكْ عـن مسـاجلتـي ومبـاهـاتـي. ولتحـاولْ غيـرَ هـذه الشطَّة[1]، قبل وقوعها معي في أعظمِ ورطة. ولتعترفْ بفضلي اعترافَ من تنبَّه غِبَّ[2] ما سها، وإن عادت العقربُ عدنا لها.

ثمَّ شمر عن ساعده الأشد، وضرب بلسانه أرنبة أنفه وأنشد:

[من البسيط]

لي منهجٌ في العُلا قد عزَّ مسلكُهُ ... ولي الكمالُ الذي بالفضلِ أملكُهُ
تمنَّتِ الشمسُ أنْ تدنو لمرتبتي ... «ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يدركُهُ»

* * *

فعندَ ذلك التهبت الشمسُ غضبًا، وقضَتْ بما سمعته وشاهدتَه عجبًا، وقالت:

تعاليتَ عليَّ بالإفك، وتعاميت عن حِطَّتِك[3] مذ كنتُ هلال الشك. وبغيت بغيَ من ضلَّ وتزندق، وتفرزنت وما أنت إلاَّ بيدق. أو ما خجلتَ من هـذا الصَّلَف، مـع ما في وجهك من الكَلَف؟ وهل أنت مني في القَدْر، إلاَّ كقُلامة الظُّفْر؟! ومع ما فيك من المحوِ والنقصان، كمالك لا يفي بتمام الإيضاح والبيان. فأنت تالٍ وأنا مَتْلوَّة[4]، وآيتي مبصرة وآيتك ممحوَّة[5].

وكفاك أيها الخادع الغرَّار، أن اسمك مشتق من القِمار. وأنك عونُ

---

(١) شطت داره بعدت وأفرطت في البعد.

(٢) غبَّ: بعد.

(٣) الحِطَّة: نقصان المنزلة.

(٤) ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ١، ٢].

(٥) ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

السارق، وهونُ العاشق الطارق. تُحِلُّ أجرة المنزل وأجلَ الدين، فتُذِلُّ بذلك فاقدَ الورِق[1] والعين[2]. ويُبلي نوركَ ثيابَ الكَتّان، ويؤول كمالكَ إلى النقصان. وليت شعري هل لك بظهوري ظهور، وهل محور الدرج والدقائق إلاَّ عليَّ يدور. فالزم الخضوع والاستكانة، ولا تطاول من سماك مكانًا ومكانة. فما هلك امرؤٌ عَرَف قدره، ولا سلك صوابًا من روَّج مكره وغدره. ولقد بانت حُجَّتك، واستبانت محَجَّتك. فلا تَعُدْ بعدُ إلى الحيف، فتكون كمن ضيَّع اللبن بالصيف[3]. والزم الأدبَ مع أهل الكمال، ولا تكُ ممن عرف الحق ومال.

ثم إنها تاهت تيهَ نَشوان، وفاهت بشبيه الجُمان:

[من مجزوء الكامل]

أنا قدْ لبستُ ببهجتي	خِلَعَ الملاحةِ والطُّرَفْ[4]
وظهرْتُ في أوجِ العُلا	ببديعِ حسني والظُّرَفْ
حَسْبُ الهلالِ تكلُّفًا	ما فيه من شَينِ الكَلَفْ
وبأنَّهُ لو لم يُقا	بلني لغشَّاهُ السَّدَفْ[5]
وإذا تجلَّتْ طَلعتي	في ذاتِهِ منها انكشَفْ
وإذا انحرفْتُ لوُجهتي	في السيرِ أظلَمَ وانكسَفْ

---

(١) الدراهم المضروبة.

(٢) الذهب المضروب.

(٣) هو مَثل لمن يطلب شيئًا قد فوَّته على نفسه، ونصه: «الصيفَ ضيعتِ اللبن» أو «في الصيف ضيعت اللبن». (انظر: مجمع الأمثال ٢/ ٦٨).

(٤) جمع طُرْفة، وهي الحديث الجديد المستحسن.

(٥) السَّدَف: الظلمة والضوء: من ألفاظ الأضداد.

فكــــــأنَّنــــــي وكــــــأنَّـــــهُ ... فــي شــأوِ[1] سَبْــقٍ ذي شَــرَفْ

كـــــالـــــدُّرَّةِ البيضـــــاءِ إذْ ... يــا حــالهــا قشــر الصَّــدَفْ[2]

* * *

فلما أمعن القمرُ في معانيها، وجال طرفُ فكره في مغانيها؛ وثب وثبة الأسد، ونعَب نَعْبة[3] الحرد والغضب. وقال:

أيتها اللافحةُ بنار الهاجرة، لأنتِ التاركة للإنصاف والهاجرة. وتزدرينني بسواد الكَلَف[4]، أو ما دريتِ أنه من دواعي الحبِّ والكَلَف، فهل هو إلاَّ كخالٍ تُوِّجَ به الخدُّ المورَّد، أو كنقطةِ عنبر صيغت على درٍّ مُنضَّد، أو عِذار يقيم لعاشقيه الأعذار، أو إنسان عينٍ يشير لناظريهِ بالإنذار. وكأنكِ لم تسمعي قول من قال، وأحسَنَ فيما قال: [من الكامل]

أهــلاً بفطــرٍ قــد أنــارَ هِــلالُــهُ ... الآن فــاغــدُ علــى المــدام وبكِّــرِ

فكــأنَّمــا هــو زورقٌ مــن فضَّــةٍ ... قــد أثقلتْــهُ حمــولــةٌ مــن عنبــرِ

وأرقُّ من هذا في التشبيه، وأدقُّ وألطفُ في التنبيه، قولُ من أجاد: [من الكامل]

يا ريمَ[5] قومي الآن ويحَكِ فانظري ... وجهَ الهلالِ وقد بدا في المشرقِ

كخليلــةٍ نظــرَتْ إلــى خِــلٍّ لهــا ... فتنقَّبَــــتْ خَجَــــلاً بكُــــمٍّ أزرقِ

---

(١) الشأو: الأمد والغاية.

(٢) كذا في الأصل، ولم يتجه لي معنى الكلام!.

(٣) نعَب الغراب: صاح وصوَّت.

(٤) السواد في الصفرة.

(٥) الريم: الظبيُ الخالص البياض.

ومن هذا القبيل ما قيل: [من مجزوء الكامل]

قــالــوا التَحــى، فمحــا محــا ســـنَ وجهـــهِ نبـــتُ الشَّعَـــرْ
الآن طـــــــابَ وإنَّمـــــــا ذاكَ النهـــارُ علـــى السَّحَـــرْ
لـــولا ســـوادٌ فـــي القَمَـــرْ واللّـٰــهِ مــا حَسُـــنَ القَمَـــرْ

وأعدلُ شاهدٍ لي بكمال القدر، تلألؤ وجهه ﷺ تلألؤُ القمر ليلة البدر. وكان إذا رآني يقابلني بجميل مُحيَّاه، ويقول: «هلالُ خيرٍ ورُشْدٍ إن شاء الله».

فبركاتي مشهورة، والدعوات لدى ظهوري مأثورة. وحزبـي هم السادة الأفراد، وصحبـي هم القادة الأمجاد. يناجون معي في الأسحار، ويرجون سنيَّ النفحات بالذلة والانكسار. ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦]، وتنهلُّ من عيونهم عيونُ المدامع. فلا ريب أنهم فازوا بالمشاهدة والوِصال، وحازوا أحسن الشيم والخصال. ولي إليهم أيادٍ وأيّ أياد، حينما يصدونني للصوم والأعياد.

هذا، وإن شعاعَكِ أيتها الشمس، يذهب بالسرور والأنس. ينشي الصـداع، ويغشي الأسـمـاع، ويـنـفر الطباع، ويثير الداءاتِ والأوجاع. فـلا يبـدو بـه انشـراح، ولا تشـدو بـه بـلابـلُ الأفـراح. ومـن الـذي بشعاعك ترنَّم، و «شدةُ الحرِّ من فيحِ جهنَّم». وكيف لا وسيد الأنام، ظلَّله مِـنْ حَـرِّكِ الغمام. وقد صحَّ عن سيد ولدِ عدنان، «طلوعُكِ بين قَـرنـي شيطـان». ففضلـي عليـك متعيـنّ واجـب، والعيـن لا تعلـو علـى الحاجب.

* * *

فلما وعت الغزالة[1] ما أبداه، ورعت منتهى كلامه ومبتداه. آلَتْ[2] بربِّ المشارق والمغارب، لتُجرّعنّه من كؤوس نقمتها أمَرَّ المشارب.

ثم قالت: إلى متى تتطاول في مذمَّتي، وحتى متى وأنت غرس نعمتي. فلأجعلنك أيها القمر عبرةً لمن اعتبر. ألم أعُدَّك وأنت في ضنا المحو والمحاق[3]، وأُعِدّك للوجود بعد الفنا والاحتراق. وأكسُك بعد التجرّد حُلَّة البهاء، وأقلِّدْك قلائد التورّد والازدهاء. فنبذتَ شكري وراءك ظهريًّا، وتركت بِرِّي نسيًا منسيًّا، وجنحت إلى الغُرّة، واستكبرت استكبار أبي مُرَّة[4]. وقابلتني بكفران النعم، وجازيتني بالعدوان والنقم. فما أراني بعد إحساني الغامر، إلاَّ كمجير أم عامر[5].

ثم أعرضت عنه ابتذالاً، وتمثّلت وعينُها تتّقد اشتعالاً:

[من الوافر]

أعلِّمـه الـرِّمـايـةَ كـلَّ يـومٍ	فلمـاً اسْتَـدَّ[6] سـاعـدُهُ رمـانـي
وكـم علَّمتُـهُ نظـمَ القـوافـي	فلمَّـا قـالَ قـافيـةً هجـانـي

(١) الغزالة: الشمس عند طلوعها.

(٢) حلفت.

(٣) المِحاق والمُحاق والمَحاق: آخر الشهر القمري حيث لا يظهر القمر.

(٤) كنية إبليس.

(٥) الضبع.

(٦) اسْتَدَّ: استقام، وهذه هي الرواية الصحيحية للبيت كما في مجمع الأمثال (٢/ ٢٠٠)، ولسان العرب (سدد). قال الأصمعي: اشتدّ، بالشين المعجمة، ليس بشيء.

ثم نظرتْ إليه شَزْرًا[1]، وقالت لقد جئت شيئًا نُكْرًا، أتظن أن أحدًا بهجائي يعوِّل عليك، أو ينظر دوني بالإقبال إليك. وهو يعلم أن ما فيك من النور ليس من صفاتك، وإنما هو من أشراق سنائي بمرآة ذاتك. وإن ما بدا منك فمعار مني إليك، وكلٌّ ناظر بعين الحقيقة فإليّ لا إليك. فوالذي أثبتني بالبقا، ومحاك بالفنا، ما ظهر فيك أيها المغرور إلاَّ أنا. فما رأى أحدٌ منك سواي، ولا بدا فيك إلاَّ معناي. ولله درُّ العفيف، إذ أشار لهذا المعنى اللطيف، فقال: [من الطويل]

نظـرتُ إليهـا والمليـحُ يظنُّنـي نظـرتُ إليـهِ ومبسِمهـا الألمـى
ولكنْ أعارَتْه التي الحسنُ وصفُها صفاتِ جمالٍ فادَّعى ملكَها ظُلمًا

وأما إعابتُك عليّ بطلوعي بين قرني شيطان، فهو في الحقيقة عائد لعباديّ من ذوي الطغيان. وتظليل الغمام من حرّي سيدَ الخلق، فهو لما أودعتُه من نور جلال الحق. أو ما علمتَ أن لله سبعين حجابًا من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سُبُحات وجه[2] كلَّ أمة. فلي شِرْبٌ[3] من إشراق تجلي القهار، بشاهد قوله جل من قائل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فانظر لما ألقيتُهُ عليك بعين الفهم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. واطوِ من بيننا شُقَّة الكلام، فإنها جالبةٌ للطعن

(١) الشَّزْر: نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة.
(٢) أنواره.
(٣) الشِّرْب: النصيب.

والكِلام[1]. وأبق للصلح موضعًا ومحلاًّ، وكفَّ عني لسانَكَ وإلاَّ. فقد لاح الحقُّ لذي عينين، وراح الباغي بخفَّي حنين. وإن عدت لزخارف عدوانك ومَيْنِك، فهذا فراق بيني وبينكِ.

* * *

قالت العنقاء: فلما رأيتُ احتداد الحِجاج وامتداد اللجاج. وقد كاد كلٌّ منهما من الجدال، أن يتلو سورة القتال. قلت غِبَّ أن أحسنت لفظي، وأكثرت نصحي ووعظي: هل لكما في حَكَم، يفصل بينكما بآداب وحِكَمُ؟

فقالا: ومن الذي يلقى إليه القياد، في كشف هذا العنا والعِناد؟ فأنبئينا أيتها الناصحة عنه، لنلتقط درر المعارف والبيان منه.

فقلت: اللهم بلى، وهل يخفى ابنُ جلا. إنه لفارس السباق في كل ميدان، وغارس حدائق الآداب لكل قاصٍ ودان. رسائله وسائل المنى لكل عارف، وفضائله جداول الهنا لكل غارف. ومِلَحُه قد عذبت حلاوةً وانسجامًا، ومِنحه أدارت من راحها قدحًا وجاما. كم ركعت البلغاء لجمال أبكارِه الحِسان، وسجدت الأدباء لكعبة أفكاره الباهرة كلَّ إنسان. فإن أقرَّ على الرَّقِّ[2] أنامله، أقر بالرِّقِّ أدباءُ الأنام له. تضحك ثغور الأوراق طربًا من بكاء يراعِه، وتسجع بلابل الأوراق عجبًا من طيب لفظه وسماعه.

فلو انتشق ريحانَة لفظهِ ابنُ نُباتة، لاستطاب في ربا البديع نَباته.

---

(١) جمع الكَلْم: وهو الجَرْح.

(٢) الرَّق: جلد رقيق يكتب فيه.

فأين النسيجُ الحريري من رفيع مقاماته، والغزل الجريري من ترصيع أبياته[1]؟ فرياض عباراته حياض الشفا لغليل كل عليل، وغياض إشارته مفاض الصفا وأنس الجليل.

فلو امتزج النسيم بنفحة أنفاسه القدسية، لأغنى أهل الرموس عن نفخة النشور، ولو انبلج لأهل الجحيم نورُ طلعته الأنسية، لعُرِفت في وجوههم نَضرةُ النعيم والسرور. هذا وراحته بفيض نداها السائل، راحةٌ لكل راجٍ وسائل، فلعمري لقد دارت شموس الكمالات عليه، وسارت بدور السعادات إليه: [من البسيط]

أفـديـهِ عبـدًا إلـى الـرزَّاقِ ذا شِيَـمٍ تـألَّقَـتْ مـن سَنـاهـا غُـرَّةُ الـزَّمَـنِ
وسيِّـدًا مـن بنـي البَيطـارِ والـدُهُ بدرُ الهدى حَسَنٌ ناهيكَ من حَسَنِ

* * *

فأقبلا على بهيجِ بابه، وقبَّلا أريجَ أعتابه. ثم قدما لمقامه السعيد، مقامة التهنئة بالصوم والعيد. وغِبَّ ذلك تساجلا[2] لديه، وتناضلاً بين يديه. فهو حُكْمُ الحِكَم، ومنتهى الهِمَم. فعرَّجا في الحال، واندرجا بحماه العال.

فحينما رآهما حيّا وبيّا، وتهلّل بالبشر منه باهي المحيا. وقال: مرحبًا وأهلاً بالنيِّرين، ومن هما لجسد الكون كالعينين.

قالت العنقاء: فقلت: ها أنتما بالمشهد المأنوس، ولا عطرَ بعد عروس[3]، فلينضَح كلٌّ منكما إناءه بما فيه، ولينصح نفسه بصدقها في

(١) رصع الشيء: قدره ونسجه.

(٢) المساجلة: المباراة والمفاخرة.

(٣) من أمثالهم، ويروى أيضًا: «لا مخبأ لعطر بعد عروس». مجمع الأمثال (٢/ ٢١١).

ظاهر أمره وخافيه.

* * *

فلما سَرَدَا لديه المقامة، ووَدَّا أن يقيم كلا منهما مقامه. قال: والذي ألبسكما من الجمال أبهاه، ومن الكمال أنهاه، ومن الحُسْن أولاه، إنكما لآيتان من آيات الله. ولأنتما للزمان روحُه وجسدُه، ولعالم الإنسان عضدُه وسندُه. وهل أنت أيها البدر من يوح[1]، إلاَّ كشقيقِ روحٍ أو ابن بُوح[2]؟ فلم تختلفان، وعليكما دار المَلَوان[3] بحسبان؟! وما منكما إلاَّ له مقامٌ معلوم، وفضل في الأنام موسوم. فلا تعودا إلى المشاحنة فإنها تشين النفاسة، ولا يخفى عليكما ما ينشأ عن حب الرئاسة.

* * *

قالت راوية الأثر: فلقد خَلَبَ القلوبَ ببلاغته وأسر، وأرضى كلاًّ منهما بما أمضى وأسر. فتهلّل وجه كلٍّ منهما بالصلح، وتلا سورة النصر والفتح، وتمثَّل كلٌّ وقوفًا بين يديه، واستأذن بشكره والثناء عليه. فقال: بسم الله ولا حَرَج، حيثُ تمَّ المنى ووافى الفرج.

فعند ذلك ابتدرت الشمس، وأنشدت ما يقرُّ العين والنفس:

[من مجزوء الكامل]

حيَّـــاكَ مـــن فـــردٍ وحيـــدْ ... يـــا طلعـــةَ الحســـنِ الفـــريـــدْ

يـــا ســـاليًـــا قلبـــي العليـــلْ ... وســـالبًـــا لبِّـــي الشـــريـــدْ

---

(١) يُوْح: اسم للشمس.

(٢) ابن بُوحك: ابن نفسك، والبُوح: النفس.

(٣) المَلَوان: الليل والنهار.

لــولا قــوامُــك مــائــسٌ ما شــاقنــي غُصــنٌ يميــد

كــــلاًّ ولــــــولا راحُ ثغْــــرِكَ لــم أهِــمْ فــي حُســنِ غيــدْ

لــم أبــد منــك لطــائفًــا إلاَّ حـــلا لـــي أن أعيـــدْ

وهـــواكَ أقـــربُ للحشـــا والـرّوحِ مِـنْ حبـلِ الـوريـدْ

يــا مَــنْ لأوجِ صـــدودِهِ قـد أعجـمَ الـوصـلُ الحميـدْ

قلبـــي الحسيـــنُ شهـــادةً واللحـظُ منـكَ غـدا يـزيـدْ

أصبـــو بنجـــدِ والعِـــرا قِ إلـى بيـاتِـك لـو تـريـدْ

وأنـــوحُ نـــوحَ الأصفهـــا نـي كـي تـرِقَّ فـلا يُفيـدْ

وحصـــارُ ركـــبِ نَـــواك يـــر صـدُنـي جهـارًا بـالـوعيـدْ

حجـــز القَـــرار[1] ولـم تجـب عِـدْ باللقـا فـالـوعـدُ عيـدْ

ضُـربَـتْ بـي الأمثـال فـي العشَّـــاقِ مِـن شـوقـي المـزيـدْ

وفَنِـــي جميـــلُ تصبُّـــري لكـــنَّ شـــوقـــي لا يبيـــدْ

حَمَّلْتَنـــــي بهـــواكَ مـــا بـــأقلِّــهِ شــابَ الــوليــدْ

قــل لــي فــديتُــكَ هــل حشـا كَ الصخـرُ أم صلَـدُ الحـديـدْ

أوَ مـــا تـــرى مـــن مُقلتـــي دمعًـا جـرى البحـرُ المـديـدْ

وتنهُّـــــدي وتسهُّـــــدي وتشتُّـــي فـــي كـــلِّ بيـــدْ

ولقـــد لقيـــتُ مـــن العـــوا ذِلِ كـــلَّ شيطـــانٍ مـــريـــدْ

كفـــرُوا جمـــالَـــكَ إذا أبـــوا إلاَّ ظـــلالَهُـــمُ البعيـــدْ

فهـــمُ لفـــي لَبْـــسٍ[2] بـــأنَّ هــواكَ مــن خلــقٍ جــديــدْ

---

(١) جرت عادة الأستاذ الوالد عمل (التورية) بأسماء الأنغام في معظم القصائد. (من تعليقات الشيخ محمد بهجة البيطار).

(٢) الإشكال والاختلاط.

تبًّا لهم أو ليس مِنْهُمْ في الهوى رجلٌ رشيدْ

يا ليتَ نارَ الصدِّ تُصْلي كلَّ جبَّارٍ عنيدْ

أوَّاهُ لو لي بالعوا   ذلِ قوةُ النَّدبِ الجليدْ

لكفيتُهم لكنَّني   آوي إلى ركنٍ شديدْ

مولاي أعني العبدَ للر   زاقِ ذا الحسَبِ المجيدْ

لي منه زاهرُ نسبةٍ(١)   لكنني أدنى العبيدْ

لِلَّهِ مولى لذَّ لي   في وصفِه عذبُ النَّشيْدْ

كلُّ الوجودِ على كما   لِ صفاتِهِ الحُسنى شهيدْ

والدَّهرُ طوَّقَ من سجا   ياهُ الفرائد عِقْدَ جيدْ

يا ساميًا أوجَ العُلا   بالحِذْقِ والرأيِ السَّديدْ

عيدُ الصيام ببشرِهِ   وافى حماكَ فلا يحيدْ

فاهنأ ودُمْ في كلِّ عيدِ   في صفا العيشِ الرغيدْ

وإليكَ في حُلَلِ البَها   مزفوفةً بكرَ القصيدْ

حَلَّتْ سموًّا مِنْ رفيعِ علاكَ في قصرٍ مشيدْ

لم ترتجي إلاَّ قبو   لَكَ يا ملاذَ المستفيدْ

قد أُرِّخَتْ سُدْ بالمنى   يهنيكَ بالعيدِ النضيدْ

سنة ١٣٠٤

* * *

---

(١) هو عمه شقيق أبيه الشيخ عبد الغني وهو الثاني في مرتبة البنين، والشقيق الأكبر هو الشيخ محمد الذي كان أمين الفتوى في عهد المفتي محمود أفندي حمزة؛ وأصغرهم سنًا شقيقهم الشيخ سليم الفرضي الشهير، وهم أبناء الشيخ حسن البيطار، رحم الله الجميع. (محمد بهجة البيطار).

فلما فرغت الشمسُ من أبياتها، وسحرت بباهر آياتها. رفع القمر عقيرتَه، وأنشد قصيدته: [من الكامل]

ما للمُصابِ منَ الجوى من راقي إلاَّ التـي زانَـتْ بحسـنِ راقـي
هيفا كجسمي خصرُها، وبردفها شبـهُ العَـذولِ همـا جنـاسُ طبـاقِ
جمعَـتْ بفـاتـرِ لحظِهـا ورضـابِهـا ضـدّيـنِ مـن سُـمٍّ ومـن تِـريـاقِ
سبحانَ من أبدى بروضةِ خدِّها وردًا يفـوحُ بعنبـرٍ عبَّـاقِ
وأدارَ مـن كـأسِ العقيـقِ بثغـرهـا راحًـا جـرَتْ فـي اللـؤلـؤِ البـرَّاقِ
عـذُبَـتْ حـلاوةُ حسنِهـا لكنَّهـا صـدًّا أذاقتنـي أمـرَّ مَـذاقِ
هل لي مجيرٌ من سهامِ لحاظِها هيهـاتَ مـا لقتيلهـا مِـنْ واقِ
ما كنتُ أحسبُ قبلَ وقعةِ عشقِها أنَّ المنـايـا الحمـرَ فـي الأحـداقِ
كيفَ النَّجاةُ من الهوى وشِراكِهِ والقلـبُ مـأسـورٌ رهيـنُ وثـاقِ
يـا آل ودِّي هـل لكـم فـي مغـرمٍ ضُربَتْ بِهِ الأمثالُ في الأشواق
يرثي له الصخرُ الأصمُّ إذا بكى بمـدامـعِ الخنسـاء فـي الآفـاقِ
يـا غـادةً تشـدو جهـارًا بـالنَّـوى مـن أوْجـهِ لمحيّـرِ العشّـاقِ
قلبـي الحسينـيُّ الشهيـدُ صَبـابـةً حجـزَ البيـاتِ وقـد صَبـا لـوفـاقِ
رَصَدَ اللقاء فظلَّ من ركبِ الجوَى وحصـارِهِ يـرثـي بنجـدِ عـراقِ
عـزَّ القَـرارُ فهـل جـوابٌ بـالمنـى إن الـوفـا مـن طـاعـةِ الخـلاَّقِ
يـا وجهَهـا أنـتَ الـرَّشيْـدُ هِـدايـةً فارحمْ فديتُكَ جعفر[1] الآماقِ
لا زلـتَ مسـرورًا بملـك مـلاحـةٍ يَحيـىٰ بحُسنِـكَ نـاظـرُ المشتـاقِ
ما حقُّ قلبي وهْوَ بيتُ هواكَ أن يُلفَـى لـديـك مقطَّعًـا بِفـراقِ

---

(١) الجعفر: النهر الصغير. يريد: ما جرى من دمعه.

آليتُ دهري لا التفتُّ عن الهوى | إلَّا لمدحي كاملَ الأخلاقِ
حَبْرٌ إذا أبكى عيونَ مدادِهِ | ضحكَتْ ثغورُ الكُتْبِ والأوراقِ
ذو غِرَّةٍ لو يستجير البدرُ في | أنوارِها لم يخشَ جورَ محَاقِ
وشمائلٍ أضحَتْ لجيدِ زمانِنا | عِقْدَ الكمال وحِليةَ الأطواقِ
ما دارَ مِنْ راحِ العلومِ وصفوها | كأسُ الهدى إلَّا وكانَ الساقي
كلَّا ولا في شأوِ فضلٍ قد جرى | في فكرِهِ إلَّا سما بسباقِ
طوفانُ نوحٍ لو حكى إحسانَهُ | لم ينجُ إنسانٌ من الإغراقِ
عمَّتْ مكارمُهُ البسيطةَ وارتَقَتْ | أوصافُهُ مجدًا لسبعِ طِباقِ
لو رامَ إمساكًا وحاشا جودِهِ | لم تستطعْ يدُه سوى الإنفاقِ
لو لم يكنْ عبدًا لرزَّاقِ الورى | لدعوتُهُ بمقسِّمِ الأرزاقِ[1]
سجدَتْ لكعبةِ عزِّهِ هام العُلا | والسَّعدُ بينَ يديهِ في الإطراقِ
يا سيدًا زانَ الزمانَ بشيمةٍ | سادَ الأنامَ بها على الإطلاقِ
هذا هلالُ العيدِ أمَّك بالمنى | ولأنتَ فينا عيدُ أُنسٍ باقِ
فاهنأ ودُمْ شمسَ الهدايةِ طالعًا | بسَما الكمال بلا مغيبِ تلاقِ
واستجْلِ من فكري عَروسًا مهرُها | منكَ القبولُ فذا أجلُّ صداقِ
قد زفَّها نظمُ البهاءِ مقلِّدًا | من درٍّ وصفِكَ حليةَ الأعناقِ
وافى بها عيدَ السرورِ مؤرخًا | بالبشرِ عيدٌ دامَ والإشراقِ

سنة ١٣٠٤

* * *

(١) هذا من مبالغات الشعراء.

قالت العنقاء: فهاج بي نسيمُ الغرام، وماج بي بحر الوجد والهيام. أن أنحوَ نحو هذا الأثر، وأن أتشبَّهَ بالشمس والقمر. لأن التشبّه بالكرام فلاح، والتنبّه للاقتداء بهم نجاح. فعزَّرتُهما بثالثة، وفيّةً بالعهدِ لا ناكثة:

[من الوافر]

سلاهُ عن فؤادي هل سلاهُ ... وكيفَ وما جنى ذنبًا سلاهُ[1]

غزالٌ زانَهُ جِيدٌ وفاهُ ... شَرودٌ عُجْبُهُ يأبى وفاهُ

أقمتُ على ثناه وليتَ شعري ... عن الخلِّ الوفيْ ماذا ثناهُ

بثغرِ لماهُ ظلَّ رباطُ قلبي ... لذا من لحظِهِ الغازي رماهُ

عذابي في جواه يراهُ عَذْبًا ... وسلبي في هواهُ غدا مناهُ

فيا تلكَ الشعورُ ألا شعورٌ ... بمَنْ في ليلِكُنَّ نما ضناهُ

ويا وردَ الخدودِ ألا ورودٌ ... فأنتَ لذي الضّنا أحلى جناهُ

ويا تلك الشفاهُ ألا شفاهٌ ... لمن بسلافِكُنَّ غدا شفاهُ

لقدْ طالَ البِعادُ ولا سلُوٌّ ... ولا تُغني الشجيَّ الصبَّ آهُ

ألا يا لَلهوى مَنْ لي عذيرٌ ... بمَنْ في حسنِهِ العشّاقُ تاهوا

عراقيُّ الطِّباعِ يبيحُ ظلمًا ... دمَ الصَّبِّ الحسيني في هواهُ

صبوتُ بِهِ جهارًا مذْ بدا لي ... بأوجِ جمالِهِ وأضا سناهُ

وركبُ صدودِهِ يُبدي حِصارًا ... فيحجُرني ويرصدُ لي عناهُ

أنوحُ محيّرًا وأبوحُ وَجْدًا ... بنوحِ الأصفهاني مِن نواهُ

وقد عزَّ القَرار فلا جوابٌ ... سوى جفني تجاوبني دماهُ

---

(١) كذا في الأصل ولعل الأشبه بالسياق أن تكون: سواه.

فمَـنْ لـي يـا أهيـلَ الـودِّ فيـهِ ... بـأن أفنـى ويحيينـي بقـاهُ
رضيـتُ بحبِّـه وصـلاً وهجـرًا ... وطـابَ لـي البيـاتُ على رضـاهُ
كتمْـتُ غـرامَـهُ حتَّـى كـأنِّـي ... مـن الكتمـانِ لـم أدريـهِ مـا هُـو
وأنكـرتُ الهـوى صـونًـا لأنِّـي ... أغـارُ عليـهِ يهـواهُ سـواهُ
يشخِّصُـهُ الهُيـامُ بكـلِّ ذاتـي ... فـلا أدري أراهـا أم أراهُ
فلـو يُـدعـى اسمُـهُ أُلْفَـىٰ مجيبًـا ... لمـن يـدعـوهُ مِـن وَلَهـي أنـا هـو
لـه ملـكُ الفـؤادِ وكـلُّ عِشـقٍ ... لَـهُ منَّـا دراهُ مَـنْ دراهُ
تناهـى في الجمـالِ كمـا تناهـى ... لبهجـةِ عصـرِنـا عِـزٌّ وجـاهُ
مـلاذُ عبـدُ رزَّاقِ البـرايـا ... رعـاهُ اللّٰـهُ مـا أبهـى لقـاهُ
ريـاضُ أكفِّـهِ تـزهـو سَمـاحًـا ... بمنثـورِ النَّـدى الحـالـي جنـاهُ
تخـالُ نـزيلَـهُ مِـن حسـنِ بـرٍّ ... وتكـريـمِ أخـاهُ أو أبـاهُ
يـرقُّ لـدمعـةِ البـاكـي انعطـافًـا ... ويـرحـمُ لـوعـةَ الشـاكـي جـواهُ
وإن أنشـا مـن الأفكـار عقـدًا ... شهـدتَ الحـورَ زفَّـتْ مـن حـلاهُ
ألا يـا كـامـلَ الأوصـافِ عُـذرًا ... فقـدرُكَ عـزَّ أن أحصـي ثنـاهُ
فـلا زالـت بِـكَ الأيـامُ تسمـو ... ووجُهـكَ مشـرقٌ بسنـا ضيـاهُ
وذا عيـدُ المُنـى فـاهنـأ وأرِّخْ ... نضيـرُ العيـدِ زاهـي مـن حَبـاهُ

سنة ١٣٠٤

* * *

فـلـمـا تُليت على الأسماع عرائسُ القصائد الشكرية، وحليت بنفائس الأسجاع أوانس الفوائد الفكرية؛ تهلَّلَ وجهُهُ سرورًا، وتعلل بها طربًا وحبورًا. ثم قال: ما أطيب هذا النَّفَس الأنفسَ، وما أطرب هذا السماع الأقدس. فلعمري ما المثالث والمثاني، بأعذبَ من هذه

المعاني[1]. ولا وصل الحبيب بلا رقيب، بأعجب من هذا التشبيب[2] بذا النسيب. فليت شعري أهذا رقيق كلام، أم عتيق مُدام؟ أم دُر ألفاظ، أم سحر ألحاظ؟ أم نثر بديع، أم نثر ربيع؟ أم بيانُ بنان، أم نظم جمان؟

فلا زالت الأفلاكُ بجمالكم ناضرة، ولا برحت ألحاظ الأملاك[3] بعيونكم ناظرة. ما افترَّ ثغرُ الدهر بسناكم باسمًا، واحمرَّ خدُّ الزهر لنداكم راسمًا. وما حمد شارع على التمام، وسعد بارع بحسن الختام.

* * *

أقول: هذا ما جئتُ به من بضاعتي المُزْجاة، لسيدي عزيز القدر والجاه. الوالد العطوف الروحاني، والعم الرؤوف الذي عمَّني بنداه ونماني[4]. وأرجوه غضَّ الطرف عن هفوتي، ونظر اللطف لإصلاح كبوتي. ولولا وثوقي بهذا الامتنان، لم أحم حول هذا الشان. ومع هذا فليتني لزمت حدِّي من الضعف والقصور، ولم أتشوَّف بجدي لارتقاء هاتيك القصور. لجمود عين الفطنة القريحة، وخمود نار الروية والقريحة. على أن المطالب تغشي الأذهان، والجواذب تعشي مقلة السليم مما أهان. لا سيما ومقام سيدي أشهر من أن يذكر، والثناء عليه أزهر من أن ينشر.

---

(١) هذا غلوٌّ لا يجوز، فالمثاني مما وصف به كلام الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

(٢) شبب قصائده: ذكر فيها أيام الشباب واللهو والغزل. والنسيب: رقيق الشعر.

(٣) في الأصل: الأحلاك، وما أثبته أشبه بالصواب لأن الأملاك جمع مَلِك.

(٤) في الأصل: ونحاني، وما أثبته أشبه بالصواب لأن من معاني نمى رفع وأعلى الشأن.

وليس قصدي إلاَّ ترديد ذكراه طربًا، وتعديد مزاياه عجبًا. وإلاَّ فرفيع مَقامه غني عن المقامة، وربيع مقامه محط رحال ذوي الثناء والمقالة:

[من البسيط]

مَنْ كانَ فوقَ محلِّ الشمسِ موضعُهُ فليسَ يرفعُهُ شيءٌ ولا يضَعُ

وبالجملة فشريف شمس نسبتي، أطمعني أن أكون بدري المقام. ولطيف عنقاء محبتي، دعاني لإنشائها مع التحية والسلام.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى تابعيه السادة الكرام، ما ناح الحمام، وفاح شذا مسك الختام.

* * *

أقول: إن هذه المقامة لا ريب أنها من بحر معارفه خليج، ومن رياض ألطافة شذرة ذات مقام بهيج. وإن له غيرها من النثر والنظم ما يحسن التهليل والتكبير عند شروقه، ويشربه السمع فتدب نشوة الحميا في عروقه. فنثره لعمري عقود الجوهر، ونظمه نثر اللالىء والدرر. وهو ممن لم يزل يصل في اجتهاده الليالي بالأيام، ويعتاض في ازدياده السهر من المنام. حتى بلغ مبلغًا يقصر عنه أمل المتطلع، وحل محلاًّ تنقطع دونه رغبة المتطمع. ونزل من القلوب بمنزلة الامتزاج بين الماء والراح، وأورد العيون الرياض والقرائح القراح. فللنواظر فيه مرتع، وللخواطر منه مستمتع.

وله الأيادي البيض، في بحر كل كمال طويل أو عريض. فكأن الله براه نورًا مصورًا، وأطلع غصن كماله غضًا منوّرًا: [من الطويل]

رفيعُ كمالٍ كلما زاد خاطري بِهِ أملاً زادَتْ محاسنُهُ حُسْنًا

وكيف لا وهو فارس المجال، ورب الروية والارتجال. تؤخذ الفصاحة عن لفظة، وتروى فنون البلاغة عن حفظه. أبلغه الله المنى، وأفرغ عليه حلة السرور والهنا[١].

* * *

(١) توفي سيدي الوالد سنة ١٣٢٨هـ أي قبل عمه المؤلف سيدي الجدّ بسبع سنوات (سنة ١٣٣٥هـ) تغمدهما المولى برضوانه. (بهجة البيطار).



المفاخرات والمناظرات

(٣)

غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسماء

تأليف

الشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي

(١٢٦٣هـ - ١٣٣٠هـ)

عني بها

الدكتور محمد حسان الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية



ترجمة المؤلف

قال صاحبه وصديقه العلاَّمة محمد جمال الدِّين القاسمي:

«الشيخ محمد بن الشيخ محمَّد المبارك المغربـي الجزائري ثم الدمشقي أحد الأساتذة الأفاضل والأدباء البارعين. وُلد في بيروت سنة ١٢٦٣هـ أثناء قدوم أبيه إلى الدِّيار الشَّامية مُهاجرًا من بلاد الجزائر، لمَّا استولى عليها الفرنساويون. ثُمَّ يمَّم والده دمشق واستوطنها إلى أن توفي سنة ١٢٦٩هـ. ونشأ ابنه على كمال وأدب، فحفظ القرآن الكريم، وتلقَّى طرفًا من العلوم العربية وغيرها على بعض الأساتذة، وحفظ المقامات الحريرية عن ظهر قلب، وأكثر من مطالعة دواوين الشعراء، وصارت له ملكة في الصناعتين فنظم ونثر، وأنشأ عدة مقامات أدبية.

واختصَّ بالأمير عبد القادر الحسنى الجزائري، واقتصر على مدحه وحصر جميع ما أنشأه من المحاورات والرحلات باسمه. ووظفه الأمير مُؤدبًا لأطفاله، فكان له في دار الأمير محل على حدة يُقرىء فيه أولاده ويُؤدبهم.

ثمَّ صار في المدرسة الريحانية أُستاذًا لها واختصّ بها، وأقام معه من تلامذته من يعينه في تعليم الأطفال. وبعد وفاة أخيه الشيخ محمد الطَّيب

سنة ١٣١٤هـ التفَّ حوله إخوانه ومريدوه وصار يُقرىء لهم كُتُبًا في الرقائق ليلتين في الأسبوع، يذهب فيهما مع إخوانه لدور بعض إخوانهم فيقرأ الدرس ثمة.

وكان يُجيد تصحيح ما يقرؤه ويُراجع لضبطه كتب اللغة ويُقابله على أصوله، وله دقة في ذلك، وقد استعرتُ من مصححاته: كتاب «سيرة ابن هشام»، وكتاب «الذريعة» للرَّاغب الأصفهاني، وكتاب «المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحُسنى»، وكان عني بتصحيحها وضبطها. والفضل في ذلك لأستاذه وصديقه العلاَّمة الأوحد الشيخ طاهر أفندي الجزائري؛ فإنه كان يُشير عليه بمثل ذلك، والمترجم يأتمر بأمره ويتقبلُ نصيحته.

وكان كثيرًا ما يستعير من مُصححاتي والنَّوادر التي عندي فأعيره لما كان بيننا من أكيد المودة. وقد اقترحت عليه عام ١٣١٠هـ أن يتمِّم ما عندي من مدائح دمشق، على ترتيب حروف الهجاء، وكان نقص من ذلك المقفَّى على قافية الثاء المثلثة والخاء والذال والشين والضاد والظاء والغين والواو وأمثالها مما يقل التقفية عليه، فأجاب وأكملها، وضممتُ ذلك إلى كتابي هذا ـ يعني: تعطير المشام ـ كما ستراه في محله منه عند ذكر مدائح دمشق المنظومة.

وأقلَّ الخروج من داره في آخر أمره إلاَّ لدعوة أو حاجة، واعتراه مرض أنهكه، ولكن تجلَّد في تحمله وتصبَّر له.

وكان لطيف المعشر، رفيقَ الحاشية، كريم الطَّبْعِ، سخي الكَفِّ، بشوش الوجه، كثير الترحيب لزائره، أديبًا في جلسته ومُحاضرته. له انبساطٌ مع إخوانه وإيناس، وبالجملة فكان بهجة أقرانه.

وكانت وفاته ضحوة الثُّلاثاء في ٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٠هـ في الصَّالحية، وأَوصى أن تُحمل جنازته بلا عمامة ولا غطاء، وصُلِّي عليه في الجامع السليمي في الصَّالحية، ودُفِنَ على والده في سفح قاسيون في المقبرة المنسوبة لذي الكفل عليه السلام[1].

* * *

(١) «تعطير المشام في مآثر دمشق»، للشيخ جمال الدين القاسمي (٣/ ٢٧، ٢٩)، بخط مصنفه، نسخة المكتبة القاسمية).



غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسماء

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدُ بديعَ السمواتِ والأرض، حمدَ مَنْ تقرَّبَ إليهِ بالنفل والفرض. وأصلي على مَنْ شرَّفَ اللَّهُ قدْره وأعلى مقامَهْ، وآثَرَه على الورى بأسمى مكانةٍ وأعلى مقامة. وعلى آله الذين وشت بأسرارهم ألسنة البراعةِ، فوشَّت بتلك الظرائفِ واللطائف طِرازَ البلاغة والبراعة.

وبعد:

فهذه محاضرةٌ فائقة، ومحاورة رائقة. ومناقشة دقيقة، ومنافسة رقيقة. ذات نثر كفرائد الجُمان، ونظم كقلائد العقيان. أنشأتها لمن دام ودأب، على الاستمداد من خزانة الأدب. وسميتها بـ «**غريب الأنباء، في مناظرة الأرض والسماء**»[1]، فوافق اسمُها تاريخَ تأليفها المصون، ووفاق مسمّاها عقود اللؤلؤ المكنون.

وذلك أنه جرت بين الأرض والسماء، مساجلة أرق من الهواء، وأدق من الهباء. فسبكتُ تلك المعاني، في قوالب المباني، ثم وشَّحْتُها بما راق لطفًا وانسجاما، ورشَّحْتُها لما غدا لراح الأنس جاما:

[من البسيط]

مِنْ كُلِّ معنىً يكادُ المَيْتُ يَفْهَمَهُ حِسًّا ويَعْشَقُه القِرْطاسُ والقَلَمُ

(١) طُبعت هذه المفاخرة في المطبعة الحفنية بدمشق سنة ١٣٠٢هـ.

وجعلتُها آيةً للألبّاء وذكرا، وإن من البيان لسحرا.

* * *

وكانت السماء هي الفاتحة لباب المجادلة، والمتصدّية لإثارة نقع[1] المناظرة والمناضلة. فجالت في ذلك المضمار وصالت، ونوّهت برفيع قدرها وقالت:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١]، ومنح أشرفَ الخلق إليَّ عروجًا. وقدَّمني في الذكر، في محكم الذكر. وشرفني بحسن القَسَم، وأتحفني بأوفر القِسَم. وقدّسني من النقائص والعيوب، وأطلعني على الغوامض والغيوب. فأنا المنزهة عن كل دَنَسٍ ووصمةْ، وجندي هم الرافلون في حِلَل الحفظ والعِصمةْ. وبقاعي لمٍ يُعصَ الله عليها، ولم تُنسب سيئة مدى الدهر إليها. فلا يدخل حرمي شيطان، وليس له على أهلي سلطان. وإن استَرَقَ السمع مني، ليروي بعض الأخبار عني؛ قذفَتْهُ بشهابٍ ثاقب، وألقيتُهُ في عذابٍ واصب.

وقد ورد أن الربّ ينزل إليَّ كلَّ ليلة، فيولي من تعرَّض لنفحاته بره ونيلَه. فيا لها من تحفة جليلة، ومنحة جزيلة. يحقُّ لي أن أجرَّ بها ذيول العزَّة والافتخار، وكيف لا والوجود بأسره باسطٌ إليّ أيدي الذلة والافتقار؟. فلي العزُّ الباذخ، والمجد الأثيل الشامخ. لتفرُّدي بالرفعة والسموّ، وعلوّ المنزلة دون غلوّ.

* * *

(١) النقع: الغبار المرتفع والمنتشر يثور في الجو، قال الله تعالى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ [العاديات: ٤].

ولما أعربت عن فضلها بأرقّ عبارة وأدق إشارة، وأوحَت إلى الأرض برمز: (إيّاك أعني واسمعي يا جارة)[١]، سلَّت الأرضُ سيفَ الانتصار من غُمده، وبراعة مطلعها عبارةٌ عن حسن الابتداء بشكر الله وحمده.

ونظرت إليها بطرفها شزْرا، وقالت لها: ويك لقد كثَّرتِ نَزْرا[٢]، وارتكبت بما فهت به وِزْرا. أما إنه لا يعجب بنفسه عاقل، ولا يأمن مكر ربّه إلاَّ غافل. ولا ريب أن ادِّعاء صفات الحق شيمة غير محمودة، لأنها لما سواه تعالى عاريةٌ والعارية مردودة. وما أباح نسبتها لغيره وأجاز، إلاَّ على سبيل الاستعارة والمجاز. فلا ينبغي لأحد مجاوزة حدّه، في هزله وجدِّه. ومن ادّعى ما ليس له بقولِه أو فعله، فهلاكه أقرب إليه من شِراك نعله.

وقد قيل: «من سعادة جَدِّك، وقوفك عند حَدِّك»، و «من فعل ما شاء، لقي ما ساء»[٣]. وما كفاكِ أن خطرتِ في ميادين التيه والإعجاب، حتى عرَّضتِ بذمِّي وتعرضت لشتمي؟! إن هذا لشيء عجاب!! وهل اختصك الله بالذكر؟! أو أقسم بك دوني في الذكر؟! أو آثرك بالتقديم، في جميع كلامه القديم. حتى تردَّيت بالكبرياء، وتعدَّيت طورَ الحياء؟!

ولله درُّ من قال: [من الوافر]

إذا لم تَخْشَ عاقبةَ الليالي ... ولم تستَحْيِ فاصْنَعْ ما تشاءُ

---

(١) من أمثالهم، يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئًا غيره. مجمع الأمثال (١/ ٤٩)، ومعجم الأمثال العربية (١/ ٣٧٦).

(٢) النَّزْر: القليل التافه، والمقصود جعلت القليل كثيرًا.

(٣) من أمثالهم، يضرب لمن لا يبالي بما يفعل، مجمع الأمثال (٢/ ٣٢٩).

فـلا وأبيـكَ مـا فـي العيـشِ خَيـرٌ ولا الـــدنيـــا إذا ذهـــبَ الحيـــاءُ

وكيف تزدرين أهلي بالذنوب والمعاصي، وأنت تعلمين أن الله هو الآخذ بالنواصي؟! على أن وقوعها لا يخلو عن حِكَم؛ لحديث أصدق من نطق وأعدل من حكم: «لو لم تذنبوا لجاءَ اللَّـهُ بقومٍ يُذنبون ليُغفَرَ لهم»، فنفى عليه السلام بذلك نقصهم، وأثبت كمالهم.

وربما انتظمت الطاعة في سِلك المعاصي والمعصية في سِلك الطاعات، فإنه لا عبرة بصور الأعمال و «إنما الأعمال بالنِّيات». وقد تبدَّل السيئة حسنةً بالتوبة والاستغفار، وتنقلب الحسنة سيئةً بالعزَّة والاستكبار.

وحسبكِ لو سلكتِ محجَّةَ الإنصاف، ولم تلجئيني إلى الانتصار والانتصاف. ما أجاب به أُسرتَكِ الملكُ العلاَّم، عمَّا لم يدركوا كُنْهُ حكمته وهم البررة الأعلام. مِنْ جَعْلِهِ فيَّ وجودَ خليفته، ومحلَّ نظرِهِ من خليقته. ثم أطلعهم به على حقائق أسمائه، ففهموا سرَّه في عالم أرضهِ وسمائه. وأمرهم لهُ بالسجود، إعلانًا بعموم خلافته في الوجود. فمنِّي الأستاذُ والمعلم، ومنك التلميذُ والمتعلم. وأنا مركز الإمام وأنت مركز المأموم، وما منّا إلاَّ لهُ مقامٌ معلوم.

وفي نزوله تعالى إليك كما في الأخبار، أعظمُ شاهد على فضلي لدى الجهابذة الأحبار. وهل ذلك إلاَّ لتجلِّيهِ للمستغفرين بالأسحار، وتولِّيه لهم بلطائف المعارف والأسرار؟ فيهيمون في تلك الحضرة، ذات البهاء والنضرة! هذا ولو ذكرتُ لكِ ما لي من المناقب والمزايا، لما وسِعَكِ إلاَّ الاعترافُ لي بحسن الشيم والسجايا.

* * *

فقابلَتْها السماءُ بوجهٍ قد قَطَبتهُ، ومِجَنٍّ قد قلبتهُ. وقالت لها في الحال:

أيتها القانعة بالمحال، ما كنتُ أحسبُ أنك تجترئين على مبارزة مثلي، وتنكرين عليَّ ما ترنّمت به من شواهد مجدي وفضلي. وهل خلْتِ أنَّ التحدُّث بالنعم مما يُلام عليه، مع أنه أمرٌ مندوبٌ إليه؟، ومن أمثال ذوي الفطنة والعقل: «ليس من العدلِ سرعةُ العَذْل»[1]. وكيف نسبت إليَّ العجب والخلل، وفضلتِ العاصي على المعصوم من الزّلل؟، متى صار القبيح لدى الورى مستحسنًا ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. ولـم جحـدتِ ظهـورَ شمسِ كمـالي، وهـل لـك مـن الفضائـل والفواضل كما لي. ولكن لك عندي عـذرًا جلـيًّا، وإن كنتِ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]: [من البسيط]

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْء الشمسِ مِنْ رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

ولو رأيت ما فيك من المساوي عيانًا، لما ثنيت إلى حلبة المفاخرة عِنانا[2]. فأنَّى تفوزين بأشرف الأقدار، وأنت موضع الفضلات والأقذار؟ وما هذا التطاول والإقدام، ووجهك موطىء النعال والأقدام؟! إنْ هذا إلاَّ فعل مكابر، دعوى عريضةٌ وعجزٌ ظاهر. وهل يحق للكثيف، أن يتغالى على اللطيف؟! أم ينبغي للوضيع، أن يتعالى على الرفيع؟! كلا إنَّ ذلك لمِنْ قلبِ الحقائق، فأين أنتِ من فهم الأسرار والدقائق؟!:

---

(١) من أمثالهم: يضرب لمـن يتسرع في المـلامة. معجم الأمثـال ٢/ ١٩٥، ومعجم الأمثال العربية (٣/ ١٢٩).

(٢) العِنان: سَير اللجام الذي تمسك به الدابة.

[من الطويل]

لَقَدْ هَزُلَتْ حتّى بدا مِنْ هُزَالِهَا كُلاها وحتى سامَها كُلُّ مُفْلِسِ

ألم تعلمي أني مثوى الملأ الأعلى، ومأوى مَنْ رفع الله مقامهم وأعلى؟!، ومطلع أنوارِ التنزيه والتقديس، لا مربع آثار التمويه والتدليس؟! ألا وإن ما تبديه من العمل المقبول، يصعد إليّ فأفتح لهُ باب القبول. وفي ذلك إشارة إلى حسن ما اشتملتُ عليهِ، وقد قيل: «شبيهُ الشيء منجذبٌ إليه». فلِمَ لم تنقادي لحكمي قولاً وفعلاً، وقد أفلح اليوم من استعلى؟!

وكيف لا أنفرد برتبة التفضيل، وغذاء أهلي التسبيح والتهليل؟ وهم سفراء الحقِّ وأمناء وحيه الرفيع، والمهيمون في شهود جلاله وجماله البديع. وللّهِ رواءُ طلعتي الباهرة، المتلألئة بالأنوار الزاهية الزاهرة. فكَمْ جَلَت بحسن منظرها الهمومَ والغموم، وتجلت لأرباب الألباب بدقائق العلوم!. وكم لاحت منها نجوم الهدى لكل حائر؟! وحالت وهي رجوم الردى لكل جائر!، وقد قال في شأني ذو المنح والمواهب: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات المحبّرة، المتلوّة في صحف مكرّمة مرفوعة مطهَّرة.

فكيف ضربتِ عن ذكر محامدي صفحًا؟ وطويت دون شهود محاسني كشحًا؟ وحديث فضلي أسرى من المثل، وأسرعُ من القمر في النُّقَل. فالزمي معي حسنَ الأدب، تظفري بكمال المُنى والأرب. وإن عادت العقرب الغادرة، فإن النِّعال لها حاضرة.

* * *

فازمهرَّت الغبراء، واكفهرَّت طلعتها الغرَّاء. فكأنَّ وجهها أُسِفَّ رمادًا، أو أشرب سوادًا. وقالت لها:

أيتها المعتزَّة بطوالع أقمارها، والمغترَّة بلوامع أنوارها، «ما كلُّ بيضاءَ شحمة، ولا كلُّ حمراءَ لحمة»[1]. كم ذا أُعِيرُكِ أذنًا صمَّاء، وعينًا عمياء!. وأنت تصولين عليَّ بسيف الافتخار، وتنظرين إليَّ بطرف الاحتقار!. استنكافًا عن ركوني لرقِّ العبودية، وسكوني تحت مجاري أقدار الربوبية! وهل يوقع في الذنب والزَّلَّة، إلَّا التخلي من وصفَي الفقر والذِّلَّة؟!، والتحلّي بهما أولى وأحق، ولو كان صدور الغنى والعزّ بحق. فكم بين مقام التدلُّل، ومقام العبودية والتذلّل!.

فبمَ تزعمين أنكِ أتقى مني وأنقى؟ وما عند الله خير وأبقى. وقد حظيت باجتلاء أنوار الدرَّة اليتيمة، التي هي واسطة عقد الحكم والأسرار الكريمة: «مَنْ تواضعَ للّهِ رفَعَه، ومَنْ تكبَّر وَضَعَه». فظفرت من هذه الحكمة بحلية انكساري وذلّي، وسكرت بخمرة: «أنا عند المنكسرة قلوبُهم من أجلي»!! وبينا أتعاطى براحة الشهود تلك الراحة، التي تدفع النَّصَبَ وتجلب الراحة. إذا بعوائد الفوائد تُهدى إليَّ، وخِلَع الجمال والكمال تُخلع عليَّ. وأنتِ واقفة لي على أقدام الخدمة، جَارية في قضاء مآربي بحسب الحكمة. قد كفَّلَكِ[2] الحق بحمل مؤنتي، وكلَّفك بمساعدتي ومعونتي. ووكَّلك بإيقاد سراجي ومصباحي،

---

(١) من أمثالهم، ويروى: «ما كل سوداء تمرة ولا كل بيضاء شحمه»، مجمع الأمثال (٢/ ٢٨١)، وجمهرة الأمثال (٢/ ٢٨٧).

(٢) عهد إليك، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

ووكَلَكِ[1] إلى القيام بشؤوني في ليلي وصباحي. وما ذاك إلاَّ أني أفردت لخدمته نفسي، فصاح في رياض الأماني بلبل أنسي، مترجمًا عن سر الحديث القدسي: «يا دنيا مَنْ خَدَمني فاخدميه، ومَنْ خَدَمَكِ فاستخدميه».

وكيف أُعاب بتحمل الأذى، وإغضائي على القذى؟ وذلك دأب أهل الأدب والوفاء، العارفين أن الدنيا فناء الفناء. وكلُّ آتٍ فكأنْ قد، فما أسعدَ من صبر وتجلَّد: [من الطويل]

على قَدْرِ فَضْلِ المَرْءِ تأتي خُطُوبُهُ ... ويُحْمَدُ منهُ الصَّبرُ فيما يُصيبُهُ
فَمَنْ عَزَّ فيما يَتَّقيهِ اصطبارُهُ ... فَقَدْ قَلَّ مِمَّا يَرْتجيهِ نصيبُهُ

وأنَّى يجزع ذو قلب ثابت، وفي الله عِوَضٌ من كلِّ فائت. وانتظار الفرج عبادة، قد ندب الربُّ إليها عباده. وإن زهوتِ بحسن غُرَّة، أضحت للعين قرَّة، «فَرُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسَمَ على اللّٰهِ لأبَرَّه». على أني بُثَينةُ الحسن لكلِّ جميل، فكم بهَرْتُ العقولَ بظرفٍ رائع وطرف كحيل! وكم ظهرتُ بشموسٍ وبدور، عليهم أفلاك المحاسن تدور. إذا كشف أحدهم عن محيَّاه وسفر، كسف بسناهُ نور الشمس والقمر. وإن تثنَّى تيهًا ودلالاً، أزرى بغصن البان لطفًا واعتدالاً.

وبالجملة فليس لي في الحسن مُجارية، فكم جمعت بين جارية ساقية وساقية جارية! ولو أمليتُ عليك فصلاً من هذا الباب، لسمعت من بدائع الأوصاف ما يُدهش الألباب. وليس علوُّكِ شاهدًا لكِ بالرتبة العليّة،

---

(١) وَكَلَ إليه الأمر: اعتمد عليه فيه وفوَّضه إليه.

فضلاً عن أن يوجب لك مقام الأفضلية. فما كل مرتفعٍ نجد، ولا كلُّ متعاظم ذو شرف ومجد: [من البسيط]

وإنْ عَلاَنيَ مَنْ دوني فلا عَجَبٌ لي أُسوةٌ بانحطاطِ الشمسِ عَنْ زُحَلِ

وكأنك يا هذه لا تميزين بين المكان والمكانة، وما أضل من جهل قدره فتعدى طوره ومكانه! وقد ساغ لي أن أشنِّفَ الأسماع، بما شاع من مآثري وذاع. فمن أعظم ما فقت به حُسنًا وجمالاً، وكدتُ بأخمصي أطأ الثريا فضلاً وكمالاً: تكوينُ الله مني وجودَ سيد الوجود، فأفرغ عليَّ به خِلعَ المكارم والجود. فهو بدر الكمال، وشمس الجمال. وما أحسنَ قولَ حسَّان، في بعض مدائحه الحِسان: [من الوافر]

وأجْمَـلُ مِنْـكَ لـم تَـرَ قَـطُّ عَيْـنٌ وأكمــلُ مِنْــكَ لــم تلِــدِ النســاءُ
خُلِقْــتَ مَبَــرّأً مِــنْ كُــلِّ عيــبٍ كــأنَّــك قَــدْ خُلِقْــتَ كَمَــا تَشــاءُ

فأكرمْ بِه من نبـيٍّ أسرني به وأرضى، كيف لا ولولاه ما خَلق سماء ولا أرضا؟ وجعلني له مسجدًا وطهورًا، وأقرُّ به عيني بطونًا وظهورًا. وعزَّزه بخاصة عباده الأخيار، المؤيَّدين بصريح الآيات وصحيح الأخبار. من اختصهم بمعراج الترقِّي، وفي حضرة الاستمداد منهُ والتلقِّي. وبردِّهم إليَّ قد تفضل عليَّ، فهم في الحقيقة مني وإليّ. فأنا بالفضل أحق، ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١].

* * *

ولمَّا نشرت الأرض صحف مفاخرها، وتلت على منابر العلا سُوَر مآثرها. أبدت ما هو أدقُّ من وشي النسيم على بساط الأنهار، وأرقّ من

دمع الطلِّ على وجنات الأزهار. فأبرقت السماءُ وأرعدت، وأرغت وأزبدت. وقالت:

أما علمتِ أن ريحَكِ لاقت إعصارًا، وجدولَك صادف تيارًا؟ فأقسم بمن بناني، ورفع سمكي فسوَّاني. إن لم تتخطَّي خُطَّةَ المكابرة، وتتخلي عن هذه المثابرة. لأغرقنَّك في بحار طوفاني، أو أحرقنَّك بصواعق نيراني. وهل امتطيتِ السِّماكين، أو انتعلتِ الفرقدين[1]؛ حتى تفتخري عليّ، وتشيري بالذم إليَّ؟! وتلك شهادة لي بالكمال، ولقد صدق من قال: [من الكامل]

وإذا أتَتْكَ مَذَمَّتي مِنْ ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأنِّي كاملُ

أم حسبت أن لك في ذلك حجة، فخاطرت بنفسك في ركوب هذه اللُّجة، وكنت كالباحث عن حتفهِ بظِلْفِه؛ والجادعِ مارنَ أنفِه بكفِّه:

[من البسيط]

لكُلِّ داءٍ دواءٌ يُستَطَبُّ بِهِ إلَّا الحماقةَ أعيَتْ مَنْ يُداوِيَها

أمَّا دعواكِ: «أني واقفة لك على أقدام الخدمة»، فهي مما يوجب لي عليك شكرَ الفضل والنعمة. أما روي عن عظيم القدر والجاه: «مَنْ لم يَشْكُرِ النَّاسَ لم يشكرِ الله». على أنني لا أريدُ منك جزاءً ولا شكورًا، بل عاملتُ ربي فكان سعيي لَديه مشكورًا. بيدَ أنه لا يُساء إلى المتفضل المِحْسان و ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؟!

---

(١) السماكان: نجمان نيِّران، والفرقدان: نجمان من نجوم الدب الأصغر.

ولو تفكّرت أن خادمَ القوم هو السيّدُ والمولى؛ لعرفت الفاضل من المفضول، أو تدَّبْرتِ أن اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى؛ لاستقلت من هذا الفضول. فإن في قيامي بشؤونك أوضحَ أمارة، على أن لي الولايةَ عليكِ والإمارة. وقد غذيتكِ[1] بدَرٍّ كالدُّرِّ[2] واللآل، وربَّيتكِ في حِجْرِ الرفاهية والدلال. وكسوتُكِ بعد أن كنت عارية، ولم يك ذلك مني عارية.

ولمَّا أمعنت فيك النظر، واجتليت منك وجوه العبر. ألفيتُك تدَّعين حسن التدبير، وأنت متصفة بالسَّرَف والتبذير. فأبقيتك تحت حكمي وتصرّفي، وأسبلت عليك سِتر بِرّي وتعطّفي. ولو آنس قلبـي منك الرشدَ والكمال، لما صبا إلى ادِّخار ذخيرة لك ولا مال.

وأما قولك: «مني سيدُ الوجود، ومن اصطفاهم لحضرِته الملكُ الودود». فإن كنتِ تفتخرين بأشباحهم الظاهرة، فأنا أفتخر بأرواحهم الطاهرة. أما علمتِ أنها في ملكوتي تغدو وتروح، وبواردَيْ بسطي وقبضي تشدو وتنوح؟. فأنا أولى بهم، وأحرى بالافتخار بحزبهم. وهل تكون رقّة المباني، إلاَّ بحسب دقَّة المعاني؟ فمنك الأصدافُ ومني الدُّرَر، فما عندك من النفائس والغُرر؟!

ومن قلَّةِ عدلك وإتصافك. وعدم تحلِّيك بالحق واتصافك: أنَّكِ افتخرتِ بصفوة العباد، وتعاميت عن أهل البغي والعناد. مع أن أكثر قومك قد استحوذَ عليهم الهوى، وانقضَّ نجمُ سؤدُدِهم من سماء المجد

---

(١) غذيتك: غذوتك أي أطعمتك، قال صاحب القاموس: غذيته: غذوته. ولم يعرفه الجوهري فأنكره.

(٢) الدَّر: اللبن، والدُّر: كبار اللؤلؤ.

وهوى. فكم تجرّعوا عليك من ذَنوب[1] الذنوب، فسترت تلك العيوب واللّـهُ علاّمُ الغيوب! وهل توهّمت أن هذه العادة، عنوانٌ على الفضل والسعادة؟ كلا إنها لشِنشِنة[2] ذميمة، وجِبِلّة تأنف منها النفوس الكريمة. فإلى متى أطوي عرضَكِ على غِرَّة، وأصون شَغَاكِ[3] عن فِرَّة[4]؟ وأنتِ تجعلين مفاخري هباءً منثورًا، وتعدِّين مآثري كأن لم تكن شيئًا مذكورًا! وكلما أتيتُك بآية محكمة أو حديث وارد، كنتُ في ذلك كمن يضرب في حديدٍ بارد! فأقلّي من الهذَيان والهَذَر، وخذي لنفسك مني الحَذَر؛ فإن نارَ بأسي لا تُبقي ولا تَذَر.

***

فلما سمعتِ الأرضُ من السماء، مقالةً تقطر من خلالها الدّماء. أطرقت لمحةَ بارقٍ خاطف، أو نَغَبةَ[5] طائرٍ خائف. ثم أقنعت رأسها، وصعّدت أنفاسها. وقالت: لقد أكثرتِ يا هذه من اللغط، وما آثرتِ الصواب على الغَلَط. فعلامَ تهزئين بـي، وتسخفين بحسبـي ونسبـي؟ وإلام تنقُضين عُرى أدلّتي، ولا تعاملينني بالّتي؟!، وحتامَ تقابلينني بأنواع التأنيب، ولم تقفي على حقيقتي بالتنقير والتنقيب؟!

---

(١) الذّنوب من الدلاء: العظيمة أو الملأى ماءً.

(٢) الشنشنة: الطبيعة والسجية.

(٣) الشَّغا: اختلاف نبتة الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج. القاموس (شغو).

(٤) الغِرَّة: الغفلة في أثناء اليقظة، والفِرَّة: الابتسامة.

(٥) نَغَب الطائر: حسا من الماء ولا يقال شربَ، والنَّغبة: الجُرعة، ويُضم. القاموس (نغب).

أحسِبت أن الجسم ما خلق إلاَّ عبثًا، ولا كان للنفس النفيسة إلاَّ جَدَثًا؟ وفي ميدانه تتسابق الفهوم، وتُدرَك عوارفُ المعارف والعلوم. وبه تترقَّى الأرواح، في مراقي الفلاح. وكيف لا يكون مقدّسًا من كلِّ غَيٍّ وغَين[1]، وهو لا يفتر عن تسبيح بارئِهِ طرفةَ عَين؟! ولو كشف لك عن حقيقة من حقائقه، أو رقيقة من رقائقه، لاعترفت بفضلي اعتراف والهٍ كَلِف، وعرفت من أينَ تؤكل الكَتِف.

وأما ما عيرتني به من صون أسرار الأشرار، الذين استهوتهم دواعي الغفلة في أودية الأوزار. فهل وقع ذلك إلاَّ وأنتِ ناظرة إليه، عالمة به من قبل أن أطَّلع عليه؟! فما بالك نسيت نفسك أصلاً، ونسبت إليّ ما أنت به أولى؟ وقد علمت أنَّ رحمة الوالدة، معذرةٌ لها وحجة عليك واردة. مع أني لا أزال أتعهد موعظتهم بلسان الحال، وأحاول انتشالهم من تلك الأوحال. حتى يأذن الله لهم بالتوفيق، إلى اقتفاء مناهج التحقيق. فكم ذا أنتِ عليَّ متحاملة، وعن آية العدل والإحسان متماحلة؟ وأنا لك أسمع من خادم، وأطوع من خاتم.

على أن لي من الفضائل، ما ثبت بأصحّ البراهين والدلائل. أَمَا فِيَّ بقعة من أشرف البقاع على الإطلاق، لضمّها أعضاء من تمم الله بهِ مكارمُ الأخلاق؟ وفِيَّ روضةٌ من رياض الجنة، كما أفصحت عن ذلك ألسنةُ السنَّة؟ ومنِّي الكعبةُ والمَشْعَرُ الحرام، والحجرُ وزمزمُ والركنُ والمقام. وعليَّ بيوت الله التي تشدّ إليها الرحال، و ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]. وقد جعلني الحقُّ للبريَّة بساطًا، وأودع في

---

(١) غشاوة.

منازلي بحكمته أنسًا وانبساطًا. وأخرج مني طيبات الرزق فأكرمَ بها عباده، وأتمَّ نعمته عليهم فجعل الشكر عليها عبادة. وجعل القرب مني عينَ القرب إليه، وفي ذلك سرٌّ بديع لمن عثر عليه. لقول من حضَّ أمته على ملازمة المساجد: «أقربُ ما يكونُ العبد مِنْ ربِّهِ وهوَ ساجد».

وكفاني بذلك شرفًا وعلوًّا، وإن جحدتِ بآياتي ظلمًا وعُتوًّا. وناهيكِ بما اشتملتُ عليه من الرياض والغياض[1]، ذات الأنهار والحياض[2]؛ التي تشفي بنسيمها العليل، وتنفي ببرد زلالها حرَّ الغليل. وما أرقَّ قولَ من قال، عندما رتع في ظلالها وقال: [من الكامل]

لمَ لا أهيمُ على الرياضِ وطيبها وأظَلُّ منها تَحْتَ ظِلٍّ ضافِ
والزَّهرُ يضحكُ لي بثغرٍ باسمٍ والنَّهرُ يلقاني بقلبٍ صافِ

وحيثُ إن الشيء بالشيء يُذكر، والاستطراد لأدنى مناسبة لا يُنكر. فدونكِ نبذةً في فضل فصل الربيع، منمنمةَ البُرود[3] بحسن وشي الربيع. إذ لا يخفى أنه شامة بين الفصول، قد عُقِدت لنشر مزاياه أبدع الفصول. وجههُ وسيم، وأنفاسه نسيم. رائق الديباجة، رقيق الزجاجة. غصن شبابه رطيب، وبرد صباه قشيب. معتدل المزاج، متسع الفجاج. عاطر الأرجاء في كل حين، بفنون الأزاهير والرياحين. أوقاته شبيهةٌ بأوقات الجِنان، تبتهج بها النفس وينشرح الجَنان، يتلو لسانُ حاله بصوت رخيم: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩].

---

(١) جمع غَيضة وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء.

(٢) جمع حَوض وهو مجتمع الماء.

(٣) جمع بُرْد وهو الثوب المخطط.

فهـو ذو اليـد البيضـاء، والعيشـة الخضـراء. والمـوارد الصـافيـة، والمطارف الضافية. فكم أسدى إلى الناس جميله، وبسط لهم بساط أنسه في جميله. ولا غَرْو أن يوسم بمديد الفضل والنَّدىٰ، وبه ترتشف الشمس من ثغور الأقاح قطر النَّدى[1]. يحكي الورَق منه الورِق[2]، فكأنه والغصنَ يَراعٌ وَرِقّ، ويزري زَهره بالزُّهر[3]، ويغري بالبيض والصفر. فما الدُّرُّ المحبوك، وما التبر المسبوك؟ غصونهُ ترقص فتميس وتميل، وطيوره تغني فتطرب بحسن الهديل. الورود تدعو إلى حسن الورود، وقد بدت كواكبها الدرِّية في مطالع السعود: [من مجزوء الرمل]

كَتَـــبَ الــــوردُ إلينــــا ... فـــي قـــراطيـــسِ الخـــدودِ
يــا بنــي الأنــسِ صِلُــونــي ... قـــد دنـــا وقـــتُ الـــوُرودِ

تهبُّ في الأدواح منه الأرواح، فتحيـي الأشباح وتنعش الأرواح. لياليه كلها أسحار، وأيامُه ذات أنواء وأنوار. وسحابهُ ماطر، وترابهُ عاطر: [من البسيط]

ما الدهرُ إلاَّ الربيعُ المستنيرُ إذا ... وافى الربيعُ تجلى النُّوْرُ والنَّوْرُ
فـالأرضُ يـاقـوتـةٌ والجـوُّ لـؤلـؤةٌ ... والنّبـتُ فيـروزجٌ والمـاءُ بِلَّـوْرُ

ومـا ألطف ما قيل في وصف أنواره، وقد حل النسيم أزرارَ أزهاره: [من الخفيف]

مـرحبًـا بـالـرَّبيـعِ فـي آذارِ ... وبـإشـراقِ بهجـةِ الأزهـارِ

---

(١) الندى: قطرات الماء على النبات، والندى الأولى: الجود والسخاء.
(٢) أي يشبه ورقه الفضة.
(٣) الكواكب.

مــن شقيــقٍ وأُقحــوانٍ ووَرْدٍ وخُـزامٍ وسـوسـنٍ وبهـارِ
زهـرة عنـد زهـرة عنـد أخـرى كـاقتـرانِ الـدِّينـارِ بـالـدِّينـارِ
أو كـأوراقِ مُصْحـفٍ مِـنْ لُجَيْـنٍ مُـذهَبـات الأخمـسِ والأعْشـارِ

يزهو في خمائلهِ المنثورْ، فيهزأ بالمنظوم والمنثور. ويلوح البنفسَج في بـرده البهـيّ البهيـج، ويفـوح فيفـوق المسـك بحسـن الأريـج. وزهـوّ الياسمين، كأنهُ درٌّ ثمين. وما أظرف ما قيل في النرجس: [من الكامل]

أرأيتَ أحسنَ من عيونِ النّرجسِ أو مِـنْ تغَـازُلِهـنَّ وَسْـطَ المَجْلـسِ
كـالـدُّرِّ يُسْفـرُ عَـنْ يـواقيـتٍ علـى قُضُبِ الزُّمُرُّدِ في بساطِ السُّنْدُسِ

وقد جرت بَينهُ وبين الورد، مناظرات تروق معانيها كالجوهر الفرد. وهي لعمري ألطف من مخالسة القُبَل، وأظرف من مُغازلة المُقَل. فقال منصفًا بينهما من حكم، ولله درُّهُ ما أعدلهُ من حَكَم: [من الطويل]

ألستَ ترى في الروضِ باقاتِ نرجسٍ بَـدَتْ حـولَهـا للنـاظـريـنَ ورودُ
فهـذي خـدودٌ مـا عليهـنَّ أعيـنٌ وتلـكَ عيـونٌ مـا لهـنَّ خـدودُ

وما أوردتهُ فشيء نَزْر، وقطرة من بحر. إلاَّ أنَّ ما لا يدرك كله، لا يترك قُلُّه.

* * *

فأسفرت عن بدر طلعتها السماء، وهي تزهو في برد السنا والسناء. وقـالـت تنـاجي نفسهـا عنـدمـا رقَّ السَّمَـر: حتَّـام «أريهـا السُّهـى وتـريـني القمر»[1]؟! ثم عطفت عليها تقول، وهي تسطو وتصول:

---

(١) مـن أمثالهم، يُضـرب لمن يغـالط فيمـا لا يخفى. مجمـع الأمثـال (١/ ٢٩١)، ومعجم الأمثال العربية (٢/ ٤٠٣).

أيتها المتعدِّية لمفاضلتي، والمتصدِّية لمناضلتي، متى قيس التُّرْبُ بالعَسْجَد[1]؟! أو شِبه الحصى بالزَّبَرْجَد[2]؟ إن افتخرت بشرف هاتيك البقاع، التي زها بها منكِ اليفاعُ والقاع. فأين أنت من عرش الرحمن، الذي تعكف عليه أرواح أهل الإيمان؟ وأين أنت من البيت المعمور، والكرسيّ المكلَّل بالنور؟ وإنْ كوَّنَكِ الحقُّ للخلق بساطًا، وجعل في ربوعك لهم طربًا ونشاطًا. فقد جعلني سقفًا محفوظًا، لم يزل بعين العناية ملحوظًا.

وكيف تفتخرين عليَّ بروضة من رياض الجنة، وهي عليَّ بأسرها فضلاً من الله ومِنَّة؟! أم كيف تزعمين أنهُ «كتب لك بأوفر الحظوظ»؟ وعندي القلم الأعلى واللوح المحفوظ؟! وأما ازدهاؤك بالحياض والأنهار، والرياض المبتهجة بورود الورود والأزهار. فليت شعري هل حويت تلك المعاني، إلاَّ بنفحات غيوثي وأمطاري؟! أم أشرقت منك هاتيك المغاني، إلاَّ بلمحات شموسي وأقماري؟! فكيف تباهينني بما منحتُكِ إياه، وعطَّرتُ أرجاءَكِ بأريج نَشْره وريَّاه؟! ويا عجبًا منك كلما لاح عليَّ شعار الحزن، خطرتِ في أبهى حلة من حلل الملاحة والحسن. وإن افترّت ثغورُ بدورِ أنسي، وقرَّت ببديع جمالي عينُ شمسي. زفرتِ زفرة القيظ، وكدتِ أن تتميَّزي من الغيظ. وهذا دليل على ما جبلتِ عليهِ من الحسد، ولا جرم أنَّ ما في الباطن يظهر على الجسد: [من الطويل]

ويأبى الذي في القلبِ إلاَّ تبيُّنَا ... وكلُّ إناءٍ بالذي فيهِ يَرْشَحُ

---

(١) الذهب.

(٢) حجر كريم ذو ألوان كثيرة.

ما هذا الجفاء، يا قليلةَ الوفاء؟! وهل صفت أوقاتُكِ إلاَّ بوجودي، أو طابت أقواتك إلاَّ بوابل كرمي وجودي؟! ولو قطعت عنك لطائفَ الإمداد، لخلعت ملابسَ الأنس ولبست ثيابَ الحِدَاد. أو حجبتُ عنكِ الشموسُ والأقمار، لما ميَّزت بين الليل والنهار. فهلا كنت بفضلي معترفة، حيث إنك من بحر فيضي مغترفة؟ طالما عبثت أيدي الحَدَثان[1] بلطائفك الزاهرة، ونفثَت أراقمُ[2] الليالي بسُموم سَمومها[3] في محاسنك الباهرة. فأهديت إليك أزهارًا بديعة المحاسن، وأجريت لك أنهارًا من ماءٍ غير آسن؛ فتضاحكت مباسمُ الرياض والغياض، غِبَّ أن تباكَت عيونُ الجداول والحياض.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وما انطوت عليه من الأسرار والعلوم. إن لم تغضِّي من طرفِكِ بعضَ الغَضّ. لأذْوِيَنَّ بِحرِّ هجيري ورْدَ وجنتِكِ الغَضّ. وهل أنتِ أهل لمنافثتي في معاني الفضل والكمال؟ أو منافستي في مجال الحسن والجمال؟ وقد تفردتُ لا محالة في البهاء والمَلاحة، وانفردتُ بجمعي بين الحماسة والسماحة. فأنَّى يغترُّ بزهرتك وأنت خضراءُ الدِّمَن[4]؟ وهل نزهة حدائقك إلاَّ برهة من الزَّمَن؟

هذا وحيث أعربتِ عن زمن الربيع، وأغربتِ في وصف جماله البديع. فلِمَ أضربتِ عن بقية الفصول؟ وهل حسبت أن ذكرَها ضرب من الفضول؟ كلا إن سكوتَكِ عنها مجرَّدُ تغافل، ومحض تَبَالُهٍ وتجاهُل. إذ كُلٌّ منها كَلٌّ على القلوب، مُؤذنٌ بهجوم الهموم وضروب الخطوب. وهل

---

(١) حَدَثان الدهر: حوادثه ونُوَبُهُ.

(٢) جمع أرْقَم، وهو أخبث الحيَّات.

(٣) السُّموم: جمع سُمّ، والسَّموم: الريح الحارة.

(٤) جمع دمنة، وهي المِزْبَلة.

لها مزيّةٌ أو منقبة فاخرة، سوى أنها تُزَهِّد في الدنيا وترغب في الآخرة:

[من البسيط]

إنْ كـانَ فـي الصيـفِ ريحـانٌ وفـاكهـةٌ
فـالأرضُ مُسْتَـوقَـدٌ والجـوُّ تَنُّـورُ
وإنْ يكُنْ في الخريفِ النَّخْلُ مُختَرَفًا[1]
فـالأرض عُـريـانـةٌ والجـوُّ مقـرورُ
وإنْ يكُـنْ فـي الشتـاءِ الغيـثُ متصـلاً
فـالأرضُ محصـورةٌ والجـوُّ مـأسـورُ

وكيف تزعمين الشفقة على أولادك، ورعي ذِمام[2] أهل محبتك ووِدادك؟ وأنتِ تأكلين لحومَهم أكلَ النَّهيم، وتشربين دماءهم شرب الهِيم! فكم خلَّيتِ بين وَدودك ودودك، ولم تَعُدِّي ذلك من جفوتِكِ وصدودِك؟! ولا عَجَب فإن قلبكِ من حَجَر، وبقسوتهِ ضُرب المثل في البدو والحَضَر.

* * *

فنزعَتِ الأرضُ عن مقاتلتِها، وعلمَتْ أنها لا قِبَل لها بمقابلتها. وحين عَجَزت عن العوم في بحرها. واستسلمت تمائمها لسحرها، بسطت لها بساطَ العتاب، متمثلة بقول ذي اللطف والآداب: [من الوافر]

إذا ذهـبَ العِتـابُ فليـسَ وُدٌّ ... ويبقـى الـودُّ مـا بقـي العِتـابُ

ثم قالت: اعلمي أيتها الموسومةُ بسلامة الصدر، الموصوفة بسموّ المنزلة وعُلوِّ القدر: أن الله ما قارن اسمي باسمك، ولا قابل صورة جسمي بجسمك.

---

(١) اخترف الثمرة: جناها.

(٢) الذِّمام: العهد والأمانة.

إلَّا لمناسبة عظيمة، وأُلْفة بيننا قديمة. فلا تُشمّتي بنا الأعداء، وتسيئي الأحبَّاء والأودَّاء. فإن ذلك من أعظم الرزايا، وأشدّ المحن والبلايا: [من الكامل]

كُلُّ المصائب قَدْ تُمرُّ على الفتى ... فَتَهُونُ غيرَ شماتةِ الأعداءِ

ألا وإنَّ العبد محلُّ النقص والخلل، وهل يسوغ لأحد أن يبرىء نفسهُ من الزَّلَل؟ ومن يَسْلَمُ من القَدْح، ولو كان أقومَ من القِدْح[1]؟!:

[من الطويل]

ومَنْ ذا الذي تُرضى سَجاياه كلُّها ... كفى المرءَ فَضْلاً أن تُعَدَّ مَعايِبُهْ

هذا وإن لي مفاخرَ لا تُنكر، ومآثر تجلّ عن أن تحصر. كما أنك في الفضل أشهرُ من نار على علم، وأجلُّ من أن يحصي ثناءً عليك لسانُ القلم. فإلى متى ونحن في جدال وجِلاد؟ نتطاعن بأسنَّةِ ألسنةٍ حِداد؟! وهل ينبغي أن يجرَّ بعضُنا على بعض ذيلَ الكِبْرِ والصَّلَف، بعد ما كنا عليه من حسن الود والكَلَف؟! ولكن عفا الله عمَّا سلف.

على أني ما أشرعت قبلك سنان المناظرة، إلَّا بعد أن فوَّقتِ[2] لي سهامَ المشاتمة والمشاجرة. فإن الجزاء من جنس العمل، وأنّى لي بالصبر وأنا مطبوعةٌ على العَجَل؟ وما يبدو عليَّ من لوائح السرور والكمد، لم يكن ناشئًا عن بُغض لك أو حسد. وإن جنح بعضهم إلى التشبيه، وسلك في قوله مسلك التمويه: [من الخفيف]

إن هذا الرَّبيعَ شيءٌ عجيبٌ ... تضحكُ الأرضُ من بكاءِ السّماءِ
ذَهَبٌ أينما ذهبنا، ودُرٌّ ... أين دُرْنا، وفضَّةٌ في الفضاءِ

---

(١) قطعة من الخشب مستوية.

(٢) فوَّق السهم: جعل له فُوْقًا، وهو موضع تثبيت الوتَر منه.

وإنما أنا ذات ولد وبنين، لم أزل أعاني بهم كلَّ وَلَهٍ وحَنين. فإن عاملْتِهم بالجميل، قابلتُكِ بالبشاشة والوجه الجميل. وإن حبستِ عنهم سحائبَ المِنَح والمِنَن، فتحكَّمَتْ فيهم صنوفُ الصُّروفِ والمِحَن. قاسيتُ لأجلهم كلَّ بأس وبوس، فأورثني ذلك شدة التقطيب والعبوس. وما اتُّهمت به من اغتيالهم، بعد زهوِّهم عليَّ واختيالهم. فمعاذ الله أن يصدر مني ذلك، أو أصبو إلى سلوك تلك المسالك.

وكيف لا أكون حَرِيَّةً بحفظِ النفوس والأموال، وبي في الحفظ والأمانةُ تضرب الأمثال؟ غير أن الأشباح، بعد مفارقة الأرواح. تحِنُّ إلى وصلي حنينَ الفرع إلى أصلهِ، فترجع إليَّ رجوعَ الغريب إلى أهله. ويحصُل لها بالاتحاد بي غايةُ المنى، حتى أصيرَ أنا هي وهي أنا. وهذه لعمري، حقيقة أمري. فانظري إليَّ بعين الرضى، واصفحي بحقِّكِ عما مضى.

* * *

ولما سمعت السماء هذه المقالة، التي تجنح إلى طلب السلم والإقالة، قالت لها: مآربُ لا حفاوة، ومشربٌ قد وجدتِ له حلاوة. وما ندبتِ إليه من المودَّة والألفة، «فلأمرٍ مّا جَدَعَ قصيرٌ أنفه»[1]. ولو لم تلقي إليَّ القِياد، لعاينتِ مني ما دونه خرطُ القَتاد. ولكن لا حرج عليكِ ولا ضير، فإنك اخترتِ الصلح والصلح خير. وكيف جعلت العتاب شرطًا بين الأحباب، أوَ ما سمعت قولَ بعضِ أولي الألباب؟ [من الطويل]

إذا كُنْتَ في كُلِّ الأمورِ معاتِبًا ... صديقَكَ لم تلقَ الذي لا تُعاتِبُهْ

وإن أنتَ لم تشربْ مرارًا على القَذى ... ظَمِئْتَ وأيُّ الناسِ تصفو مُشارِبُهْ

---

(١) من أمثالهم، يضرب لمن يضمر شيئًا يدل عليه فعله. مجمع الأمثال (٢/ ١٦٩)، ومعجم الأمثال العربية (١/ ٣١٤).

وها أنا رادَّة إليك عوائدَ إحساني، وموائَد جودي وامتناني. فقَرِّي عينًا وطيبي نفسًا. وتيهي ابتهاجًا وأُنسًا. وأبشري ببلوغ الوطَر، وزوال البؤس والخطر.

فسجدَتِ الأرضُ شكرًا، وهامَتْ نشوةً وسُكْرًا. وتهلّل وجهُها سرورًا، وامتلأت طَربًا وحُبورًا.

* * *

وعندما ركد النسيم، واستقرّ أمر التسليم. رويتُ عنهما ما يزري بالطِّلا[1] في الكؤوس، ويأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بأجزاء النفوس. ورأيت كلاًّ منهما في سلوك تلك المحجة، تستدل على فضلها بأوضح بيِّنة وأقوى حجَّة.

ثم نظرتُ في العالمين، نظرَ محقِّق دون مَيْن؛ فألفيتُ هذا العالم هو مركز دائرة السيادة، لأنه اجتمع فيه ما في العالم العلويّ وزيادة. وكيف لا؟ وبه أقيم شرعُ ذي الكرامة، وسما عرش الخلافة والإمامة.

فجعلت أتوسَّم وجوهَ الوجود. لأحظى بمن أوتي هذا المقام المحمود. فأهديه هذه المعاني التي هي ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]، وأذيِّلها بمدحه إذ هو عبارة عن حسن الختام. فاهتديتُ إليه بنشرِ ثنائه، وبِشْر طلعتِه وسنائِه. فإذا هو السيد الذي طلع من المغرب بدرُ كماله، فسطعَ أفقُ المشرق بشمس جمالِه. وفرعُ دوحة النبوَّة، وأصلُ المكارم والفتوَّة. ذو الحسب الطاهر، والنسب الباهر. السنيّ، حضرةُ مولانا الأمير السيد عبد القادر الجزائري الحسني. لا زالت وجوه الآمال

---

(١) الخمر.

تستقبل شطرَ حرمه، ولا برحت وفودُها تطوف بكعبة بِرِّه وكرمه؛ فإنه في محيًّا الدهر غُرَّة، ولعين المجد قُرَّة: [من الطويل]

إذا زانَ قومًا بالمناقبِ واصفٌ ذكرْنا له فَضْلاً يزينُ المناقِبا

وبالجملة فلهُ شِيمٌ حُسنى، تفوق الشمس بهجةً وحُسنا. بين حماسة وسماحة، وفصاحة وصباحة: [من الطويل]

شمائلُ لا بُرْدُ النسيمِ مُعَطَّرًا حكاها ولا خَدُّ الشَّمولِ مُوردًا

إذا شبَّ نار الوغى وأورى، فما أكثرَ القتلى وما أرخصَ الأسرى. وإن جادَ لرائد الغوث والفَرَج، فحدِّث عن البحر ولا حَرَج. يتهلل وجهه الشريف عندما تمطر كفُّهُ بالبيضاء والصفراء، ولا غَرْو فإنه ابن خير من أظلَّته الخضراء وأقلَّته الغبراء. فيا له من مُفْرَدٍ كامل، قد جمع الله بهِ أشتات الفضائل: [من الطويل]

عَطاءٌ ولا مَنٌّ وحُكْمٌ ولا هوى وحِلْمٌ ولا عَجْزٌ وعزٌّ ولا كِبْرُ

ولما مُثِلْتُ بين يديه، وحسنَتْ خاتمةُ مقامتي لديه؛ ظفرت بجميع أوطاري، في سائر شؤوني وأطواري. فطفِقْتُ أشكرُ الله تعالى على فضله وأحمد، وأصلي على من اسمُهُ في الأرض مُحَمَّدٌ وفي السماء أحمد.

❋ ❋ ❋

[قصيدة بديعة في مدح النبي ﷺ]

ولمنشئها قصيدة بديعة في مدح النبي ﷺ، يُستخرج من كل بيت منها اسم من أسمائِه الشريفة، على قاعدة فن المعمّى[(١)] وهي هذه:

[من الكامل]

لله مولى قد حلا بفمي لَهُ　　　حمدٌ فما أعلى منارَ مقامِهِ

المراد بالفم الميم، بعمل الاستعارة[(٢)]. وبكونه (له حمد)، فهو: **(محمد)** عليه الصلاة والسلام.

آلى المحبُّ على المدى لا باءَ عنهُ　　　ولا انتهى عن نهجِ شرعِ غرامِهِ

---

(١) المعمّى عند البلاغيين كلام موزون يدل على اسم عن طريق الرمز والإيماء، أو عن طريق القلب بزيادة فيه، أو التشبيه أو بحساب الجمّل، وهو أسلوب يقبله العقل والطبع السليم.

(٢) تعتمد التعمية البديعية على جملة قواعد أو أعمال يتم بمعرفتها استخراج المعمى وهي: العمل التحصيلي: وبه يتم تحصيل حروف الكلمة المطلوبة، وهو ذو أقسام ثمانية، منها: الترادف والتشبيه والتلميح... والعمل التكميلي: لترتيب الحروف الحاصلة، وهو ذو ثلاثة أقسام: التأليف والإسقاط والقلب. والعمل التسهيلي: لتسهيل أحد العملين وتوضيحه، وهو ذو أربعة أقسام: الانتقاد والتحليل والتبديل والتركيب.

أشير إلى حذف باء (المحب)، ومنتهى (المدى) بعمل الإسقاط[1]، وهو في الاسم الكريم.

ولشطـر وجـه حمـاهُ مـدَّ أكفَّـهُ يشكـو بـزفـرتـهِ لهيـبَ أوامِـهِ

وفيه أيضًا، والمراد بالشطر النصف، وبالوجه (المحيًا) بعملَيْ الاشتراك والترادف[2].

فحباهُ وصلاً منهُ أخمد للجوى وبـدا فـلا كَلَـفٌ ببَـدْر تمـامِـهِ

قولهُ: (لا كَلَف) إشارة إلى زوال نقطة (أخمد) بعمل التصحيف[3] فيصير (أحمد) عليه السلام.

هوَ غُرَّةُ الحسنِ التي في جبهة الـفُضـلاءِ ذو وُدٍّ لـرَعـي ذِمـامِـهِ

في (محمود) عليه السلام. وفاء (الفضلاء)[4]، تجعل ميمين لتكون ظرفًا، وفيه عمل الانتقاد[5].

مَنْ ماتَ منْ أهلِ الهوى فيهِ فذا فـي الحـبِّ حـيٌّ فـائـزٌ بحِمـامـهِ

---

(١) حذف حرف أو أكثر من الكلمة، وقد أشير إليه هنا بكلمة (لا باء عنه).

(٢) الترادف بين لفظي المحيا والوجه، فقد ذكر الوجه وأراد المحيا، فإذا أخذنا شطره الأول (مح) وأضفناه إلى الكلمة التي تليه وهي (مد) كان الاسم (محمد).

(٣) من العمل التحصيلي، وهو تغيير بعض الحروف بزيادة النقط أو نقصها.

(٤) لعل في العبارة سقطًا، فالكلام ناقص، إذ لا بدَّ من الإشارة إلى حرف الحاء أولاً، وهو في قوله: (غرة الحسن) بعمل الانتقاد، تكتنفه الميمان المشار إليهما لأن الغرة تكون وسط الجبهة، ثم توصل الحروف الثلاثة بقوله: (ود) لتكون: (محمود).

(٥) الانتقاد: الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الكلام المطلوب، كذكر الفرق والرأس والتاج والوجه وما أشبه ذلك، يراد به أول الكلمة.

المراد (بالحب): الود، بعمل الترادف، وفيه (حيٌّ) فهو (وحيد) عليه السلام.

بحرٌ خضمٌّ حَوْلهُ مَنْ حام رُدّ (م) بـهِ قـريـرَ العيـنِ مِـنْ إكـرامِـهِ

في (ماح) عليهِ السلام: واستخراجُه بعمل القلب[1] المشار إليه بقولِه (ردٌّ).

كم نالَ أقصى الأُنسِ منهُ كُلٌّ را ج فـاغتـدى فَـرِحًـا بنيـل مـرامـهِ

(أقصى الأنس)[2] السين بعمَل الانتقاد وإذا وصل بهِ (راج) فهو (سراج) عليه السلام.

عِقْدٌ غَدا يزهو على جِيْد العُلا بهَـرَ العقـولَ بـدُرِّه ونظـامِـهِ

المراد (بالعقد) الميم بعَمل الاستعارة، وهو على (جيد): (مجيد) عليه السلام.

ماحي الظلامِ بنورِ وَجْهِ غايةُ الـ ـعبَّـادِ والـزهَّـادِ كَشْـفُ لثـامِـهِ

في (أحيد) عليه السلام، وفيه عملا الانتقاد والإسقاط[3] المشار إليه بكشف اللثام.

وبحسـنِ مَبْسَمِـهِ بـدا فجـرٌ جـلا ظُلمَ الدُّجى وحلا ارتشافُ مُدامِه

---

(١) ذكر ما يدل على عكس حروف الكلمة، والمراد هنا كلمة (حام).

(٢) أقصى الأنس، أي: آخر كلمة الأنس، وهو السين.

(٣) الإسقاط: حذف حرف أو أكثر من الكلمة بذكر ما يدل على ذلك، وهو هنا كشف اللثام، والمراد: إسقاط الميم من (ماحي) يبقى (أحي) فإذا أضيفت إلى الدال التي أشار إليها قوله: (غاية العباد) أي آخر كلمة (العباد) بعمل الانتقاد، صار الناتج: (أحيد).

في (مصباح) عليه السلام، وفيه عملا الاستعارة والترادف في (مبسم) و (فجر)[1].

خَمْرٌ محا غينَ الشكوكِ وكيفَ لا والشمسُ تبدو دونَ ساطعِ جامهِ

المراد بالشمس: العين، بعمل الترادف[2]؛ وهي دون (جام) (جامع) عليه السلام.

وبلحظِه وقوامِه قَدْ رَدَّ مُضْنى الوَجْد منصورًا على لُوَّامِهِ

في (صادق) عليه السلام، وفيه عملا الاستعارة والقلب[3].

يَرْوي لأرباب الصبابة حالَهُ رَشَأٌ بقلبِ الصَّبِّ رَشْقُ سِهامِهِ

في (حاشر) عليه السلام، وفيه عمل التحليل والتأليف والتسمية[4] والقلب.

تاجُ المحاسن قَدْ سما بَيْن الورى وعَلا على أوج الكمال وهامِهِ

---

(١) (مبسم) بعمل الاستعارة (ميم). و (فجر) بعمل الترادف (صباح). فالناتج: (مصباح).

(٢) لأن من معاني العين الشمس. انظر: (اللسان: عين).

(٣) الاستعارة في (لحظة) تخرج (الصاد)، والقلب في (قوامه) تخرج (ما وق) إلاّ أن الواو ينبغي أن تكون دالاً حتى يصبح الاسم (صادق)!

(٤) التحليل: تجزئة اللفظ الواحد، والتأليف: جمع الألفاظ المتفرقة من مواضع متعددة. والتسمية: ذكر اسم الحرف وإرادة مسماه أو العكس. وقد تم كل ذلك في هذا البيت بالإضافة إلى القلب. فقلب كلمة (رشا) أخرج (أشر) والتسمية أخذت من كلمة (حاله) ولكن بتحليلها إلى جزأين، ثم أخذ الجزء الأول منها ليضم إلى الكلمة السابقة بعمل التأليف فينتج: (حاشر).

المراد بتاج المحاسن الميم بعمل الانتقاد[1] وهو على (بين): (مبين) عليه السلام.

الشمسُ تَعْشَقُهُ وغُصْنُ البانِ يَسْعى شطرَ قِبْلَتِهِ بلُطْفِ قوامِهِ

في (عاقب) عليه السلام، واستخراجه بعمل الترادف والاستعارة والاشتراك[2].

وَبصُبْح طَلْعَته بدا وَجْهُ الهُدى وعن الوجودِ أماطَ سِتْر ظَلاَمِه

في (طه) عليه السلام، وفيه عمل الانتقاد[3]، كما لا يخفى على كل جهبذ نقَّاد.

وأتى بسِرٍّ يا لَهُ سِرًّا سما إذ ما ترى مَنْ شَكَّ في أحكامِهِ

في (يس) عليه السلام، وفيه عمل التسمية والإسقاط والتحليل[4]، وذلك في قوله: (ما تَرَى).

بأبي وأمي نُونُ حاجِبِهِ وبي يا ليتني أحظى برَمْز سَلامِهِ

---

(١) لأنه أشار إلى ذلك بقوله: (تاج) وهو أول كل شيء.

(٢) الشمس: (عين) بعمل الترادف، وغصن البان: (ألف) بعمل الاستعارة، وشطر قبلته: (قب) بعمل الانتقاد ــ وقد أغفل المصنف ذكره هنا ــ والناتج: (عاقب).

(٣) (صبح طلعته): أراد حرف (ط). و (وجه الهدى) أراد حرف (هـ) بعمل الانتقاد، والناتج: (طه).

(٤) التسمية في قوله: (يا له) إذ أخذ منها حرف (ي) وأسقط الباقي بعمل الإسقاط، والتحليل في تجزئة كلمة (سر) إلى جزأين أخذ منهما الجزء الأول وهو حرف (س)، فكان الناتج: (يس) وقد دل على الإسقاط بقوله: (ما ترى) والله أعلم.

فـي (نبـيّ) عليـه السـلام، وَفيـه عمـلا الاستعـارة والتخصيـص والتَنصيص[1].

فَنِهـايَـةُ الأوطـارِ عَطْفتُـهُ وكـلُّ السولِ لثْمُ التُّرْب مِنْ أقدامِهِ

فـي (رسـول) عليـه السـلام. وفيـه عمـلا الانتقـاد والتخصيـص والتنصيص[2].

رَوحي وريحاني بذِكْر مَذْيحِهِ طِبْ يا فؤادُ بنَشْرِهِ ونظامِهِ

فـي (طيـب) عليـه السـلام، وَفيـه عمـلا التسميـة والتخصيـص والتَنصيص[3].

قَسَمًا بطُرَّتِهِ ولَحْظِ جَمَالِهِ ويدِ حَبَتْ مُضْنَاه كُشْفُ سقامِهِ

في (سعيد) عليه السلام، وفيه عمل الاستعارة والترادف والتخصيص والتنصيص[4].

إنَّ المحب فُؤادُهُ يأسو على أمَدٍ مَضَى لَهْوًا كَطَيفِ مَنامِهِ

---

(١) التخصيص والتنصيص: ذكر الحروف المطلوبة والتصرف فيها بنوع من أنواع التصرفات المقبولة. وقد حصل هذا هنا في قوله: (نون) فإذا أضيفت إلى قوله: (بـي) كان الناتج: (نبـي).

(٢) (نهاية الأوطار) تعني حرف الراء، بعمل الانتقاد؛ لأن نهاية كلمة الأوطار هي حرف الراء، وسائر الكلمة مذكور بنصه في قوله: (السول) فالناتج: (رسول).

(٣) التسمية في قوله: (يا) والتخصيص والتنصيص في قوله: (طب) والناتج: (طيب).

(٤) (الطرة) هي حرف (س) بعمل الاستعارة، و (اللحظ) هو (ع) بعمل الترادف، و (يد) تضاف كما هي بعمل التخصيص والتنصيص فيكون الناتج: (سعيد).

في (حامد) عليه السلام، وفيه عملا الانتقاد والتخصيص والتنصيص[1].

يا قَلْبُ سُدْ بولاءِ أشْرفِ مُرْسَلٍ يَحْلُو به للمَرْءِ فَرْطُ هُيامِهِ

في (سيد) عليه السلام، وفيه عملا التسمية والتَّخصيص والتنصيص[2].

في حُبِّهِ طابَ التذلُّلُ والأسى فَارْدُدْ قِياسَ العَقْلِ في استعظامِهِ

في (سائق) عليه السلام، وهو ظاهر لمن كان له قلب[3].

هو غاية القُصَّاد أسرعُ مَنْ دُعي لا سِرَّ إلاَّ في اللَّجا ودَوامِهِ

في (داع) عليه السلام، وفيه عملا الانتقاد والإسقاط[4] المومى إليه بقوله: (لا سرّ).

مَبْدا الحقائق مُنتهاها مَنْ بدا كُلّ الخلائق مِنْ ندى إنعامه

---

(١) الانتقاد في قوله: (المحب فؤاده) فقد أشار إلى وسط كلمة (محب) بقوله: (فؤاده)، وهو حرف (ح). ثم أضيف إلى كلمة (أمد) بتمامها بعمل التخصيص والتنصيص، فحذفت الهمزة، فكان الناتج: (حامد).

(٢) التسمية في قوله: (يا) أراد حرف (ي)، والتخصيص والتنصيص في قوله: (سد)، والناتج: (سيد).

(٣) لأن التعمية هنا بعمل القلب، أي قلب الكلمة بذكر عكسها وهي كلمة (قياس) وقد أشار إلى ذلك قوله: (فاردد) والناتج: (سائق).

(٤) الانتقاد من كلمة (دعي) إذ أخذ منها حرفي (دع)، والإسقاط من كلمة (لا) إذ أسقط حرف اللام فبقي (ا)، والناتج: (داعٍ).

في (حق) عليه السلام، واستخراجه بعمل الانتقاد غير خفي على أرباب النظر والانتقاد[1].

وَجْهُ الحياءِ، وفيُّ عَهْدٍ، خِلُّهُ الرّحـــمــنُ، جبــرائيــلُ مِــنْ خُــدَّامِــهِ

في (حفي) عليه السلام، وفيه عملا الانتقاد والتحليل[2].

مَــنْ أمَّ ســاحَتَــهُ علــى فَــوْرٍ لَيَنْــقَلِبَــنَّ مَغْبــوطًــا مــدى أيــامِــهِ

في (رؤوف) على السلام، واستخراجه بعمل القلب[3]، ولا تخفى الهمزة بعد ثبوت مركزها.

مَــوْلايَ يــا مَــنْ فيــه هَيَّــمَ عــاشقيـــهِ فمــا لَــواهُــمْ عــاذلٌ بمــلامِــهِ

في (مهيمن) عليه السلام، وفيه عمل التخصيص والتنصيص[4].

أدْعُوكَ رَبِّ بجاهِهِ السامي ومَنْ هــو ذو تُقــى[5] يحَمْيـهِ مِـنْ آثـامِـهِ

في (منتقى) عليه السلام، وفيه العمل المتقدم، وقلّ أن يخلو منهُ بيت.

---

(١) لأن (مبدا الحقائق) يشير إلى حرفي (ح ق) في بداية كلمة الحقائق، وهما اللذان يُشكّلان الناتج: (حق).

(٢) الانتقاد في كلمة (وجه الحياء) إذ يخرج منها حرف (ح). والتحليل من كلمة (وفيّ) إذا أراد جُزءها الثاني وهو (ف ي)، والناتج: (حفي).

(٣) وهو في كلمة (فور) وعكسها (روف) والهمزة توضع كما أشار المؤلف فيكون الناتج: (رؤوف).

(٤) من قوله: (من فيه هيم)، ففيه نص على الحروف المطلوبة.

(٥) أراد التخصيص والتنصيص، وهو في قوله: (من هو ذو تقى).

بالذِّكر أجر فمي[1]، وذَكِّر باطني بـالحـقِّ عنـد المـوتِ لاستسـلامِـهِ

فـي (مـذكّـر) عليـه السـلام، وفيـه عمـلا الاستعـارة والتخصيـص والتنصيص.

وصَلاةُ ربِّـي والسلامُ لخاتم[2] ولـهُ ثَنـاءٌ فـاحَ مِسْـكُ خِتَـامـه

في (محمد) عليه السلام، وفيه عملا الاشتراك والترادف.

والحمد لله في البدء والختَام.

❋ ❋ ❋

---

(١) الاستعارة في قوله: (فمي) إذ يعني حرف (م)، والتخصيص والتنصيص في قوله: (ذكر)، والناتج: (مذكر).

(٢) لعله أراد أن (الخاتم) مرادف لاسم (محمد) ﷺ، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

❋ تم الفراغ من هذه التعليقات ظهر الأحد ٢ ربيع الأول ١٤٢١هـ الموافق لـ ٤ حزيران ٢٠٠٠م في مكتبة كلية الآداب بجامعة الكويت ــ حرسها الله وأهلها ــ وقد اقتصرت في الاعتماد فيها على كتاب: (كتب الألغاز والأحاجي اللغوية) لأحمد محمد الشيخ؛ لبعدي عن مكتبتي التي تضم من نفائس هذا العلم الشيء الكثير ولله الحمد، وقد وفقني الله لإخراج موسوعة فيه بعنوان «علم التعمية أو استخراج المعمى عند العرب» بمشاركة د. محمد مرياتي، و د. يحيى مير عَلَم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الكويت ٢ ربيع الأول ١٤٢١هـ

٤ حـزيـران ٢٠٠٠م

د. محمد حسان الطيّان

المفاخرات والمناظرات

(٤)

نضرة البهار
في محاورة الليل والنهار

تأليف

الشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي

(١٢٦٣هـ - ١٣٣٠هـ)

عُني بها

الدكتور محمد حسان الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

قال مؤلِّفها بلَّغهُ اللَّهُ المنى والأرب[1]: هذه أولُ مقامةٍ أنشأتها في فن الأدب.

بَيْدَ أني أمعنتُ النظرَ ثانيًا في تحريرها، وأعملتُ الفكر في توشيحها بطرائف الظرائف وتحبيرِها. ثم عزَّزتها بمقامات فائقة، ومقالاتٍ رائعةٍ رائقة. منها: «أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والإقامة». ومنها: «غريبُ الأنباء في مُناظرة الأرض والسماء». ومنها: «المقامةُ اللغزية والمقالةُ الأدبية». وقد تخلّصتُ في جميعها إلى مدح السيد السند السرِيّ، العارفِ بالله تعالى الأمير عبد القادر الحسنيّ الجزائريّ.

وسببُ تأليفي لهذه المقامة المصونة، مُبَشِّرَةٌ وقعتْ لي في ليلةٍ مباركةٍ ميمونة. وهي أني رأيت الأميرَ المشارَ إليه، قد أمرني أن أنظمَ قصيدةً في الثناء عليه. ثم أتحفني بجائزة فاخرة، وهديةٍ وافيةٍ وافرة. وأبدى لي من لطائف الأشائر، ما يتضمنُ بحمد الله أعظم البشائر. فانتبهتُ وقد ثملتُ أنسًا ومرَحًا، وملتُ من هذه الرؤيا طربًا وفرحًا.

---

(١) طُبعت هذه المحاورة في المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٣١١هـ.

وأُلهمتُ أن أقدِّم بين يديَّ تلك القصيدة، محاورةً تحتوي على حِكَمٍ لطيفةٍ وأمثالٍ مفيدة. وحين مثلتُ بين يديه، وتلوتها أمام جملة من الفضلاء لديه. وصلني بتوجهاته[1] الفخيمة ودعواته العظيمة، وأمدَّني بمديد مِنَنه ووافر مِنَحه العميمة؛ فانقلبتُ فائزًا بحسن القبول، حائزًا غاية المنى ونهايةَ المأمول.

محمد بن محمد المبارك
الجزائري

(١) كذا في الأصل، ولعل الأشبه بالصواب: «توجيهاته».

نضرة البهار في محاورة الليل والنهار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أطلع الشمس ضياءً والقمر نورًا، و ﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]. والصلاة والسلام على من عَنت لمجده الأملاك، وعنته الحَضرةُ في خطابِ: «لولاكَ لولاكَ لما خلقتُ الأفلاك»، وعلى آله الوارثين منه أسمى السجايا والمآثر، وأصحابه الآخذين عنه أسنى المزايا والمفاخر. ما تعاقب الصباحُ والمساء، وتناوب الظلامُ والضياء.

وبعد:

فإني نظرتُ ذاتَ يوم في اختلاف الليل والنهار، وما أودع الله في ساعاتها من دقائق الحكم والأسرار. وأصغيت لما يترجمه لسانُ الحال، لأسند ذلك إليه دون انتحال. فرويت عنه من حديثهما بدائع وغرائب، وقد قيل: «إن في الليلِ والنهارِ عجائبَ»:

[من مخلّع البسيط]

مَنْ لم يؤدِّبْهُ والداهُ ... أدَّبَهُ الليلُ والنَّهارُ

وصغت تلك المعاني، في مقامة رقيقة المباني. ذات نثر فائق، ونظم بديع رائق: [رجز]

تكادُ من عُذوبة الألفاظِ ... تشربُها مسامعُ الحفَّاظِ

قد أبرزتها في مِعرض المحاورة، لتجنح إليها أرباب المحاضرة، وأودعتها غررًا من بنات الأفكار، ودررًا تزهو على البنات الأبكار:

[من الخفيف]

كلمـاتٌ لـو أنَّ للـدهـرِ سمعًـا مـالَ مـن لطفِهـا إلـى الإصغـاءِ

فهي مقامةٌ لطيفة تغني عن مقامات البديع، ومقالةٌ ظريفة تحتوي على بديع المحاسن ومحاسن البديع. بل فُكاهة أحلى من عيش الصِّبا، ونَفْثة أرقُّ من نفحة نسيم الصَّبا. أخلصتُ في حسن تخلُّصها لمدح أمير المغرب، وضمنتها معنى «المرقص والمطرب» فهي «عنقاء مُغرِب»[1]. وسميتها: **«نضرةَ البَهار[2] في محاورة الليل والنهار»**.

وذلك أنه أبدى السنا والدجى ما هو للأذن قرْطٌ وللعين قُرَّة، فكلما أسفر ذاك عن بياض الغُرَّة قابله هذا بسواد الطُّرَّة. ثم صار الهزل جِدًّا، واشتـدَّ النـزاع بينهمـا جِـدًّا. استنجـد كـلٌّ منهمـا أميـره، وأفشـى لـه سـرّه وضميره.

* * *

وإذا بالليل حمل على النهار، فصبغ حمرةَ وردته بصفرةِ البَهار. وخطر يجرُّ ذيولَ تيهه وعجبه، مرصِّعًا تيجان مَفاخره بدرر شُهبه. وقد كساه بدر الكمال بردَ الجمال، ولوائحُ المهابة والجلال تلوح عليه في ذلك المجال. فصدّر النقول بأحاسن رواياته، وحيّر العقول بمحاسن كناياته.

---

(١) طائر متوهم يضرب مثلاً للأمر النادر. وفي أمثالهم: «أعزّ من عنقاء مغرب». معجم الأمثال العربية (٣/ ٢٢٩).

(٢) البَهار: كل شيء حسن منير، وهو اسم نبات طيِّب الريح.

ثـم قـال: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليـل: ١]، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٦]. ففتح باب المناقشة في هذا الفصل، وعقد أسباب المنافسة بقوله الفصل: [من الوافر]

«فـإنَّ الحـربَ أولُهـا كـلامُ»

ثم تنجلي عن قتيل أو أسير كلام.

* * *

ولما بلغ الليل غايتَه، بزغ الفجر ورفع رايته. وقال إذ جال في معترك المنايا: [من الوافر]

«أنـا ابـنُ جَـلاّ وطـلاّعُ الثنـايـا»

فتقـدَّم في ذلك الميـدان وجلّى، تالـيًا قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ٢].

ثـم استـوى على عـرش السنـا والسنـاء، وأطلـع شموس طلعته في الأرض والسماء. فأعرب عن غوامض الرقائق والحقائق، وأغرب في نشر ما انطوى من الأسرار والدقائق. بعبارة تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وبراعة ترتشف مـن سُلافتها القلوب لسلاستها. فللّه دره مـا أفصحه مـن تَرجُمان، قد جلا من نقود معارفه ما أزرى بعقود الجُمان. وما انحدر من منبره، حتى أيَّد دعوى خبره بشاهد مَخبره.

* * *

فانتـدب إليه الليـل، ومال عليه كـلَّ الميل. وجَعَل نجوم النَّيِّرات له رجومًا، ومـا غادر منه أطـلالاً ولا رسومًا. ولمّـا طرَّز البـدر بُرد الـدجى،

ورصَّع إكليله بزُهر العلا فاستهوى الحِجا[1]. قال:

أحمدُ من جعلني خَلوةً للأحباب، وجلْوةً لعرائس[2] العرفان ونفائس الآداب. وخلقني مثوًى لراحة العِبَاد، ومأوًى لخاصَّة النُّسَّاك والعبَّاد، ولله درُّ من قال فأجاد: [من الخفيف]

أيُّها الليلُ طُل بغيرِ جُناحِ   ليسَ للعينِ راحةٌ في الصَّباحِ
كيف لا أُبغض الصَّباحَ وفيهِ   بانَ عنِّي نورُ الوجوهِ الصِّباحِ

أتردَّد على أرباب المجاهدة بفنون الغرائب، وأتودَّد إلى أصحاب المشاهدة بعيون الرغائب. تدور في ساحتهم بدور الحسن والبهاء، وتُدار من راحتهم كؤوس الأنس والهناء. فتُحْيِيهم نغمات السمر، وتُحَيِّيهم نسمات السحر. فأحيانُ وصلي بالتهاني مقمرة، وأفنان فضلي بالأماني مثمرة. وحسبي كرامةً أني للنّاس خيرُ لباس، أقيهم بلطف الإيناس من كل باس. ومن واصل الإدلاج وهجر طِيب الكَرى؛ قيل له: (عند الصباحِ يَحمَدُ القومُ السُّرى)[3]: [من الطويل]

وما الليلُ إلاَّ للمُجدِّ مَطِيَّةٌ   ومَيدانُ سبقٍ فاستبقْ تبلغِ المنى

ففتَن بمعاني بيانه البديع، وتفنَّن في أفانين التصريع والترصيع. ثم أتمَّ خطبته بالتماس المغفرة والعفو، واستعاذ بالله من دواهي الغفلة ودواعي اللهو.

* * *

---

(١) الزُّهر: النجوم، والحجا: العقول.

(٢) جُليت العروس على بعلها جِلْوةً: عُرضت عليه مجلُوَّةً.

(٣) من أمثالهم، يضرب للرجل يحتمل المشقَّة رجاء الراحة، مجمع الأمثال (٢/ ٣).

فوثب إليه النهار، وصال عليه صولة ملك قهّار. وصعد على منبره ثانيًا، وقد أضحى التيه لِعَطفه ثانيًا. فأثنى على من جلّى عنه ظلمة الحجاب، وتجلّى له باسمه النور وتوّجه بسورة من الكتاب. وزانه بأبهى سراج وهّاج، فأوضح بسناه السبيل والمنهاج. ثم صاح:

أيها الليل، هلاَّ قصَّرتَ من إعجابك الذيل؟ ولئن دارت رحى الحرب، واستعرت نار الطعن والضرب. فلأَسبيَنَّ مخدَّراتك وهي عن الوجوه حاسرة، وأنت تتلو يومئذٍ: ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات: ١٢].

فما دعاك إلى حَلبة المفاضلة، وما دهاك حتى عرَّضت بنفسك للمناضلة؟ وهل دأبك إلاَّ الخداعُ والمكر، وترقُّبُ الفرصةَ وأنت داخلَ الوكر؟ أما حضّ القرآنُ على التعوذ برب الفلق وندب، ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾؟ [الفلق: ٢، ٣].

فبربّي يُستعاذ من شرِّك، ويُستعان على صنوف صروف غدرك. وهب أنك تجمع المحبَّ بالحبيب، إذا جار عليه الهوى وحار الطبيب. فكم يقاسي منك في هاجرة الهجر، ويئنُّ أنين الثكلى حتى مطلع الفجر!:

[من الطويل]

يبيتُ كما باتَ السليمُ مسهّدًا وفي قلبِهِ نارٌ يشبُّ لها وقْدُ

فيساهر النجوم، ويساور الوُجوم. وقد هاجت لواعجُ غرامه، وتحركت سواكنُ وجده وهُيامه. فأنشد، وزفيره يتصعَّد: [من الطويل]

أُقَضِّي نهاري بالحديثِ وبالمنى ويجمعُني والهمَّ بالليلِ جامعُ

نهاري نهارُ الناسِ حتى إذا بدا ليَ الليل هزَّتْني إليكِ المضاجعُ

على أنَّ العاشق الواله، يشكو منك في جميع أحواله. فكم قطع آناءَك بمواصلة أنينه، مُتململاً من فرط شوقه وحنينه! فلما أن حظي بالوصال، تمثَّل بقول من قال: [من البسيط]

اللَّيلُ إن واصلَتْ كالليل إن هَجَرَتْ   أشكو من الطولِ ما أشكو مِنَ القِصَرِ

ولئن افتخرتَ ببدرك الباهر الباهي، فإنما تُباري ببعض أنواري وتباهي. وهل للبدر عند إشراق الشمس من نور، أو لطلعة حسنه من خدور البطون ظهور؟ ومن ادَّعى أنك تساويني في الفضل والقدر، أو زَعمَ أن الشمس تقتبس من مشكاة البدر؟! ومتى استمدَّت الأصول من الفروع؟ [من الوافر]

«وما أغنى الشموس عن الشموع»؟

فبي تتجلَّى محاسن المظاهر الكونية، وتتحلى بجواهر الأعراض اللونية. وأنَّى يخفى حسني وجمالي على شاهد، أو يفتقرُ فضلي وكمالي إلى شاهد؟ وعرضي عارٍ عن العار، وجميع الحسن من ضيائي مستعار: [من الوافر]

وليسَ يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ   إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

أما كفاك بيّنةً وزادك ذكرى وتبصرة، قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]؟ و ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]؟ وأين منزلُ أهل الغفلة من منزل أهل اليقظة والحضور؟!

وإنْ كنتَ مَغنى الأُنس والأفراح، تفعل بعقول الناس فعل الراح؛ فهل حسبتَ أنَّ السكونَ خيرٌ من الحركة، وقد أجمع العالَم على أن

(الحركة بركة)[1]؟! فإنّ لي بكلّ خطوة حُظوة، وليس لجوادي كبوةٌ ولا لصارمي نَبوة. وإن صرَّحتَ بالذين ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤] معرِّضًا بكل غافل لاه، فلي في كلّ مجالٍ ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]. وأين من احتجب بظلماتٍ بعضها فوق بعض، ممن أضحى ينظر بعين الاعتبار في ملكوت السموات والأرض؟ ألا وإن أولي الألباب رأوا الدنيا دار الأسباب، فلزموا الأدب مع الله باستعمالها وقلوبهم عاكفةٌ على الباب.

وقد أتحفني الله بالصلاةِ الوسطى فأوترَ بها صلواتي، وشرع فيها الإسرار لأسرارٍ اختصَّت بها أهل جَلَواتي. وكفاني شرفًا ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فيا له من شهرٍ أيامه أعياد ومواسم، نفحاتُ أنسه نواسمُ وثغور حسنه بواسم. فمآثري مأثورةٌ في القديم والحديث، ومفاخري منشورةٌ في الكتاب والحدِيث. ومحاسني واضحة لأولي الأبصار، (وهل تخفى الشمسُ في رابعة النهار؟!).

فاكفف عن الجدال وأمسك، ولا تجعل يومك مثل أمسك. وسالم من ليس لك عليه قُدرة، فقد قيل: (ما هلكَ امرؤٌ عرَفَ قدرَهُ). أقول قولي هذا وأستغفر الله من آفة العجب والكبرياء، وأسأله أن يخلص أحوال أسرتي من أوصال التصنع والرِّياء.

* * *

---

(١) من أمثال المولدين. انظر: مجمع الأمثال (١/ ٢٣٠)، ومعجم الأمثال العربية (١/ ٤٣٨).

ولما انهارَ رُكن النهار، ابهارّ الليل[1] وتبرقَع بالاكفهرار[2]. فسدَّ ما بين الخافقين بسواده، وطفق يرمي بسهام جداله في جلاده. وقدّم بين يدي نجواه سورة القدر، آيةً على ما حازه من كمال الرفعة والقدر. وثنّى بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فأشار إلى الحبيب حين تجلَّت له قرَّةُ عينه ليلى.

ثم قال: سحقًا لك أيها النهار، فقد أسَّست بنيانك على شفا جُرفٍ هار. تناضلني ومني كان انسلاخك وظهورك، وتفاضلني وبي أرَّخت أعوامك وشهورك؟! قد أطعتَ هواك في عصياني وعقوقي، وأضعتَ مندوبَ مطالبي وواجب حقوقي! ألم يأنِ لكَ أن تخشع للذكر، فتعترفَ لي برتبة التقديم في الذكر؟ وشتَّان بين المتوكل وصاحب السبب، وكم بين لذة الراحة ومرارة التعب؟ وهل الأعمى سوى المحجوب عن المحبوب؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ﴾ [الحج: ٤٦].

كيف تعيِّرُني بلون السواد، وهل يقبحُ السواد إلاَّ في الفؤاد؟! أم كيف تعيبني بالخداع و«الحربُ خُدعةٌ»[3]؟، وليس الشيءُ في موطنه بغريب ولا بدعة. أما تشهد العوالم من هيبتي حيارى، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾؟ [الحج: ٢]. فكم أرَّقتُ ملوكًا أكاسرة، وأرقتُ دماء أسودٍ كاسرة؟ وكم أوريتُ نار الوغى تحت العَجاج[4]، وقد

---

(١) ابهارَّ الليل: انتصف، أو تراكبت ظلمته. القاموس (بهر).

(٢) شدة الظلمة.

(٣) من أمثالهم، يروى بفتح الخاء وضمّها. مجمع الأمثال (١/ ١٩٧).

(٤) الغبار.

ازْوَرّت اللحاظ واغبرّت الفِجاج[1]؟ فأنا البطل الذي لا يُصطلى بناره، ولا يأخذ منه الموْتورُ بثاره.

وافتخارك علَيَّ بالصَّلاة الوسطى، ليس إنصافًا منك ولا قِسطًا. وهب أنك انفردتَ بتلك الصَّلاة الجليلة، فأين أنت مما أوتيته من الصِّلاتِ الجزيلة؟ ألا وإن أعمالي تزهو أنوارها، وتزكو عند الحق تعالى أسرارها. وهل من نوافلك كانت تلك الفريضة، حتى تطاولتَ عليَّ بدعواك الطويلة العريضة؟! أما كان افتراضُ الصلاة في ليلةِ العروج، فما بالك تدَّعي الارتقاء إلى هذه البروج؟! وما أعجَبتْني قطّ دعوى عريضةٌ، ولو قام في تصديقها ألف شاهد[2].

وأما افتخارك علَيَّ بفضل شهر رمضان، وما نزل فيه من السبع المثاني والقرآن، فهل صحَّ لك صيامه إلاَّ بـي بدءًا وختامًا، وقد تميَّزت عليك بفضيلة إحيائه تهجُّدًا وقيامًا؟! على أني محلُّ النية و «نيةُ المرءِ خيرٌ من عملِهِ»[3]، لأنها بمثابة الروح له وبها يحظى الراجي ببلوغ أمله. هذا وإني أتكفل للصائم بمديد الراحة ووافر الأجر، حتّى يتبيّن له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. وكيف تفتخر بالكتاب المنزَّه في مزاياه عن المشاركة، والله تعالى يقول فيه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾؟ [الدخان: ٣].

---

(١) جمع فجّ وهو الطريق الواسع بين جبلين.

(٢) كذا في الأصل، ولعل في العبارة سقطًا يقيم سجعتها وإن كان معناها قائمًا.

(٣) من الأمثال التي رواها أبو عكرمة الضبـي في كتابه ص ٣٦. معجم الأمثال العربية (٣٢٦/٤).

وقد زعمتَ أنك انفردت بجمع فنون المجد والفضل، ولم تخفْ يوم الفصل ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [المرسلات: ١٤].

هل في مطالع سعودك أشرقت بدورُ العيدين، أم على جناح جُنحِك أُسرِيَ بنور طلعة الكونين، ثم عُرج به عليه السلام إلى منزلةِ قابِ قوْسين؟! وهل في تجليّات أسحارك يقول الربّ: هل من سائل؟ فيناجيه العبد متضرعًا إليه بقلبٍ خاشع ودمعٍ سائل، متوسِّلاً إلى حضرته بأعظم الوسائط لديه وأكرم الوسائل.

وممّا اختصصتُ به من الفضائل والمفاخر، أنه في دولتي وُلدَ سيِّدُ الأوائل والأواخر. وناهيك بليالي شهرِ اللّٰهِ رجب، التي تأكّد فضلُ مبتدئها بالخبر ووجب. وكيف لا؟! وفي طالعها السعيد حملت آمنة، بأكرم نبـيٍّ به أُمَّتُهُ من المخاوف آمنة. فهي فاتحةُ الأوقات الزاهية الزاهرة، وواسطةُ عقدها بحسن خاتمة النبوة الباهرة.

* * *

فطلع النهار طلوعَ الأسد من غابه، وكسر جيوش الدُّجى حين كشَّر عن نابه. وشمَّر للحرب العوان، غير ناكلٍ ولا وان. ناشرًا في الأفق رايته البيضاء، وأسنَّته لامعةٌ بين الخضراء والغبراء. وقال:

والذي كساني حُلل الملاحة، وأطلق لساني بالبلاغة والفصاحة، لأمحوَنَّ سطور الدُّجى من طروس الوجود، ولأثبتنَّ حسن أحوالي في مقامات أهل الشهود. فإني معروفٌ بالوفاءِ وصدق الخبر، موصوفٌ بالصفاءِ الذي لا يشوب صفوَه كدر. كيف يباهيني الليل بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنا أتحدث بنعم الله وهو موسومٌ بكفران

النعم؟! ألستُ مظهرَ الهداية والدلالة، وهو مظهرُ الغوَاية والضلالة؟! فكم أرشدتُ من أضلّه، وأعززتُ من أهانه وأذلّه؟! وكم أظهرتُ منه عيبًا كان غيبًا، فابيضَّت عينه حزنًا ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: ٤]؟ كل ذلك وما تخلّى عن ظلمةِ ظلمه، ولا تحلّى بحلية الإنصاف في نثره ونظمه:

ومَـنْ جَهلَـتْ نفسُـهُ قـدرَهُ رأى غيـرُه منـهُ مـا لا يُـرى

وكيف يزعم هذا العبد الآبق، أنه لسيده في حلبة الشرف سابق، وقد قال الواحد القهَّار: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: ٤٠]؟! متى قام على منابر العلا بنو حام، أو جلس أحدهم في ديوان الفخر بين أبناءِ سام؟! إن هو وايمُ الله إلاّ كافر، وبشموس أنوار الشهادة غير ظافر. لو كان من السعداء لفاز بدار النعيم، ولولا شقاؤه لما شابهَ سوادَ طبقات الجحيم. وماذا يـؤَمِّلـه مـن الجـزاء ويـرجـوه، ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؟! أما درى أن صحيفته سوداء مظلمة، وصحيفتي تُفصح عن نفسٍ مؤمنةٍ بالله مسلمة؟! وأنّى يرقى كتابه إلى علِّيين، وهو من ظلمات الحجاب في سجِّين؟؟.

ثم أقبل عليه، وأنشد مشيرًا إليه: [من السريع]

يـا مُشبهًـا فـي فعلِـهِ لـونَـهُ لـم تعـدُ مـا أوجبَـتِ القِسْمَـهْ
خُلقـك مِـنْ خَلقـك مستخـرَجٌ والظُّلْـمُ مشتـقٌّ مِـنَ الظلمَـهْ

وقال له: كيف تدّعي فوق حالك؟! وأيُّ فضل لمن منظره أسودٌ حالك؟ أما علمتَ أن الظاهر للباطن عنوان، كما أن اللسان عن الجِنان ترجمان؟ فإنَّ الحسن في الجميل، آيةٌ على أنه ربّ الحسنى والجميل،

لقول من لجزيل الإحسان نرجوه: «ابتغوا الخير عند حسان الوجوه»:

[من المنسرح]

لا تسألِ المرءَ عن خلائِقِهِ ... في وجهِهِ شاهدٌ من الخبرِ

فأنا مفتاح خزائن الأرزاق، وبي يُستفتح بابُ الكريم الرزاق. وكَفاني دليلاً على الفضل والكمال: «أنَّ الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال». لقد سمعت أقاويلك التي قدَّمتها بين يديك، وزعمتَ أنّها حجَّةٌ لك وهي حجَّةٌ عليك. ولا جرمَ أن «لسان الجاهل مفتاح حتفه»، وكم من باغٍ قُتِلَ بصارم بغيه وحَيفه. أمّا انسلاخي منك فمن أملح المُلح لي والغرر، وهل يحق لأصناف الأصداف أن تنافس نفائس الدرر؟! أليست «تلدُ الأمةُ ربَّتَها» حرَّة نجيبة، وقد قالوا: (إنَّ الليالي حَبالى، يلِدْنَ كلَّ عجيبةٍ)؟! وأما تقدُّمك عليّ فمن العادة، تقدُّم الخدم بين يدي السادة: [من الكامل]

أوَ ما تَرى أن النبيَّ محمدًا ... فاقَ البريَّةَ وَهْوَ آخرُ مرسَلِ

على أنه «أول ما خلقَ اللّهُ النورَ»، كما ورد عن جابر في خبره المأثور. وأما تحلِّي صفوتك بتجلِّي الحقِّ تعالى في السحر؛ فليس إلاَّ لمن أحيا أحيانك بالمجاهدة والسهر. على أن أوقاتي كلها أسحار، فكم جلوتُ بشموس الأنوار غياهبَ الأستار؟!

وأما زَهْوُكَ(١) بقضية ظهور سيد ولد آدم، الذي هو نتيجة مقدِّمات الكون وزبدة العالم؛ فهل وقع اتفاق الرواة على ذلك، وأنَّى لك هذا وصبح طلعته يمحو سوادَك الحالك؟

(١) زها يزهو زهْوًا وزُهُوًّا: تكبر وأعجب بنفسه.

وأما خبر الإسراء فعنِّي روته الأمَّة، ثم بَلَّغَهُ الشاهدُ للغائب بعد أمَّة[1]. فما لاحت أسراره إلاَّ بمطالعي، ولا زاحت أستاره إلاَّ بطوالعي.

وما أشرتَ إليه من بقية معانيك، التي أضاءت بها في الخافقين نجومُ معاليك؛ فأين أنت من يوم عرفة، الذي عرَّفه بأبهى الخصائص مَن عرَّفه؟ وأين أنت من يوم عاشوراء، الذي يعظم فيه الشكر والصبر على السرَّاء والضرَّاء؟ وناهيك بسمو شأن العيدين، فما أجلَّهما من موسمين سعيدين؟

وكيف تفاخرني بساعةٍ تبدو منك مرَّة في كل عام، ولي في كل أسبوع أمدٌ تمتد فيه موائد الجود والإنعام؟! على أنّ يومه لأشتات الكمالات جامع، يهتز فيه بذكر الله تعالى كل جامع. فيا له من يوم يستجاب فيه الدعاء، ويستجاد الثناء على رب العزة والسناء. ولو تأملتَ ما لي من بديع الأوصاف والشمائل، لما اجترأت على مجاراتي في حلبة الفواضل والفضائل.

هل في معاهدك كانت الصحابة تتلقّى القرآن، وتترقّى في مراتب الإحسان بمشاهدة إنسان عينِ الإنسان؟ أم في مشاهدك وردت وقائع الجهاد، وعُبِدَ اللَّـهُ وحدَه على رؤوس الأشهاد؟ فأخبارُ أخياري سارت بها الركبان، وماست بنسيم رِقَّتها معاطفُ البان. وقدري فوق ما تصفه الألسن، وعندي ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

---

(١) الأمَّة هنا: الحين من الدهر، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨].

فدع عنك قول الزور والمَين، (فقد بيَّنَ[1] الصبحُ لذي عينين).

* * *

ولما أفاض النهار، في حديثٍ يفضح الأزهار، أبدع في كنايته وتلويحه، وأغرب في تعريضه وتصريحه.

فابتدر إليه الليل، وأجلَبَ عليه بالرَّجِلِ والخيل. وامتطى جوادَهُ الأدهم، واعتمَّ بعمامة سواده وتلثَّم. فأنسى بفتَكَاتِهِ عنترة بني عبس، حين أمسى يتوعّد عمارة بالقتل والرمس. ثم نشر في الأفق ذوائبه السود، وعبَسَ وبَسَرَ[2] فأسر بسطوته الأسود، وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٦ ــ ١٨]، لأسبيَنَّ روميَّ النهار، ولأجعلَنَّهُ عِبرةً لذوي الاعتبار. فلقد تزيّا المملوك بزِيِّ الملوك، وادّعى مقام الوصول صاحب السير والسلوك!! أما كفاه ازدرائي وتحقيري، حتى حكم بتضليلي وتكفيري؟! كم أسبلتُ على عوراته ذيل ستري، وهو لا يبالي بهتك أستاري. وكم أودعت مكنون سرِّه في خزانة سري، وهو يبوح بمصون أسراري. أفٍّ له من فاضح، أما يكفيه ما فيه من المفاضح؟: [من الطويل]

أنَمَّ بما استودعتُهُ من زجاجةٍ يُرى الشيءُ فيها ظاهرًا وهْوَ باطنُ

كيف احتجَّ لتقدّمه بحديث جابر، مع أنَّ ما رواه لِكَسْري أعظمُ جابرٍ. فإنه برهن على تقدمي عليه، لو أدرك سرَّ ما أومأ إليه. وعلام جعل السواد على النقص علامة، وهو مشتقٌّ من السؤدد لدى كل علّامة؟ أما درى أني حزت من الكمال الحظَّ الأوفر، حتى تحلّى ببديع وصفي العنبر

---

(١) بيّن الشيء: تبيَّن واتَّضح.

(٢) بَسَرَ: نظر بكراهة شديدة، أو كلح وتغير، قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾.

والمسك الأذفر[1]؟!: [من البسيط]

إن كنتُ عبدًا فنفسي حُرّةٌ كَرَمًا أو أسودَ الخَلْقِ إني أبيضُ الخُلُقِ

وهل يُزري بالخال سوادُه البارع، أو يُغْري بالبَرَص بياضُه الناصع؟ وفي بياض المشيب عِبرةٌ وأيُّ عِبرة، فكم أجرى من الآماق أعظمَ عَبْرَة:

[من الطويل]

لَـهُ منظـرٌ في العيـنِ أبيـضُ ناصـعٌ ولكنَّـهُ فـي القلـبِ أسـودُ أسفـعُ

ومن عاب نعت الشباب وفضَّل وصف الشيب، فقد غاب عن شهود العيب وعَالِمِ الغيب. (فما كلُّ بيضاءَ شحمة، ولا كلُّ حمراءَ لحمة)[2]. هذا وإن السواد حلية أهل الزهد والصلاح، وهل يسترق الأسودَ إلاَّ سُودُ أحداق الملاح؟! بيد أن الحرّ لا يبالي بالجمال الظاهر، وإنما يباهي بالفعل الجميل والقلب الطاهر. فإنّ تفاوت المراتب، بحسب تفاوت المناقب: [من الطويل]

وما الحسنُ في وجهِ الفتى شَرَفٌ لَهُ إذا لـم يكُـنْ فـي فعلِـهِ والخـلائـقِ

ألا وإنّ لي أخـلاقًا، لو مـزج بها البحـر لعذُبَ مـذاقًا. فـإني أكتـم الأسرار، وأعمي عيون الأشرار. وأريح الكرام الكاتبين، وأبيـح الكرامـة للطـالبيـن. وكـم أعـددت لـلأنـس مقـاعـد، وفـي الأمثـال: (ربَّ سـاعٍ لقـاعد)[3]؛ فـإن ظلي ظليـل، ونسيمي عليـلٌ بليـل. تهـدأُ بـي الأنفاس،

---

(١) من أمثالهم، يضرب في موضع التهمة. انظر: مجمع الأمثال (٢/ ٢٨١)، والرواية فيه: ولا كل سوداء تمرة.

(٢) ذفِر الشيء: اشتدت رائحته، ومسك أذفر: أي جيد.

(٣) مجمع الأمثال (١/ ٢٩٩)، ويروى معه: «وآكلٍ غير حامد».

وتسكن الأعضاء والحواس. وتتجلَّى بناتُ الأفكار، وتُجتلى البنات الأبكار. وتمتدُّ من أصناف الإحسان موائد، وتميد من أعطاف الحسان موائد[1]. وهل للنهار مُحيّا كطلعة القمر، أو شَعرٌ كالدجى فللّهِ سواد ذلك الشَّعر. أو مِنطقة كالجوزاء، أو قرطٌ كالثريا ذاتِ السنا والسناء. أو نهرٌ كالمجرَّة فيا له من نهر، تزهو على الزَّهر نجوم رياضه الزُّهر. وأية زَهرةٍ تباهي الزُّهْرة، أم أيةُ قِلادة تضاهي في نظمها النَّثْرة[2]. وماذا أَعَدُّ من شِيَمٍ لا تنتهي عددًا، ولو كان مدادُ البحار السبع لها مَدَدًا.

* *

ولما أنهى مقالَه وملّ مُقامه، شمّر للرحلة أذياله وقوّض خيامه، فتهلَّل وجهُ الصباح، وهلَّل بذكرِ فالق الإِصباح. وازدهاه السرور والابتهاج، كأنه ربُّ السرير والتاج: [مجزوء الرمل]

فكأنَّ الصبحَ لمّا ... لاحَ مِنْ تحتِ الثريّا

مَلِكٌ أقبل في التّا ... جِ يُفَدَّى ويُحيَّا

وبرز إلى المبارزة من بابها، إذ كان من فرسانها وأربابها. فسلبَ الليلَ لباسَه، وأذاقَه شدَّته وباسَه. وقال له: أيها المعجب بنفسه، المغرب في نقشه صحيفة زوره بِنِقْسِه[3]، (ما كلُّ سوداء تمرة، ولا كلُّ صهباءَ

(١) جمع مائدة، وهي اسم فاعل من ماد يميد. أما الموائد الأولى فهي موائد الطعام، وبين الكلمتين جناس لا يخفى.

(٢) النَّثْرة: كوكب في السماء كأنه لَطْخ سحاب حيال كوكبين، تسميه العرب نثرة الأسد، وهي من منازل القمر. اللسان (نثر).

(٣) النِّقْس: المِداد.

خمرة). ألم تعلم أيُّنا أبهى مُحيًّا، وشتَّان ما بين الثرى والثُرَيَّا. أين سوادك من بياضي، وما زُهر نجومك إن تلألأ زَهر رياضي؟! وكم أطلعت بدورًا في مواكب السيّارة[1]، فأضحت تزهو بجمالها على الكواكب السيّارة:

[من الطويل]

إذا ركبُوا زادوا المـواكـبَ بهجـةً ... وإن جلسوا زانوا صدورَ المجالسِ

وهل لكَ مثلُ الغَزالة[2]، التي انفردت في الملاحة لا مَحالة؟! فأنا الذي ضاء صباح الصباحة من محيّاه، وضاع[3] عبير العنبر من نشر أنفاسه وطِيب ريَّاه. ولولاي ما عُرف الحسن والجمال، ولا سعى على وجه الأرض بدر الكمال. ولا تميز الحي من المَيْت، ولا بدا للعِيان سرُّ هذا البيت:

[من الرجز]

ثـلاثـةٌ تجلـو عـن القلـبِ الحَـزَنْ ... الماءُ والخضرةُ والوجهُ الحسَنْ

فبـي تفوح روائح الأزهار، وتلوح لوائح الأنوار. وتقتبس الفوائد، وتلتمس الفرائد. وما لاح جيدي الحالي وجيدك العاطل، إلا تلا لسان الحال: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١]. وقد قدمتَ أنِّي لك فاضح، أو ما علمتَ أنَّ «الحقَّ أبلَجُ» واضح؟ فإني نظرت إليك بنور علاَّم الغيوب، فظهر لي ما بطن في سرك من العيوب. فجعلتُ مطويَّ معايبك كتابًا منشورًا، وصيَّرت منظوم كواكبك هباءً منثورًا. فأنا الناقد البصير، والله الوليّ لي والنصير. وكيف تحاول من لواك عن اتباع هواك، وأنت

---

(١) السيارة: القافلة.

(٢) الغزالة: الشمس.

(٣) ضاع المسك وتضوَّع وتضيّع: تحرك فانتشرت رائحته.

تدعي رتبة الكمال فهلاَّ نَهاك نُهاك[1]؟ : [من الكامل]

ومِن البليَّةِ عذلُ من لا يَرْعَوِي عنْ جهلِهِ وخطابُ من لاَ يَفْهَمُ

وَهَب أني واشٍ بالأسرار نمَّام، أو مرتكبٌ في الأنام جميع الآثام، فلستُ أقودُ المعشوقَ إلى العاشق، فَأسترهما بردائي عن الرقيب والراشق. وقال مشيرًا إلى ذلك، من سلكتَ به هاتيك المسالك: [من السريع]

بِتْنا على حالٍ يسرُّ الهوى وربَّما لا يمكنُ الشرحُ
بوَّابنا الليلُ وقلنا لَهُ إن غبتَ عنّا هجم الصبحُ

* * *

فوجمَ الليل لبراعة تلك العبارة، وبلاغةِ ما لاح له من الرمز والإِشارة. ثم وثب للمقال، كأنّما أُنشِطَ من عِقال[2]، وقال:

(رُبَّ مَلُومٍ لا ذنبَ له)[3]، ومظلومٍ خَيَّبَ الدهر أمله. فإلى متى يسوءني النهار؟ وحتى متى يسومُني عذاب النار؟ طالما أعرته أذنًا صَمَّاء، وعينًا عمياء. وهو لا ينثني عن المقابلة، ولا يرعوي عن المحاربة والمقاتلة. ومن العجبِ أنه عدَّ تحدُّثي بالنعمة إعجابًا، وجعل تصدُّري في ديوان المآثر شيئًا عُجابًا!! وصرَّح بوضعِ أحاديثي وهي متواترة باشتهار، وقد قيل: (كلامُ الليلِ يمحوهُ النهارُ)[4].

---

(١) النُّهى: العقل.

(٢) نشط العقدة: شدها، وأنشطها وانتشطها: مدها حتى انحلت. أساس البلاغة (نشط).

(٣) من أمثالهم، انظر: مجمع الأمثال (١/ ٣٠٥)، ومعجم الأمثال العربية (٤/ ١٣٨).

(٤) من أمثال المولدين، انظر: مجمع الأمثال (٢/ ١٧٢).

ولما لاح ذنب السِّرحان[1] في أفق المشرق، صاح متمثلاً بقوله: (البلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطق)[2]. فقام يعثرُ في ذيله، وقد كفكف واكفَ سيله.

* * *

فما لبث أن تَنَفَّس الصباح، وأظهر من سناه ما أخفى ضوء المصباح. ورفرف بجناحه الأبيض على الدجى، فاقتنصه من وكره بعدما سكن وسجى: [من الخفيف]

فكأنَّ الصباحَ في الأفْقِ بازٍ   والدُّجى بين مخلبيهِ غرابُ

وقال: تبًّا لك أيها الليل، فلقد أوتيت من المَين أوفر نيل. أيُّ حديثٍ لك صحيح وضعته، وأيُّ حقٍّ لك صريح أضعته: [من السريع]

عليكَ بالصدقِ ولو أنَّهُ   أحرقَكَ الصدقُ بنارِ الوعيدْ
وابغِ رضى اللّهِ فأغبى الورى   مَنْ أسخطَ المولى وأرضى العبيدْ

نعم لك في السمر خبرٌ مرفوع، بيد أنه مكروهٌ في السُّنَّة موضوع. قد اشتهرْتَ لكن بأقبح الأوصاف، وعدلتَ لكن عن سبيل العدل والإنصاف. تكتم عن المرء ما يرديه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وفي المثل: (الليلُ أخفى للويلِ)[3]، فما أصعب مراسك قبل افترار سُهيل[4]. وهل يترنم بذكرك إلاَّ غافل، وأنَّى يغترُّ بك

---

(١) السِّرحان: الذئب، وفي حديث الفجر: «كأنه ذنب السِّرحان». اللسان (سرح).

(٢) من أمثالهم، انظر: مجمع الأمثال (١/١٧)، والرواية فيه: «إن البلاء موكل بالمنطق»، وهو ينسب إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه.

(٣) من أمثالهم، انظر: مجمع الأمثال (١/٢٥٥)، ومعجم الأمثال العربية (٤/٤٤٨).

(٤) نجم مشهور.

عاقل ونجمُك آفل؟! وكيف تفتخر عليَّ، وأنت تفتقر إليَّ؟ طالما أيقظتُ من أغفلتَه، وأطلقتُ من قيَّدتَه وأعللتَه. وبيّضتُ ما سوَّدتَه من الصحائف، وبينتُ ما أخفيتَه من اللطائف. فقابلتَ الإحسانَ بالكفران، وعادلتَ العدلَ بالعدوان. فراقبِ الحقَّ في سرِّك وعلانيتِك، فإنه سبحانه مطَّلع على نيّتِك.

* * *

ولما سلب النهار بأساليب بيانه العقول، سكت الليل مَليًّا ثم أنشأ يقول: [من الطويل]

فعينُ الرضى عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ كما أنَّ عَينَ السخطِ تُبدي المساويا

كيف أتصدَّى للكذب، وأتردَّى باللهو واللعب؟ وأنا المنعوت باللطف والظَّرْف، والموسوم بالصمت وغضِّ الطَّرْف. كيف أورِث الغرور، وأوثرُ الغفلة على الحضور؟ وأنا الداعي إلى ذكر الله وحده، والساعي في ردِّ الكثرة الوهمية إلى عين الوَحدة. كيف أكْفُر بالعشير، ولو لم يقابل بالعشير؟ وأنا الموصوف بالستر الجميل، والمعروف بشكر المعروف والجميل؟ وهل أحجُبُ البصر عن شهود عالم الكثافة، إلاَّ لأكشف لعين البصيرة عن عالم اللطافة؟ وبذلك يتحقّق العبد بفنائه عن وجوده، فيمدُّه الربُّ تعالى بسرِّ بقائه من خزائن جوده. فلو راعى النهار حقوق المجاورة، لما راعني بأسنَّة المناظرة والمحاورة.

* * *

وما نَمَّ بسرِّه وباح، حتى بان محيّا الصباح. فحمل على عسكر الدجى بعموده، فنثر من دُرر دراريهِ نظيم عقوده. ثم لاح في وجه الشرق

حاجب الشمس، فاستنقذ ما استرقه لِصُّ الليل من الحواسِّ الخمس. فكأنّه جذوة نار، أو قطعة من دينار: [من المتقارب]

تـرى الأرضَ منـهُ وقـد فُضِّضَـتْ ولـــونَ السمـــاءِ وقـــد ذُهِّبَـــا

ثم قال النهار لليل، وقد هجم عليهِ هجومَ السيل:

أيّهـا المـدّعـي مقـام الدعـوة إلى الله، وهـو في حـال الغفلـة عـن مـولاه لاه. كيـف تسنَّمـتَ ذروة هـذا المنبـر، كـأنـك تكتـب بـالمسـك وتختـم بالعنبـر؟ لقـد أطلت فيمـا (لا طائـلَ تحتـه) ولا معنـى، فكـم ذا (أسمـع جَعْجَعْـةً ولا أرى طِحنًـا)[1]. فلـو كنت ممـن انتخب غُـرر الشِّيْم وانتـقـى، لاتَّعـظـتَ بقـولـه تعـالـى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. فتنبَّـه من غفلتك أيها الليل، قبل أن تدعو بالثبور والويل. وإلاَّ فرَّقتُ طلائعَ سوادك أيَّ تفـريق، ومزقتُ سوابـغَ ظلامك أيَّ تمـزيق. (فما كلُّ مرَّة، تسلمُ الجرَّة).

* * *

فـاسـودَّ وجـه الليـل، وانقلـب بحشَـفٍ[2] وسـوء كَيـل. ونـدِم على مناضلة النهار، ندامة الفرزدق حين فارق النَّوار[3]. (ولما سُقط في يدِهِ)،

---

(١) من أمثالهم، يضرب لمن يعد ولا يفي، انظر: مجمع الأمثال (١/ ١٦٠)، والرواية فيه: «جعجعةً ولا أرىٰ طِحنًا».

(٢) الحشَـف أردأ التمـر، ومـن أمثـالـهـم: «أحشَفًـا وسـوءَ كِيلـة» مجمـع الأمثـال (١/ ٢٠٧).

(٣) النوار زوجة الفرزدق، وقد طلقها فندم على ذلك وقال:

نـــدمـــتُ نـــدامـــةَ الكَسَعـــي لمـــا غـــدتْ منـــي مطلقـــةً نـــوارُ

ورُزىء في عَدِه وعُدده؛ تَرَدَّى بالسواد، ولبس ثياب الحداد. ثم لاح هلاله للعين، كَمِنْجَل صيغَ من لُجَين[1]، فأنشد وقد أرَّقه البين:

[من السريع]

انظُرْ إلى حسنِ هلالٍ بدا ... يجلو سَنا طلعتِه الحِنْدِسا

كمنجلٍ قد صِيغَ من فضَّةٍ ... يحصُدُ من زهرِ الدُّجى نَرجِسا

وقال: من ينصفني من هذا الجائر، وينصِتُ لي فأبثَّه شكوَى الواله الحائر؟؟ قسمًا بالحجر الأسود العظيم المبرَّة، وكل أشعث أَغبرَ لو أقسم على الله لأبَرَّه، ما أضمرتُ للنهار شرًّا، ولا أذَعتُ له سرًّا. فحتّام أعاني حدَّ الظُّبا، (وقد بلغَ السيلُ الزّبى)[2]؟! ولله در المعنّى، حيث قال في هذا المعنى:

[من البسيط]

وكنتُ كالمتمنِّي أن يرى فَلَقًا ... من الصباح فلما أن رآهُ عَمِي

* * *

فانتبه طَرْف النهار، وازدَهَر سراجه أيَّ ازدهار. وشَرَعَ يتلو سورة النور بكمال الابتهاج، والشمس ترقمُ آية جماله بالذهب الوَهّاج. وقابل الصبحُ جنح الليل فارتسمت سطورُه البيض في ألواحِ السود، ثم قال:

أيها الليل البهيم: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَـدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، كيف تدَّعي أنك مظلوم، وتشتكي من جوري وأنت الظَّلوم؟ وهب أني قاتلتُك ظلمًا فأنت البادي، وهل قابلتك إلاَّ بما واجهتني بهِ في المبادي؟

---

(١) اللُّجين: الفضة.

(٢) من أمثالهم، يضرب لما جاوز الحدّ. مجمع الأمثال (١/ ٩١).

وها أنا برهنت على فضلي بشهودٍ عدُول، ليس للمنصف عن تزكية شهادتهم عدُول. فاستقِلّ من دعوى المجد والفخر، فقد ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]. ووضح الفجر.

وإن أبيت سُلُوك مَحَجَّتي، ولم تتضح لك أدِلَّةُ حجَّتي، فهلمَّ إلى حضرة الأمير، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

* * *

فأنكر الليلُ زعمَه التفرُّدَ بالفضل وادّعاءه، وأجاب في عَرْضِ أمرهما على الأمير دُعاءَه، وقال: (على الخبير سقَطْتَ)[١]، (وعندَ ابنِ بَجْدَتِها حطَطْتَ)[٢]، فإنَّه الحاكم العادل، والعالم العامل.

* * *

فأمليا عليهِ جميع الواقعة والمجادلة، وما جرى لهما في المفاضلة من المناضلة. وسألاه أن يكون بينهما حَكَما، ويوليهما من لطائف مواقفه حِكَما.

* * *

فقام في ذلك المقام خطيبًا، وقال مُلَبّيًا دعوتهما ومجيبًا:

حمدًا لمن أعطى كلَّ شيء خلقَهُ ثم هداه، وأسداه من جزيل نعمه وجميل كرمه ما أسداه. وصلاةً وسلامًا على إمام الأصفياء الأطهار،

---

(١) من أمثالهم، يضرب لمن يظفر بمن يلبِّي طَلِبَتَهُ، انظر: مجمع الأمثال (٢/ ٢٤).

(٢) يقال: عنده بجدة ذاك، أي: علم ذاك، من بجد بالمكان إذا أقام به. ومن أمثالهم: «أنا ابن بجدتها» مجمع الأمثال (١/ ٢٢).

المنزل عليه ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [القصص: ٧٣]، وعلى آله وصحبه الذين طلعوا في سماء العُلا شموسًا وبدورًا، فازدان بهم الوجود حسنًا وجمالاً وازداد بهجةً ونورًا.

وبعد: فيا أيها المَلَوَان[1]، أما علمتُما أنكما أخَوَان؟ قد أبرزكما الحقُّ مثالاً لعالم الغيب والشهادة، وضَرَبكما مثلاً معلنًا بوجوب الإقرار له بالشهادة. فلا ينبغي لأحدٍ أن يتجاوز حدَّه ومَداه، فإن لكلٍّ مقامًا معلومًا عند ربِّه لا يتعدّاه. على أنكما في المجد والشرف (رضيعا لِبان)، وفي مضمار العزِّ والفخرِ (فرسا رهان). وأما كونكما ابني ضرتين ظلمة وضياء، فإن الدَّهرَ يجمع بينكما في الانتساب إليه والانتماء. فليشدّ كلٌّ منكما عضُدَه بأخيه، وليحذر من تفريطه في حقوقه وتراخيه. وعليكما باطِّراح رِداء الافتخار، فإن العبد لا يسودُ إلاَّ بالافتقار. بارك الله فيكما وبلغكما المَرام، ما سطعَتْ شمسُ الأكوان ولاحَ بدرُ التَّمام.

* * *

ولما أصلح ما بين الليل والنهار، بهر الألباب بعوارف معارفه أيَّ انبهار. فللّه فوائدُ كفرائدِ اللؤلؤ في السِّلْكِ، أو كؤوسٍ ﴿ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦].

وقد قلت مادحًا لحضرته الشريفة، مقتبسًا من مشكاةِ أسراره المنيفة: [من الكامل]

قد أسفرَتْ بين العُذَيْبِ وحاجرِ خَوْدٌ سَبَتْ أهلَ الهوى بمحاجرِ

(١) المَلَوَان: الليل والنهار، قال الشاعر:

نهـار وليـل دائـمٌ مَلَـواهمـا على كـلِّ حـالِ المـرء يختلفـانِ

هيفاءُ طُرَّتُها غدَتْ تحكي دجى ... ليـلٍ وغُـرَّتُهـا كصبـحٍ زاهـرِ
لمَّـا بَـدَتْ تختـالُ تيهًـا خلتُهـا ... بـدرًا علـى غصـنٍ رطيـبٍ نـاضرِ
فجلَـتْ بيـاقـوتِ المبـاسـمِ لـؤلـؤًا ... أجـريـتُ منـهُ عقيـقَ دمـعٍ هـامـرِ
أسَرَتْ فؤادي في الغرامِ وأطلَقَتْ ... دمعي ومالي في الهوى مِن ناصرِ
ضنَّتْ بحسـنِ وصـالِهـا يـا ليتَهـا ... منَّـت علـيَّ ولـو بطيـفٍ زائـرِ
أنَّى يشـاهد طَـرَفُ صـبٍّ مـا درى ... طعمَ الكرى طيفَ الغزالِ النافرِ
يـا عاذلي كُـنْ عاذري فـالوجـدُ فـي ... حكمِ الهوى تاللَّـهِ أعظمُ جائرِ
لـو أبصـرَتْ عينـاكَ منيـةَ خاطـري ... يـومًـا لكنـتَ بهـا أجَـلَّ مخـاطـرِ
هيهـاتَ يصحـو مـن سُـلافـةِ حبِّهـا ... يـا صـاحِ صـاحٍ أسكـرَتْ بنـواظـرِ
أرْبَـتْ علـى كـلِّ المـلاحِ لَطـافـةً ... وتفـرَّدت ببـديـعِ حُسْـنٍ بـاهـرِ
كالشمسِ إن سفَرَتْ وغصنِ البانِ إنْ ... خطرَتْ وإن نظرَتْ فأختُ جآذرِ
يصفو بطيبِ وصالِها عيشي كما ... يحلو المديحُ بذكرِ (عبدِ القادرِ)
مولىً حكَتْ أخلاقُهُ في لطفها ... مسرى النّسائمِ في رياضِ أزاهرِ
بزغَتْ ببدرِ كمالِهِ شمسُ العلا ... فـدعـا إلـى نهـجِ النبـيِّ الطـاهـرِ
أكـرِمْ بـهِ بـرًّا غـدا بحـرًا طمـا ... فـي كـلِّ علـمٍ بـاطـنٍ أو ظـاهـرِ
أضحـى بـأسـرار الغيـوبِ محـدِّثًـا ... يُبـدي حقـائقَهـا بلطـفِ أشـائـرِ
فـانظـر (مـواقفَـهُ) وحسبُـكَ أنَّهـا ... تـرْوي صحيـحَ حـديثِـهِ المتـواتـرِ
الله أكبـرُ كَـمْ بهـا مـن آيـةٍ ... قـد أفصحَـتْ عـن كـلِّ معنًى نـادرِ
تِـهْ يـا زمـانُ بـهِ وطـاولْ إن تشـا ... نجـمَ السُّهـى بمنـاقـبٍ ومـآثـرِ
فهـوَ ابـنُ أكـرمِ شـافـعٍ ومشفَّـعٍ ... وأجـلِّ مـذكـورٍ وأشـرفِ ذاكـرِ
قـدْ حـازَ أنـواعَ المعـالـي جملـةً ... بـوراثـةٍ مـن كـابـرٍ عـن كـابـرِ
إن رُمتَـهُ فـي حـلِّ مشكلـةٍ جـلا ... دررَ المعـانـي فـي أرقِّ مظـاهـرِ

وإذا سـألـتَ عـن السمـاحـةِ كفَّـهُ أنبـاكَ عــن قطـرٍ وبحـرٍ زاخـرِ
ولـو اطَّلَعْـتَ عليـهِ في يـومِ الوغى لـرأيـتَ ليثًـا أيَّ ليـثٍ كـاسـرِ
يـا مُفـرَدًا فـي جمـع أشتـاتِ العـلا قـد فُقْـتَ كـلَّ مفـاضـلٍ ومُفـاخـرِ
للَّــهِ دَرُّكَ سيــدًا أوصــافُــهُ عـزَّتْ وجلَّـتْ عـن وجـودِ نظـائـرِ
إن عُـدَّتِ العلمـاءُ فهـو إمـامُهُـمْ ويُـرى لـدى الأُمـراءِ أعظـمَ آمـرِ
إنَّ الكمـالَ بـأسـرِهِ فـي أسـرِهِ فَعُـلاَهُ قـد أزرى بكـلِّ مُنـاظـرِ
سَعِـدَتْ بسيـرةِ فضلِـهِ أوقـاتُـهُ فتقلَّـدَتْ منهـا عقـودَ جـواهـرِ
أيــامُــهُ جُمَــعٌ وأعيــادٌ ليــا ليهـا ليـالـي القَـدرِ ذاتِ بشـائـرِ
مَـنْ أَمَّـهُ فـي حـاجـةٍ يحظـى بـوقْـــتِ إجـابـةٍ ومـديـدِ فضـلٍ وافـرِ
لازالَ بـدرًا فـي سمـاءِ المجـدِ محْـــفـوفًـا بغـرٍّ كـالنُّجـومِ زواهـرِ
يشـدو لسـانُ الحـالِ فيـه مـؤرِّخًـا ثَمِـلَ الـوجـودُ بسـرِّ عبـدِ القـادرِ
٥٧٠ ٥٠ ٢٦٢ ٤١٢

• • •

المفاخرات والمناظرات

(٥)

أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والإقامة

تأليف

الشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي

(١٢٦٣هـ - ١٣٣٠هـ)

عُني بها

الدكتور محمد حسان الطيان

جامعة الكويت - كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية



أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والإقامة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا من أودع في أصداف الأفكار، دُرَرَ المعارف والأسرار. فاستخرجت أيدي القريحة منها نفائسَ هاتيك الفرائد، ونظمتها عقودًا تزدهي بجمالها نحورُ عرائسِ الخرائد. ونستهديك أنمى صِلاتِ الصلاة وتسنيم التسليم، إلى حضرة نبيِّك مظهر الهداية والتعليم، وآله الفائزين منه بحسن القرب والتكليم.

أمَّا بعد: فاعلم أيها الأديب الأريب، والفطن اللبيب. أنِّي أدمنتُ التردُّد على فرقة من أهل الرقة والأدب، فألفيتهم لاقتناص شوارد المعاني ينسلون من كل حَدَب[1] قد نثروا يواقيت المواقيت في عقد الصِّبا، لاقتناء رقيق معانٍ أرقّ من نسيم الصَّبا. فظفروا ببديع الفنون وفنون البديع، وسما قدرهم إلى سماء المجد الرفيع.

فغدوت أجتني من رياض معارفهم العاطرة، أنوارًا زاهرة. وأجتلي من حياض لطائفهم الناضرة، أسرارًا باهرة. وأُشنِّف سمعي بلطيف أحاديثهم التي هي أشهى من العافية إلى العليل، وأحلى من زلال الوصال لدى صَبٍّ تأجَّجت في أحشائه نارُ الغليل.

---

(١) الحَدَب: ما ارتفع وغلظ من الأرض، قال الله تعالى: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

فاقترح عليَّ يومًا صديقٌ لي وكان أذكى وأنْبه، ممَّن أحرز قصباتِ السبْق في تلك الحلْبَة، أن أنشىء مقامة **في المفاخرة بين الغربة والإقامة**[1]. مشتملة على محاضرة لطيفة، ومحاورة ظريفة. فهِبت البروزَ إلى هذا المضمار، دون أن أستعد له بسوابق الأفكار، مخافةً من شامت يمزِّق عرضي بأسِنّة الإنكار. وصرت أُقدِّم رجلاً وأؤخِّر أُخرى متردِّدًا بين التأخُّر والإقدام، ثم بدا لي أن الامتثالَ أولى من الأدب وأحرى فقلت: سعيًا على الرأس لا على الأقدام.

وطفِقتُ أُجيل قِداح الأنظار، وأقدح في ذلك زِنادَ الأفكار. حتى تمكَّنَتْ من انتهاز الفرصة مني يدُ الإمكان. فاختلست هذه اللؤلؤة الفريدة من سمط الفصاحة والبيان. وما ذاك إلَّا أني استجلبت بواسطة الفكرة غريبًا ومقيمًا، واستنطقتُ لسان حالهما فتناظرا كما هو دأبهما حديثًا وقديمًا. وتسابقت خيلهما في تلك الحَلْبَة، هذا ينتصر للإقامة وذاك ينتصر للغربة. وتقابلا في مجال المفاضلة والمفاخرة، وتقاتلا بنصال المفاضلة والمناظرة.

* * *

فأنشأ يقول الغريب: الحمد لله الوليِّ القريب. المنزل في كتابه: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١]، المجزل نواله لمن قام بأداء النفل والفرض. والصَّلاة والسَّلام على من نبأ عن الله بصحيح الأخبار، وعلى آله السادة وصحبه القادة الأخيار.

وبعد: فإنَّ الله تعالى أودع في الغربة أسرارًا عجيبة، وعلومًا غريبة.

---

(١) طُبعت هذه المفاخرة بدمشق سنة ١٢٩٦هـ.

لا يظفر بها إلاّ من كان عليّ الهمّة، يجلو بسنا بصيرته حنادس[1] كلِّ مدلهمّة. [من الطويل]

إذا هـمَّ ألقـى بيـنَ عينيـهِ عَـزْمَـهُ ونكَّبَ عن ذكرِ العواقبِ جانبا
ولـم يستشِرْ فـي رأيـهِ غيـرَ رمحِـهِ ولم يرضَ إلاَّ قائمَ السيفِ صاحبا

وقد امتلأت بطون الكتب والأسفار، بذمٍّ السكون إلى الإقامة ومدح التغرُّب والأسفار. وترجمت ألسنة السُّـنَّـة عن ذلك منوهة بفضل الغربة سرًّا وجهرًا، مع ما ورد فيها عن علماء الأدباء وأدباء العلماء نظمًا ونثرًا. قال ﷺ: «موت الغريب شهادة»، فأعظم بها من منقبةٍ وأكرم بها من شهادة. وقال عليه السلام قولاً سديدًا: «من مات غريبًا مات شهيدًا». وورد عنه: «سافروا تَغنَموا»، «سافروا تَصِحّوا وتُرزقوا».. إلى غير ذلك من الأخبار. وإلى هذا المعنى أومأ بعضهم في قوله وأشار: [من الكامل]

خاطِرْ بنفسِكَ كي تصيبَ غنيمةً إنَّ الجلـوسَ مـع العِيـالِ قبيـحُ

وما أرقّ قول من قال، فأبدع وأجاد في المقال:

[من مجزوء الكامل]

نَقِّـلْ رِكـابَـكَ فـي الفَـلا ودعِ الغـوانـي فـي القصـور
لـولا التنقُّـلُ مـا ارتقـى دُرُّ البحـور إلـى النُّحـور
مـا المـاكثـونَ بـأرضِهـم إلاَّ كسُكَّـانِ القبـور

وقال من حكى في نظمه الباهر، عقود اللآلىء والجواهر:

[من الطويل]

تنقَّـلْ فلَـذَّاتُ الهـوى فـي التنقُّـل وردْ كلَّ صافٍ لا تقفْ عندَ منهلِ

---

(١) الحنادس: جمع حِنْدِس وهو الظلمة.

ففي الأرض أحبابٌ وفيها منازلٌ فلا تبكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
ولا تستمع قولَ امرىءِ القيسِ إنَّهُ مضـلّ ومـن ذا يهتـدي بمضَلّـلِ

وكفاني شاهدًا هجرةُ من نزلَتْ عليه السكينة، من مكة المشرفة إلى المدينة. فلو لم تكن الغربة عند الله أفضلَ من الإقامة، ما اختارها لحبيبه عليه السلام وجعل في غير وطنه مُقامَه. وفي تخفيف الصلاة عنّي وإسقاط الصيام، ما لم تكن لي نيةٌ في طولِ المُقام، إشارة إلى ما استوجَبْتُه بالغربة من علوِّ المنزلة والمقام.

ثمَّ سطا وصال، وأنشد وقال: [من البسيط]

قـالـوا نـراكَ كثيـرَ السَّيـرِ مجتهـدًا في الأرض تنزلُها طورًا وترتحِلُ
فقلتُ لَوْ لَمْ تكنْ في السَّير فائدةٌ ما كانتِ السَّبعُ في الأبراجِ تنتقلُ

* * *

فلمَّـا سمـع المقيـم هـذا المقـال، أعـرب عـن مكنـون سـرّه وقـال: الحمد لله الذي أحلَّ أحباءه دار المقامة، وجعل الاستقامة علامةً على من رفـع لـديـه مقـامَـه. والصَّـلاة والسَّـلام علـى مـن أسكـن أمّتـه مسكـن العـزّ والأمان، وعلى آله وصحبه وتابعيهم مدى الدهورِ والأزمان.

وبعد: فإن الله عزَّ وجل جبل ألباب أرباب الفِطَن، على التعلُّق بحبِّ الوطن. وجعل ذلك من الإيمان، كما ورد في حديث رواه أهل المعرفة والإيقان؛ فهو مثوى العزِّ ومأوى الأمن والراحة، وبه ينال المرء غاية مطلوبه ونهاية مرغوبه ويجد نشاطه وانشراحه. تحنُّ إليه أفئدة الناس، لِما أودع الله فيه من كمال اللطف والإيناس: [من الكامل]

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئْتَ من الهوى مـــا الحـــبُّ إلاَّ للحبيـــبِ الأوَّلِ

كم منزلٍ في الأرضِ يألفُهُ الفتى وحنينُهُ أبدًا لأوَّلِ منزلِ

ولله درُّ من قال من فرسان البيان، سقى الله ثراه صَيِّبَ الرحمة والرضوان: [من الطويل]

بــلادٌ ألفناهــا علــى كــلِّ حــالــةٍ
وقـد يُـؤلـفُ الشـيءُ الـذي ليسَ بـالحَسَنْ
وتُستعــذَب الأرضُ التــي لا هــواؤُهــا
ولا مــاؤُهــا عــذبٌ ولكنَّهــا وَطَــنْ

فالإقامة فيه إذًا من أعظم الفضل والمِنَّة، وكيفَ لا وهي من النعيم الذي أتحف الله به أهل الجنة. كما أن فراقه من أجَلِّ الرزايا، وأكبرِ المِحَن والبلايا؛ يوقع المرء في مصائدِ المصائب، ويلقيه بين أنيابِ النوى والنوائب. ولهذا كان الصبر على الغُربة حميدًا، وقتيلها إن رضِي بقضاء الله شهيدًا. ولكن أين من يقوى على حمل أعباء ما لها من المؤونة، إن لم يتداركه الله منه بكمال اللُّطف والمعونة؟ ويؤيِّد ذلك قولُ من قال، ممن ابتلي بهذا الداء العضال: [من الخفيف]

ليتَ شِعري إلى متى أَتَشَكَّى سَفَرًا ما لَهُ ولو مِتُّ آخِرْ
بَطن ساري الوحوشِ قبري فماأبْـ ـرَحُ في الموتِ والحياةِ مسافِرْ

وليتدبر من كان من أهل العلم والدِّراية، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ . . .﴾ الآية، [النساء: ٦٦]، كيفَ عطف خروجَ القوم من الديار، على قتلهم أنفسهم بيانًا لما في ذلك من ارتكاب الأخطار. وليرتشف من رحيق التحقيق في عَلِّه

ونَهَلِه[1]، بكأس خبر: «السفرُ قطعةٌ من العذاب، فإذا قضى أحدكم نَهْمَتَهُ[2] فليُعَجِّل الرجوع إلى أهله».

وليس في خروج سيِّد الوجود، عن محلِّ منشئِهِ ووطنه المعهود. دليلٌ مُشعِرٌ بفضل الغربة على الإقامة بحال؛ فإنه من جملة الأذى الذي رماه به أهلُ الكفر والضلال. وكيف تكون للعاقل رَغبة في الغربة، وهي مسكن المسكنة والكُربَة. شرابها سراب، وديارُ أهلها خراب. فكم ألقتِ المرءَ في المكاره، فغدا يتمنى الموتَ وهو للحياة كاره: [من الهزج]

وكــــمْ قـــد روَّعَـــتْ قلبًـــا وســـاقَـــتْ نحـــوَهُ حُـــزْنـــا
ومَلَّـــتْ بعـــدَ أن مـــالَـــتْ وأذوتْ بـــالـــرَّدى غُصْنـــا

صاحبُها بين الناس من حقير ذليل، يحتاج من قوَّة نظرِه إلى دليل: [من البسيط]

إنَّ الغريبَ الطويل الذيلِ مُمتَهَنٌ فكيفَ حالُ غريبٍ ما لَهُ قوتُ

قد نبَتْ[3] به ربوعُه وأوطانُه، وبانَتْ عنه أهلُه وأخدانُه. فأمسى يقاسي أنواع الأهوال والشدائد، ليس له على خطوب دهره مساعِفٌ ولا مساعِد. يشكو من حرّ هاجرة الهَجْر، والبين قد قلَّب القلب منه على الجَمْر. هذا وأهلُ الإقامة في جنَّةٍ يتنعَّمون، فهم في ظلالٍ وعيون، وفواكهَ مما يشتهون.

---

(١) النَّهَل: الشرب الأول، والعَلّ: الشرب الثاني أو متابعة الشرب.
(٢) النَّهْمَة: الحاجة.
(٣) من نبا ينبو: لم يستوِ في مكانه المناسب له.

فتلخَّص من هذا أن المقيم في نعيم مقيم، كما أن الغريب في عذاب أليم: [من الوافر]

ولـو فـازَ الغـريـبُ بمُلْكِ كسـرى ونـالَ مـن العُـلا أقصـى مـرادِهْ
لبـاتَ وقلبُـهُ فـي حَـرٍّ نـارِ لتـربـةِ أهلِـهِ وهَـوَا بـلادِهْ

وإن افتخَرَ بالرخصة في الصلاة والصيام، توهُّمًا منه أنه لمزيد الاعتناء بشأنه والإكرام. فهو في ذلك كمن بحث عن حتفه بظِلْفِهِ[1]، وجدع بكفه مارِن[2] أنفِهِ، وقد قيل في المثل: «لسانُ الجاهل مفتاح حتفِهِ»[3]. وذلك أنه لما كان أسيرَ الفتور والملل، كثيرَ القصور والخلل. قاصرًا عن بلوغ رتبة الكمال، منحرف المزاج عن درجة الاعتدال. عامله الحق تعالى على ضعفه بلطفه ورفقِهِ، وأسقط عنه الصوم مع قصر الصلاة في حقِّهِ. وهل ثَمَّ شرفٌ أعظمُ من أن يكلِّف السيدُ عبدَه، ويشغله بحسن القيام بوظائف خدمته مقرَّبًا عنده؟! فإن زيادة التكليف، تدل على كمال التشريف، و «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف». وهذا مما يتبادر إلى الأفهام، المقدَّسة من شائبةِ رِقّ الأوهام.

* * *

فما استتمَّ إيرادَ هذه الجملة، حتى حمل عليه الغريبُ حملةً وأيَّ حملة. وقال له: ويلك لقد تعاليتَ وتغاليت في دعواك، أما تخشى في

(١) الظِّلْف: الظفر المشقوق لكل حيوان مجترّ. ومن أمثالهم «كالباحثة عن حتفها بظِلْفها». انظر: معجم الأمثال العربية (٣/ ٩٣).
(٢) مارن الأنف: طرفه، أو ما لان منه.
(٣) لم أجده.

ذلك من عالمِ سِرِّك ونجواك؟ فإلامَ تتخذني مَرمى همزِك ولمزِك فيما فيه تُفيض، مع أني من العُلا في الأوج وأنت في الحضيض؟! وعلامَ تحقرني، ولا توقرني؟ وتستخِفُّ بأمري، مع عِظَم قدري؟ وحتَّامَ تعاملني بأنواع الصدود والإعراض، وتسعى في تشتيت ما أرومه من المقاصد والأعراض؟ وتعيِّرني بما يتعرَّف به إليَّ مولاي من غُرر المِنَح في صور المِحَن والمصائب، فأقابل منها بدِرْع التجلُّد وتُرْس التصبُّر كل سهمٍ صائب. مع أنه شهادة لي بالفضل والكمال، لو كنتَ ممن يعقل ضرب الأمثال: [من الكامل]

ومـنَ البليَّـةِ عـذلُ مـن لا يَـرعـوي عن جهلِهِ وخطابُ مَنْ لم يفهمِ

أما علمت أن ذلك يدل على المقام الأكمل؛ لحديث: «نحن معاشر الأنبياء أشد بلاءً، الأمثل فالأمثل». فإن معاناة الخاصة لأنواع البلايا، سنَّةُ الله قد خلت في البرايا: [من البسيط]

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أنْتَ آكِلُهُ لَنْ تَبْلغَ المَجدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرا

وما وقع ما وقع لأحدِهم بسببِ اغترابه، ولا بِبُعده عن أهله وأصحابه بعد اقترابه. وهل لغير الله تأثير بحال أو همَّة، في سلب نعمة وجلب نِقمة؟. فاحذر من الوقوع في الغلط، وكن لي على هذا الفضل ممن غبَط. وكيف تستدل لو كنتَ ذا عقل كاملٍ وجنان، على مدح الإقامة بكونها من نعيم أهل الجنان؟ إلَّا أنَّ تلك لدار القرار، وهذه دار التجاءٍ إلى الله فِرار. أم كيف تزعم أنك الآن من النعيم في جَنة، ومن شرر شرور الدنيا في وقاية وجُنّة[1]؟ كلَّا إنَّ هذه دعوى بغير بيِّنة ولا شاهد، لا يقول

(١) الجُنَّة: الوقاية والسترة.

بها من عرف حقيقة هذه المواطن والمعاهد: [من الطويل]

لعمـرُكَ مـا الـدنيـا بـدارِ إقـامـةٍ ولكنَّهـا دارُ انتقـالٍ لمـنْ عقَـلْ
إذا ضحِكَتْ أبكَتْ وإن هِيَ أقبَلَتْ تَـولَّـتْ وإن أعطَـتْ فـأيّـامُهـا دُوَلْ

نعـم ورد أن «الدنيـا سجـنُ المـؤمـن وجنَّـة الكافـر»، فإن كان هذا مُنـاك فأفٍّ لما أنت بـه ظافـر. ولـو نظرت أن الدنيـا قنطـرة نُصِبَتْ للعبور عليها والمجاز؛ لَلاح لك وجهُ الحق في الفرق بين الحقيقة والمجاز. ولطـالت منـك الهمـم وقَصُـرت الآمـال، ومـا سكـن قلبـك إلـى وطـن ولا مال: [من المتقارب]

مجـازٌ حقيقتُهـا فـاعبُـروا ولا تعمُـرُوا هـوِّنـوهـا تَهُـنْ
فمـا حُسْـنُ بيـتٍ لـهُ زخـرُفٌ تـراهُ إذا زُلـزِلَـتْ لَـمْ يَكُـنْ

وأنَّـى للنبيـه أن يطلـب كـل مـا يشتـهـي ويـروم، وقـد جـاء فـي الأثـر: «اخشوشِنـوا فـإنَّ الحـاضرةَ لا تـدوم»[1]. وهـل حسبت أن العلا ينالـه أسيـر الكـرى، أوَ مـا قيـل: «عِنـدَ الصَّبـاحِ يحمَـد القـوم السُّرَى»؟ مـا أراك إلاَّ سكنـت لنسيـم أسحـارك وطيـب أوقاتـك، وكأنـي بـك قـد انقضت مدة ميقاتك. إن هي إلاَّ سحابة صيف، أو طروق طيف، أو زيارة ضيف: [من البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بالأيامِ إذ حَسُنَتْ ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالمتْكَ اللَّيالي فاغترَرْتَ بِها وعندَ صفو الليالي يحدُث الكَدَرُ

---

(١) من أمثال العرب، يضرب للرجل يحتمل المشقَّة رجاء الراحة. مجمع الأمثال (٢/٣).

ولله در من قال، فنظم دُرَّ المقال: [من البسيط]

في جبهةِ الدَّهْر سَطرٌ لو نَظَرْتَ لَهُ أبكاكَ مضمونُهُ من مقلتيكِ دَمَا
احــذَرْ إذا كــانــتِ الأيّــامُ مقبلــةً مَن يأمَنِ الدَّهرَ يومًا قطُّ ما سَلِمَا

واستــدلالــك علــى عــدم تــأهُّلـي لنيـل رتـب الكمـال أصـلاً، بمـا أكرمني الله به من الرخص منَّةً منه وفضلاً. قد تعرَّضت فيه للوعيد الشديد، وإن عددت نفسك من أهل التأويل والرأي السديد. ويلزمك عليه أن تثبت نقصان أجري ببيِّنة صريحة، مع ردِّ ما ورد حاثًّا على سلوك سبيلي من الأحاديث الصحيحة.

وأمَّا استدلالُك بحديث الصَّادق المؤتمن، على مدح حبُّ الوطن. فأقول: أما ما ذهب إليه أهل الإشارة. الفائزون في الدارين بعموم البشارة، فالمراد به: الوطن الأصلي الذي كنَّا فيه في عالم الأرواح، قبل التشكل في هياكل الصور والأشباح. فإن المؤمن لا يزال متعلِّقًا به لبقاء نفسه على طهارتها الأصلية، وإشراف شموس معانيه الروحية، على ظلال مغانيه الجسمية. ودوام تشوُّفه وتشوُّقه إليه لما فيه من رفع الحجاب، ولذَّة الإطـلاق وحـلاوة الخطـاب. وعلـى هـذا المعنـى العجيـب، فمـا ثـمَّ إلاَّ غريب: [من السريع]

للّــهِ أوقــاتٌ تقضَّــتْ لَنــا مــا كــانَ أحــلاهــا وأهنــاهــا
مــرَّتْ فلــمْ يبــقَ لَنــا بعــدَهــا شــيءٌ ســوى أن نتمنَّــاهَــا

وأمَّا إن قلتَ: إن المراد به مسقطُ رأس الإنسان، مدَّعيًا ورود ذلك عن أرباب العلم والعرفان! قلتُ: إن جنح إلى هذا أيضًا أهل المعارف والأسرار، فربما كان دخولهم إلى معنى الحديث من باب «حسنات

الأبرار»[١]. فإنَّ مدح الشيء لا ينافي القدح فيه من جهة أخرى، ورب مِنحةً عند قوم تكون محنة بالنسبة إلى آخرين وكلٌّ يأخذ ما هو به أحرى ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. وذهب كلُّ فريق مذهبَهم.

فدع عنك كثرة القيل والقال، وأرض بالحقِّ غير كارهٍ ولا قالٍ[٢]. قانعًا بالسَّلامة فإنها إحدى الغنيمتين، وإلاَّ انقلبت بصفقة مغبون ورجَعْتَ بخُفَّي حُنين. وندمت حيث لا ينفعك النَّدَم، وأيقنت أن ليس لك معي في هذا الميدان قَدَم.

وإن رمْتَ البيان وقلت: ليس الخبرُ كالعِيان[٣]! فعند الامتحان يُكرم المرءُ أو يُهان[٤]. ثم ترنمَّ منشدًا، وقال مستشهدًا: [من الرمل]

حُبُّكَ الأوطانَ عجزٌ ظاهرٌ   فاغتربْ تَلْقَ عن الأهل بَدَلْ
فبمُكْثِ الماءِ يبقى آسِنًا   وسُرى البدرِ بهِ البدرُ اكتَمَلْ

* * *

وبعد ما فرغ من إنشائه وإنشاده، تصفَّح المقيم ما أبداه مع حسن استشهاده. فأضحى تارةً يحمرّ وجهه خجلاً، وآونةً يصفرّ فَرَقًا ووَجَلاً.

---

(١) يريد: المقولة المشهورة: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».
(٢) القالي: المبغض، من قلى يقلي إذا أبغض، قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.
(٣) من أمثالهم، ويروى: «ليس الخبر كالمعاينة»، قال المفضل: يروى أن رسول الله ﷺ أول من قاله. مجمع الأمثال (٢/ ١٨٢)، وانظر معجم الأمثال العربية (٣/ ٢٦١).
(٤) من أمثالهم، مجمع الأمثال (٢/ ٣٧).

وما كان إلاَّ أقرب من لمح البصر مدى، وأسرع من إجابة الصَّدى للنِّدا. حتى نهض كأنما نشط من عِقال[1]، وجال في مجال البراز والنزال. وطفِق يرشقه بسهام الملام والتأنيب، ويرمقه بطرفه شزرا، قائلاً له: أَعرِض عن هذا أيُّها الغريب ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]. كم تحمَّلتُ ضرّك وأذاك، وتجمَّلتُ بصبري على عَناكَ في بلوغ مناك. حتى رميتني بالكفر والزندقة، فيما تفوَّهْت به من الشَّقْشَقَة واللَّقْلَقَة[2]؛ وبعد هذا تزعم أني جفوتُك آذيتك، مع أني طالما قربتك إلى حضرتي وآويتك. ولو انتهجت المحجة الواضحة والطريقة المثلى، لاعترفت أن اليدَ العليا خيرٌ من اليد السفلى. فعليك بالاتِّصاف بجميل الإنصاف، والتخلّص من شُؤم هذه الأوصاف: [من السريع]

كُنْ منصفًا وٱسلُكْ سبيلَ التُّقى ... فالبغيُ ليلٌ جنحُهُ مظلِمُ
واجتنبِ الظُّلمَ ولا تأتِهِ ... واللّٰهِ لا يفلحُ مَنْ يظلِمُ

وقد أشرتَ إلى بعض أسرار أهل المواجيد والأشواق، ومتى شاركتَهم في الحصول على تلك العلوم والأذواق؟! أراك تخبِط خَبْطَ عشوا، وتجعلُ اللهْوَ في مسارح البطالة هو الغايةَ القصوى. وٱدَّعيت أنك ٱرتويت من عين المِنَح والمِنَن، لتتجرأ بذلك على صرف الحديث عن ظاهره توصّلاً إلى ذمِّ حبِّ الوطن!! وزعمت أنك تركتَه تظرُّفًا وزهدًا، وتجلَّدت على لسع النحل لتجني بالصبر عسلاً وشهدًا!! ما هذا منك إلاَّ

(١) العِقال: الرباط الذي يُعقل به.

(٢) الشَّقْشَقَة: الهَدْر، شقشق الفحمل شقشقة إذا هدر. واللقْلَقَة: شدة الصوت والجلبة.

محضُ افتراء، وتفنّنٌ في فنون أساليب الجدال والمِراء. فهلاَّ صبوتَ[1] في قولك صوبَ الصواب، وتأسَّيت بمن قال من أهل الاغتراب:

[من المنسرح]

أطـالَ بيـنَ الـدِّيـارِ تَـرحـالـي   قصـورُ مـالـي وطـولُ آمـالـي
إنْ بـتُّ فـي بلـدةٍ مشيْـتُ إلـى   أُخـرى فمـا تستقـرُّ أجمـالـي
كـأنَّنـي فكـرةُ المُـوسْـوسِ مـا   تبقـى مـدى سـاعـةٍ علـى حـالِ

وهب أنك من أهل التجلّد والصبر، فأين أنت من مقام الرضى والشكر؟ فشتَّان ما بيني وبينك، فلا تموِّه بزخرفتك زُورَك ومَيْنَك[2]. وهل يتأتَّى أن يترك المرءُ أوطانهَ وأهلَه، ويخلع خِلَعَ عزّه لابسًا للغربة ملابس الفَقْرِ والذِّلَّة؟! إلاَّ لمزعج شديد يبعثُهُ على ذلك رَغْمًا على أنفه، ويقضي عليه مفارقةَ حِبِّه ومباعدة إلْفِه. فيتشتَّت شمله بمن كانوا إلى المنى أدنى الوسائط والوسائل، ويتمثل بقول القائل، ودمعه على الخدود منهملٌ وسائل:

[من البسيط]

لولا الضّروراتُ ما فارقتُكُمْ أبدًا   ولا تنقَّلْـتُ مـن نـاسٍ إلـى نـاسِ

وينشدهم عند الوداع، وغراب البَيْنِ عليه ناعقٌ وناع: [من الوافر]

أودِّعُكُـم وأودِعُكُـم جَنـانـي   وأنثـرُ أدمعًـا مثـلَ الجُمـانِ
فلـو نُعْطَـىٰ الخِيـارَ لمـا افتـرقْنَـا   ولكـنْ لا خِيـارَ مـعَ الـزمـانِ

فيحصُل في الغُربة، على كلِّ ضيق وكُرْبة. يُعاين أنواع التعب

(١) أي: مِلْتَ، من صبا يصبو.
(٢) الزُّور: الكذب والباطل. والمَيْن: الكذب.

والشقاء، ويعاني شِدّة الوحشة بعد أُنْسِ القرب واللقاء. لغتُه تصير من قبيل الشواذ، وربما انتُبِذَتْ في زوايا الإهمال أيَّ انتباذ. وهو مطرود عن الأبواب ممقوت، يقنع بعد الملابس البهيَّة والمآكل الشهيَّة بالسُّتْرة والقوت. إذا مرض لا يُعاد، وإن ماتَ فهو للوحوش زاد. قد سطا عليه الدهر وصال، وجرَّعه مرارةَ النّوى بعد أن ذاق حلاوةَ الوِصال:

[من الكامل]

إنَّ الغريبَ لَهُ مخافةُ سارقٍ ... وخضوعُ مديونٍ وذِلّةُ وامقِ

وإذا تذكّر أهلَهُ وبلادَهُ ... ففؤادُهُ كجناحِ طيرٍ خافقِ

وليت شعري هل تستوي لذَّةُ المنادمة مع الأحبّة بما رقَّ وراق، ولوعةُ من أضحى يتقلّى بنار البُعد والفِراق؟! هيهات هيهات! إن لذة الأنس بالأحباب، لا تقاس بمقاساة ألم البين عند أولي الألباب، بل لا لذةَ في الدنيا سواها، فلا ينبغي أن يخرج من تحت لواها: [من الطويل]

عليكَ بإخوانِ الصَّفاءِ فإنَّهم ... عمادٌ إذا استنجدْتَهم وظهورُ

وإنّ قليلاً ألفُ خِلٍّ وصاحبٍ ... وإنّ عدوًّا واحدًا لكثيرُ

وما أحسن قولَ من قال فأجاد، وأفاد بما شهد له مضمار الأدب بطول النِّجاد: [من الكامل]

ثنتانِ لو بكَتِ الدماءَ عليهما ... عينايَ حتى يؤذنا بذَهابِ

لم يقضيا المعشارَ من حقَّيهما ... فقدُ الشبابِ وفُرْقَةُ الأحبابِ

اللّهم إلاّ إذا ألجأ الأمر إلى ذلك، فيُضطر المرء حينئذٍ إلى سلوك مَضِيقِ تلك المسالك: [من الطويل]

إذا لمْ تكُنْ إلاّ الأسنَّةُ مركبًا ... فما يسعَ المضطرَّ إلاّ ركوبُها

وقال بعضهم يصف حالَهُ عند الوداع، فأبدع في ذلك غاية الإبداع:

[من الطويل]

ولمّــا التقينــا للفِــراق عَشيَّــةً … وطـرفـي وقلبــي دامـعٌ وخَفـوقُ

بكَيتُ فأضحكتُ الوُشاةَ شَماتةً … كـأنِّـي سحـابٌ والـوُشـاةُ بُـروقُ

فأذعِنْ للحقّ أيها الغريب، ولا تك منه في شكٍّ مُريب. فإني بك بصير، ولا ينبِّئُك مثلُ خبير. وهذه بتلك والبادي أظلم، ومن أصرّ على بغيه فنيِّرُ ليلِهِ قد أظلم.

* * *

فحدَّق الغريب عند ذلك وحملَق، ورفع رأسه بعد أن أطرَق. وبدتْ على وجهه علائمُ الغَضَب، وهمَّ أن يُذيقَهُ من البأس كأس العَطَب. ووقف على أقدامِ إقدامه، ناشرًا في حَوْمَةِ ميدانِهِ أعلامَ إعلامه.

فـاشتعلـت بينهمـا نـارُ النـزاعِ والشِّقـاق، وقـامـت حـربُ الجِـلاد[1] والجِدال على ساق. وجال كلٌّ منهما في ذلك المجال وسطا[2] وصالَ بنصال النِّضال.

ثم قال الغريب للمقيم: اعلم يا ذا الذهن العقيم، أن الحُكْمُ على الشيء فرعٌ عن تصوّره فِكْرا، وكيف تحكم على ما لم تُحِطْ به خُبْرًا؟! فإن من جَهل شيئًا عاداه، وفقد التمييز فيه بين ضَلالِه وهُداه. وإني قد عَلِمتُ المشربَيْن، وتفقَّهتُ في المذهَبيْن. فوجدت بينهما بونًا كبيرًا، وفرقًا

(١) الجلاد: الضرب بالسيف في القتال.

(٢) تطاول وصال، والسَّطو: القهر بالبطش.

كثيرًا. وألفيت الغربةَ قد انفردت بكلِّ مَزِيَّة، وغدَتْ لأهلِ اللطف والأدب خيرَ مطيَّة. فكم وكم حصَل في الغربة، من انجلاء الهمّ والكُربَة. وطابت الأوقات، وساغَت الأقوات. وتهذبت أخلاقُ من ليس له في الأدب من خَلاق، وفاز بالغنى من كان يشكو دهرَهُ من الإملاق: [من الكامل]

وإذا عليكَ الرزقُ ضاقَ ببلدةٍ وخشيتَ فيها أن يضيقَ المكسَبُ
فارحَلْ فأرضُ اللّه واسعةُ الفَضَا طولاً وعَرَضًا شرقُها والمغرِبُ

فهي من أعظم الأسباب التي تجلو الضِّيقَ والحَرَج، وتُهدي أرواحَ أدواحِها نَشْرُ البِشْر وأَرَجَ الفَرَج. حسانُ معانيها في خيامِها مقصورة، لا يحظى بها إلاَّ من تَرَكَ قصورَه.

وبالجملة فلا يجنح إلى الأوطان إلاَّ من سكن إلى راحة نفسه، واغترَّ بأُنسِ أوقاته وأوقاتِ أُنسِه. وبعُدَت عليه المسافة وطالت الشُّقَّة، وما درى أن الثواب على قدر المَشَقَّة. وإن بَذْرَ الراحةِ والتوانِ[1]، لا يُنتج إلاَّ ثمارَ المذلّة والهوان. وليته شعر بقول الشاعر، المومي إلى ذلك بألطف الأشائر[2]: [من السريع]

دع الهُوينا وانتصِبْ واكتسِبْ واكدُح فنفسُ المرءِ كدَّاحَةْ
وكُنْ عن الَّراحةِ في مَعزِلٍ فالصفعُ موجودٌ مع الرّاحَةْ

وما دام مشفقًا على تلاف مهجته، ولم يغُصْ في يمِّ الاغتراب ولُجَّتِهِ. فليس يظفر بفرائد الفوائد والمسائل، وإن قيل إن السَّلامة

(١) التوان: التواني وهو التقصير والفتور. حذف الياء للسجع.
(٢) جمع إشارة، ولم أقف عليه فيما يدي من معجمات العربية.

في الساحل: [من البسيط]

حبُّ السلامةِ يثني عزمَ صاحبِهِ عن المعالي ويُغري المرءَ بالكَسَلِ
فإنْ جَنَحتَ إليه فاتّخذْ نَفَقًا في الأرضِ أو سُلَّمًا في الجوِّ فاعتَزِلِ

وأما من كان مطمح نظرِه الرفيق الأعلى، والفريق الطالب من كل كمال نفسه وأغلى. فإنه لا يختار الراحة على التعب، ما دام في دار التكليف والنَّصَب. يقول بلسان حالِهِ، في حالة نزوله وارتحالِهِ:

[من الوافر]

أرومُ من المعالي مُنتهاها ولا أرضى بمنزلةٍ دَنِيَّهْ
فإمَّا نَيْلُ غايةِ ما أرجِّي وإمَّا أن تصادفَني منيَّهْ

يعانق المشاقَّ والأهوال، في كل حال من الأحوال. ويؤثر ما يورِثُ المجدَ والسؤدد، ولو أتلف فيه نفسه وأجهد: [من الخفيف]

وإذا كانتِ النفوسُ كبارًا تعبَتْ في مُرادِها الأجسامُ

فتراه في دهره بين صادر ووارد، قد ورد بسامي همَّته أعذب الموارد، لا تطمئن به دار، وليس له دون مطلوبه قرار: [من البسيط]

يومًا بحزوى ويومًا بالعقيق وبالـ ـعذيبِ يومًا ويومًا بالخليصاء

لا يقيِّده وطنٌ ولا قريب، ولا يلتقي به واش ولا رقيب. بل أينما انشراحُه وانبساطه، أناخ راحلته ومدَّ بساطه. ملقيًا هنالك عصا التسْيار والتَّرْحال، مصغيًا لما غدا يترنَّم به قائلاً لسان الحال: [من البسيط]

ومجلسٍ راقَ من واشٍ يكدِّرُهُ ومِنْ رقيبٍ لَهُ باللَّوم إيلامُ
ما فيهِ ساعٍ سوى الساقي وليسَ بِهِ بين النَّدامى سوى النَّمّامِ نمّامُ

فيشاهدُ العجائبَ والغرائب، ويكسب التجارب ويجلب المكاسب. ويزيده ذلك علمًا بقدرة الله وحكمته، ويدعوه إلى شكر فضله ونعمته. فإن قلت: قد يفوته بذلك إدراكُ العلوم والمعارف، والاطلاع على بديع الأسرار واللطائف! قلت: كلَّا وحاشا إنه الجدير بأن يحصُل منها على الحظِّ الأوفر، كيف لا وقد قال من ضاعَ[1] عَرْفُ[2] معارِفه كالمسك الأذفر: [من الطويل]

تَغَرَّبْ عَنِ الأوطانِ في طَلَبِ العُلا وسَافِرْ فَفِي الأسْفار خَمْسُ فَوائِدِ
تَجَنُّبُ هَمٍّ واكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وعِلْمٌ وآدابٌ وصُحْبَةُ مَاجِدِ

فإنَّ من سلك هذا المسلك من السادة الأبرار، انكشف لهم أسرار العلوم وعلومُ الأسرار. لازموا طول زمانهم السياحة والغُربة، فشربوا من دنِّ[3] الوصلةِ والقربة. غضُّوا أبصارهم عن زُخْرف هذه الدار، لعلمهم أنها ليس لها عند الحبيب مقدار. ثم نظروا إليها بعين التدبُّر والاعتبار، لمعرفتهم أنها موطن ابتلاء واختبار. فهم المنعوتون بأولي الألباب، الذين خرقوا بسوابق هممِهم أسوار الأسباب: [من الكامل]

قومٌ بهم شَرُفُ الزمانُ كلامُهُمْ شَرَكُ العقولُ وعُقلَةُ الأحداقِ
أشخاصُهم فنيَتْ ولكن ذِكْرُهم أبدًا على مرِّ الليالي باقي

وغدوتَ تدَّعي الخصوصية بانتظام شملك بالأصدقاء والأحباب، أَوَما بلغك أنها آيةٌ منسوخٌ حكمها عند أولي الألباب؟! إن ذلك لشيءٌ

(١) ضاع المسلك وتضوّع وتضيّع: تحرك فانتشرت رائحته.
(٢) العَرْف: الرائحة مطلقًا، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها.
(٣) الدَّن: وعاء ضخم للخمر ونحوها.

طُويت صُحُفُهُ وجفَّت أقلامه، وخبَتْ نارُهُ وتنكَّست أعلامُه: [من البسيط]

أينَ الخليلُ الذي يُرضيكَ باطنُهُ مع الخطوبِ كما يرضيكَ ظاهرُهُ

ولعمري إنك لو اطلعت عليهم لولَّيت منهم فِرارًا، ولما وجدت في قلوبهم تعظيمًا لك ولا وَقارًا: [من الطويل]

وزهَّـدنـي فـي النَّـاسِ معـرفتـي بِهِـمْ
وطـولُ اختبـاري صـاحبًـا بعـدَ صـاحـبِ
فلـم تُـرِنـي الأيـام خِـلًّا تسـرُّنـي
مبـاديـهِ إلَّا سـاءَنـي فـي العـواقـبِ

فكم ممَّن يدَّعي المحبة، وما في خزانة سِرّه من بُرّ[1] البرِّ حبَّة. وكم ممن يظهر كمالَ الوِداد، وهو من أعدى الأعداء والحسَّاد: [من البسيط]

كم من صديقٍ غدا يُرضيكَ جانبُهُ لينًـا ولكنَّـهُ فـي اللَسـعِ ثعبـانُ
يَسقيـك ظـاهـرُهُ شَهـدًا وبـاطنُـهُ سُمًّـا ففـي فمِـهِ مـاءٌ ونيـرانُ

وقد قال من حلَّىٰ بدرر غرره جيدَ البلاغة والبيان، وشنَّف بأقراطه الجوهرية منَّا المسامعَ والآذان: [من البسيط]

أعدى عدوِّك أدنى من وثِقْتَ بِهِ فحاذرِ النَّاسَ واصحبْهُم على دَخَلِ[2]
فـإنّمـا رجـلُ الـدنيـا وواحـدُهـا مَنْ لا يعوِّلُ في الدنيا على رجلِ

وما أظرفَ قولَ القائل: [من البسيط]

إيَّـاك تغتـرَّ أو تخـدعْـكَ بـارقـةٌ
مِـنْ ذي خِـداعٍ يُـرِي بشـرًا وأَلطـافـا

---

(١) البُرّ: القمح

(٢) الدَّخَل: الريبة.

فلــو بلــوتَ جميــعَ النــاسِ قــاطبــةً
وسِــرْتَ فـي الأرض أوسـاطًـا وأطـرافـا
لـم تلـقَ فيهـا صـديقًـا صـادقًـا أبـدًا
ولا أخًــا يبــذلُ الإنصــافَ إن صــافـى

وقال غيره وأجاد: [من الوافر]

سمعْنــا بــالصــديــقِ ولا نَــراهُ على التحقيـقِ يـوجـدُ فـي الأنـامِ
وأحسَبُـــهُ مُحـــالاً نمَّقُـــوهُ علـى وجـهِ المجـازِ مـن الكـلامِ

وقال الآخر وأفاد: [من الكامل]

لمَّـا رأيـتُ بني الـزمـانِ ومـا بِهـم خِــلٌّ وفــيٌّ للشــدائــدِ أصطفِــي
أيقنــتُ أنَّ المستحيــلَ ثــلاثــةٌ الغـولُ والعنقـاءُ والخِـلُّ الـوفِـي

ولكن من لم يكن له من نفسه واعظ، فهيهات أن تؤثر فيه الزواجر والمواعظ. ومن لم يكتف بالتلميح والإشارة، سمع ما لا يطيقه بصريح العبارة. ثم جعل يتبختر في مقامه، ويترنم ببديع نظامه: [من الكامل]

سِـرْ طـالبًـا غـايـاتِهـا إمَّـا تُـرى فوقَ الثريّا أو تُرى تحتَ الثرى
لا تُخلِـدَنَّ إلـى المقـام فـإنّمـا سيـرُ الهـلال قضـى لـه أن يُقمِـرا
لا تبـكِ دارًا فـالفتـى مـن إن دعـا دمعًا عصاه وإن دعاه دمٌ[1] جرى
أيــن الكِنــاسُ مـن العـريـن[2] وأيـن غُـزْ
لان اللـوى فـي المجـد مـن أُسْـدِ الشَّـرى

---

(١) في الأصل: دمًا، ولا يصح.
(٢) الكِناس: بيت الظباء، والعرين: بيت الأسود.

لو ينتج الوطنُ العُلا ما سارَ عَنْ غُمـدانَ[1] سيِّـدُ حميـرٍ مُستنصـرا

ولـــو استتـــمَّ بمكـــةٍ لمحمّـــدٍ مـا رامَ لـم ينصِـبْ بيثـربَ مِنبـرا

* * *

فأجابه المقيم قائلاً بصوت حزين: ﴿ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

كيف جنحتَ للظُّلم مع أن مرتعه وخيم، وأثبتَّ في كلامك نقصي وقدري عند الله فخيم؟ ولكنّ المؤمن مرآةُ أخيه، وكلّ إناء يرشح بما فيه. أما علمت أن الإقامة في هذه الدار، دليلٌ على السكون تحت مجاري الأقدار؟ كما أن الهَيَمان[2] في كل واد، دليلٌ على عدم إشراق أنوار اليقين في الفؤاد.

وبالجملة والتفصيل، فما أنصفت في التفضيل. وما أعليت رتبة من ظَعَن على من قَطَن، وأغليت قيمة من تغرَّب على من لازم الوطن. إلاَّ تجاهلاً منك أو جَهلاً، وتحكُّمًا في أمر لستَ له أهلاً.

أما عرفت أن الوطن دار، بها فلك السُّعود قد دار؟ منيعة المصادر والموارد، وسيعة المعالم والمعاهد. لياليها بالأنس والسنا مقمرة، وأفنانها بفنون الهنا مثمرة. يلوح زهيّ بشرها على صفحاتها، ويفوح بهيّ نَشرها وشذيّ نفحاتِها. قد مدَّت على أبنائها وارفَ ظلِّها، وحبتهم وافرَ وَبلها وطَلِّها[3]. وجادت لهم بجياد الفخر والعزّ، وخلعت عليهم خِلَعًا

---

(١) غُمدان: كعثمان قصر مشهور من مضارب الأمثال باليمن.

(٢) الهَيَمان: مصدر هام يهيم: خرج على وجهه في الأرض لا يدري أين يتوجه.

(٣) الوَبْل: المطر الشديد. والطَلُّ: المطر الخفيف، قال الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ ﴾.

أبهى من الحرير والخزّ. فبها يعرف مقدارهم، ويرفع في العلا منارهم. وينمو مالهم، ويسمو كمالهم. تفتح لهم أبواب الفضل والإنعام، كمودَّة القربى ومواصلة الأرحام. وتدير لهم من راح الأفراح، ما يجلو عنهم جميع الهموم والأتراح. فكم اجتلوا على صفاها أقداح الصَّفاء والهنا، واقتنوا من ثراها أنواع الثراء والغنى.

وقد زعمت أنَّك جرّبت الحالتين: الغربة والإقامة، فوجدت الأولى أولى فضلاً واستقامة. وما أراك تروم إلاَّ إغوائي بذلك وإغرائي، متوهمًا أنِّي أنسخ بمتشابه أقوالك محكمَ آرائي. كيف أترك قَرابة وأهلا، وحيًّا يحيِّيني بلسان حاله: مرحبًا وأهلا؟! وأرضى بصحبة من لا يعرف منِّي الفرع ولا الأصل، ولا يعطف عليَّ إن واددته بحسن القرب والوصل؟!

[من الطويل]

يفــارقُنــي مــن لا أطيــقُ فــراقَــهُ ويَصْحَبُني في النَّاسِ من لا أُريدُهُ

وأشتري الوحشة والإفلاس، بكمال الغنى والإيناس؟! وقد بلغت أوطاري في أوطاني، وقرّت عيني بما خوّلني فيها مولاي وأولاني. ومن قوة جهلك، وقلة عقلك. اعتقادُك أن الفضل على نفسك مقصور، وفي أمثالك من أبناء جنسك محصور! ولقد ضيّقت واسعًا بكثافة فهمك وعدم لطفك، ويأبى الله إلاَّ أن يُتِمَّ نورَه رغمًا على أنفك.

أما علمتَ أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشا، ويختصُّ به من خلق مفطورًا على التوحيد ونشا؟ لا يدركه أحد بحاله ولا بهمَّته، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ [يونس: ٥٨]. ليس مستقرًّا في محل فيُقصد، ولا في ذروة جبل فيُرقى إليه ويُصعد. ما كان لك سوف يأتيك على ضَعفِك، وما لم يكن لك لن تناله بقوتِك.

وفي هذا القدر كفاية للنَّبيه الأريب، فانتبه من سكرة غفلتك أيها الغريب. وارجع إلى محلِّ احترامك واحتشامك، فإن الذي تطلبه تركته في مقامك.

* * *

فلمَّا سمع الغريب مقالته ووعاها، وسرت في أوصاله حميَّاها(١). أقامه فرط انزعاجه وأقعد، ونظر إليه نظر ازدراءٍ وأنشد: [من الطويل]

لقد هَزُلَتْ حَتَّى بَدا مِنْ هُزَالِها كُلاها وحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ

ثمَّ قال له: ما أنت عندي في إعجابك بحالك، واستحسانك ثوبَ دناءتك الحالك. إلاَّ كما قال بعضُ الحكماء: «استٌ في الماء وأنفٌ في السماء»؛ لو كنت عاقلاً لمقتَّ حالك مفصَّلة ومجملة، ولكن قيل في المثل: «استراحَ من لا عقلَ له»(٢): [من المتقارب]

ومــن جَهِلَــتْ نفسُــهُ قــدرَهُ رأى غيــرُهُ منــهُ مــا لا يُــرى

وهل للإنسان أن يجنح إلى الكسل اعتمادًا على السابقة؟ كلا إن ذلك دليلٌ على همَّته الدنيئة ونفسِه الآبقة: [من الطويل]

على المرءِ أن يسعى لما فيهِ نفعُهُ وليـسَ عليـهِ أن يسـاعـدَهُ الـدَّهـرُ

كم ذا أحدِّثك بما منحته من الأخلاق الجميلة. والخصال الحميدة والخلال الجليلة. وأنت تنافسني تارة بنموِّ مالك في حَزْنك وسهلك،

---

(١) حُمَيًّا كل شيء: شدّته وحدّته.

(٢) من أمثالهم، يضرب للجاهل لا يفكر في شيء فيهتم. جمهرة الأمثال للعسكري (١/ ١٤٧)، وانظر معجم الأمثال العربية (٣/ ١٩٥).

وآونةً باجتماع شملك بقرابتك وأهلك: [من الطويل]

وما المالُ والأهلونَ إلاَّ ودائعٌ ولا بدَّ يومًا أن تُرَدَّ الودائعُ

وطورًا تباهيني براحة ذاتِك، وحصولك على سائر شهواتك ولذَّاتك. إن هذا لعمر الله لأمرٌ عجيب، ونبأٌ غريب: [من الكامل]

سارَتْ مشرّقةً وسِرتُ مغرِّبًا شتَّانَ بينَ مشرِّقٍ ومغرِّبِ

وهل توهَّمت أنني في ظعني وسيري، آكل من رزق غيري؟ أو فقدت في ذلك الألفة، ووجدت كل التعب والكُلفة. وحرمت لذة المنادمة والأنس، في مخالطتي لجميع الإنس. كلاَّ إن الهموم لا تطرقُ ساحة راحتي ولا الأكدار، أينما نزلَتْ بي مطايا الأقدار: [من البسيط]

مَن كانَ مثليَ فالدنيا لَهُ وطَنٌ وكلُّ قومٍ غدا فيهم عشائرُهُ

وما أحسن قول من قال، وأصدق منه المقال: [من الطويل]

إذا كانَ أصلي من ترابٍ فكلُّها بلادِي وكلُّ العالمينَ أقاربي

وإذا مسَّني في بلدة ظلم أو جور، من أهل البغي والفجور. بِنْتُ عنها راحلاً، راكبًا كنت أو راجلاً: [من الوافر]

وما ربعُ القطيعةِ لي بربعٍ ولا نادي الأذى منِّي بنادي

وما ألطف قول القائل: [من البسيط]

لا يجلسُ المرءُ في أرض يُهانُ بها إلاَّ من العجزِ أو من قِلَّةِ الحِيَلِ

وإن رأيت من صديق لي ما أكْرَه، واريتُهُ في لحدِ التناسي وعظَّمتُ

لقلبي فيه أجْرَه. ولم أكُ الدهرَ عنه سائلا، دون أن يتخذ إليَّ للقرب وسائلا: [من المنسرح]

إذا صـديـقٌ أنكـرتُ جـانبَـهَ   لـم تعيني فـي فـراقِـهِ الحيـلُ
فـي سَعـةِ الخـافقيـنِ مُضطَـرَبٌ   وفـي بـلادٍ مـن أختِهـا بَـدَلُ

وإذا زعمتَ الاختصاصَ بفضيلة صلة أرحامك، فأنّى لك أن تأمن مني في نزاعك عليها وزحامك. ومع هذا فربما لا يقوم أداء هذه الحقوق، بما يرتكبه أمثاله من سوء العقوق. كيف وقد قيل «الأقارب كالعقارب»، فهل يسوغ للبيب أن يدنو منهم أو يقارب؟! «ربَّ أخٍ لَم تلده أمّك»(١)، وشقيق كان منه شقاقك وهمك: [من البسيط]

لا يمنعنَّكَ خفضَ العيش في دَعةٍ   نـزوعُ نفـسٍ إلـى أهـلٍ وأوطـانِ
تلقـى بكـل بـلادٍ قـد حَلَلْـتَ بهـا   أهـلاً بـأهـلٍ وجيـرانًـا بجيـرانِ

وإن ادَّعيت أن في الإقامة يسمو قدر المرء وشانه، وينمو عزُّه ويعظم سلطانه. فقد عظمت بذلك الفرية، ونسبت الشيء إلى غير أهله دون مِرْية: [من البسيط]

إنَّ العُـلا حَـدَّثَتْني وهـي صـادقـةٌ   فيمـا تحـدّثُ أن العـزَّ فـي النقَـلِ
لو كانَ في شرفِ المأوى بلوغ مُنىً   لم تبرحِ الشمسُ يومًا دارةَ الحَمَلِ

ولله در من قال، فأبدع في المقال: [من مجزوء الرجز]

إن كنـتُ تبغـي وطنًـا   مـن العُـلا فـاغتـربِ

---

(١) من أمثالهم يضرب في إعانة الرجل صاحبه حتى كأنه أخوه، جمهرة الأمثال (١/ ٤٨١)، ومعجم الأمثال العربية (١/ ٤٦).

فـــالسُّمْـــرُ فـــي غـــابـــاتِهـــا معـــــدودةٌ فـــــي القضـــــبِ
والشمـــسُ لا تُـــرقَـــبِ فـــي الـــ ـــمشـــــرِقِ لـــو لـــم تغـــربِ

ومن غرر الأقوال، المشحونة بفنون الحكم وضرب المثال:

[من البسيط]

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبٍ مِنْ مَطلبٍ فدعِ الأوطانَ واغتربِ
لم يشرُفِ الدرُّ لولا هجرُ موطنِهِ والبدرُ ما تمَّ حتى جدَّ في الطلبِ
والأُسْـدُ لـولا فـراق الغـابِ مـا افتـرسَـتْ والسَّهـمُ لـولا فـراقُ القـوسِ لـم يُصِـبِ
والتِّبرُ كالتّرب ملقىً في معادنِهِ والعودُ في أرضِهِ نوعٌ من الحَطَبِ
فـإن تغـرَّبَ هـذا عـزَّ مطلبُـهُ وإن تغـرَّبَ ذاك بيـعَ بـالـذَّهَـبِ

على أن أهـل الغـربـة مـن أربـاب العقـول، المتضلعيـن مـن علمـي المنقول والمعقول، تألف نفوسهم الخمول. وتأنف من الشهرة والظهور، لعلمهم بما يتحمل صاحبُها من الأثقال التي تقصم الظهور. فهم الذين لا يريدون علوًّا في الأرض، الوجلةُ قلوبُهم من هول يوم العرض:

[من الطويل]

أولئِـكَ آبـائـي فجئْنـي بمثلِهِـمْ إذا جمَعتْنـا يـا جـريـرُ المحـافـلُ

يبذل أحدهم في الله ماله وجاهه؛ ليكون له بذلك عنده وجاهه. وينظر فيما يتوجه على طالب الشهرة من المقت والملامة، فيفر من ذلك طلبًا للعافية والسَّلامة:

[من المتقارب]

لقـدْ رضيَـتْ همّتـي بـالخمـولْ ولـم تـرضَ بـالـرُّتَـبِ العـاليَـهْ
ومـا جهِلَـتْ طيـبَ طعـمِ العُـلا ولكنَّهـا تطلُـبُ العـافيَـهْ

وربما ذاق بعضهم اللذَّة في الذلَّة، ووجد الكثرة في القلَّة. وعزفت نفسه عن ورود أبهى المحافل والمجالس، مذ عرفت من هو أكرم مؤانس ومجالس. أوَ يُزري بمثل هذا عدم انتشار صيته بين الخلائق، وانقطاع المناسبات بينه وبينهم والعلائق؟!: [من المجتث]

ليـــسَ الخمـــولُ بعـــارٍ علـــى امـــرىءٍ ذي جـــلالِ
فليلـــةُ القـــدرِ تَخفَـــى وتلـــكَ خيـــرُ الليـــالـــي

أم يعيبه عدم ترفُّهه في طعامه وترفُّعه في لباسِه؟ كلاَّ إنه لدليلٌ على قوة تجلُّده وشدَّة باسِه. وهل يحصُل الفوز في الدار الآخرة، باجتناء المطاعم اللذيذة وإنشاء الملابس الفاخرة؟! [من البسيط]

لا تنظـرَنَّ إلـى ثَـوبٍ علـى رَجُـلٍ وانظرْ إلى ما حَوَى من علمٍ أو أدَبِ
فـالعُـودُ لـو لـم تفُـحْ منـهُ روائحُـهُ ما فرَّق الناسُ بين العُودِ والحَطَبِ

ولو رمتُ مدّ أطناب الإطناب في فضاء فضائلي، لأوردتُ لك في ذلك ما يشفي الغليل من دلاء دلائلي. وفتحت لك بابًا ما لك به من طاقة، ولا قَدَر عليه من هو مثلك ولا أطاقه. وقد نصحت لك إن سمعت قولي، وإلى الله أتبرأ من قوَّتي وحولي.

* * *

فتكلَّم المقيم بعد أن سكت طويلاً وقال: أما علمت أيها المخادع المحتال، أن الله لا يحبّ الفخور المختال؟ كيف شهدت لنفسك بالكمال، وهذا غير مسلَّم؟! أين أنت من آية ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ﴾ [النجم: ٣٣]. قد رفضت كلامي ظهرِيًّا، واتخذتني هزوًا وسخريًا. أما أنذرك القرآن بلسان التوبيخ واللوم، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن

قَوۡمٍ﴾؟ [الحجرات: ١١]. وجنيت عليَّ لتحدُّثي بنعم الله بسوء شتمك وسبّك، وكأنك ما طرقَتْ سمعك آية: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ [الضحى: ١١].

كيف تهتك بسِنان[1] لسانك ثوبَ عرضي، وتفتك بـي وأنت في حيِّـي وأرضي؟ مع أن لك عندي حسن ذمة وحرمة، وما قلت ما قلته تشفِّيا ولكن رأفة بك ورحمة.

ولست أرى هذا التطاول على بعضنا والاعتداء، ينتج لنا سوى إساءةِ الأحبَّاءِ وشماتة الأعداء. وهيهات أن يسلِّم أحدُنا للآخر في الفضل، إلاَّ بحكم حكمٍ عدل في القول والفصل. وأنَّى لنا به في زمن عاد فيه الإسلام غريبًا، بعد أن كان مقيمًا في أوطانه وإلى النفوس حبيبًا؟!. وإن كانت الأمة لا تخلو من أمام ظاهر على الحق، يؤتي كلَّ أحد بأمر مولاه ما استوجبه واستحقّ. وحبذا ذاك إن عثرنا عليه، وجذبتنا أعِنَّة العناية إليه. فإن وافقتني على ابتغائه، فهلمَّ بنا إلى الجِدِّ في طلب لقائه.

* * *

فأجابه إلى ذلك موافقًا، وعزم أن يكون في السير مرافقًا، بعد أن عنّفه على ما ارتكبه في كلامه، وهدَّده عن العود إلى مثله مدى أيامه.

وبينا هما في الحديث ورد عليهما شيخ كبير، تقضي له الفراسةُ بأنه عارف بأحوال الزمان خبير. يخطر في كمال الأبَّهة والعظمة والجلال، وتلوح على وجهه لوائح الفضل والكمال. فحيَّا بتحيَّته وسلامه، وآنس بحديثه وكلامه. فاستبشرا بحصول المنى والوطر، بعد أن أنعما فيه النظر. وطلبا أن يكون في هذا الأمر حَكَما، ويمنحهما من لطائفه أسرارًا وحِكَما.

---

(١) السِّنان: نصل الرمح.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٢]، وأولِ منا رتبةَ الفضل مَنْ تأهَّل لها واستحقّ. وأعلمنا: هلِ الغربةُ أفضلُ أم الإقامة؟ حتى يعرف كلٌّ منَّا منزلتَه ومُقامه.

فامتنع من ذلك وطلب الإقالة. فأعادا عليه مثل تلك المقالة. فقال: إن كان ولا بدَّ فتعاليا بنا إلى مجلس الائتلاف، بعد خَلْع خِلَعِ التعصُّبِ والاختلاف. فبايعاه على الطاعة والقبول، فيما يقضي به بينهما ويقول.

فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وصلَّى على نبيه ومن انتمى إليه. ثم قال:

أمَّا بعد، فإني أرى لكل منكما حُجَّة، تسلك به إلى مغنى الفضل أوضحَ محجَّة. وإن أبيتما إلاَّ التفصيل، وتعيين أحقِّكما برتبة التفضيل. فاعلما أوَّلاً أنه ما مُدِحت الغربةُ لذاتها ولا الإقامة، بل لما ينشأ عنهما على يد من حاز الفضلَ والاستقامة. وأُلْهِمَ بنور التوفيق رشدَه، وبلغ في الكمال أشدَّه. من رَعْي الذِّمامِ، وصلة الأرحام. وحفظ الجار، والنظر في ملكوت السموات والأرض بعين التفكر والاعتبار. فإن فتحتما أقفال كنزي، واستخرجتما منه أكسير إشارتي ورمزي؛ أيقنتما أن السرَّ في الساكن والنازل لا في المساكن والمنازل. ولكن مع هذا فلا ريب أن لله خواصَّ في الأمكنة، كما أن له خواصّ في الأشخاص والأزمنة. وبهذا القدر يتميز أحدكما على الآخر لا محالة بقدره الجليل، فأقول إذًا وظنِّي فيكما بحمد الله جميل:

أما صاحب الإقامة، فحاله يدل على حسن الاستقامة. لكونه ارتشف من كأس الرضى والتسليم، رحيقًا ختامه مِسْك ومِزاجُهُ من تسنيم.

وأما صاحب الغربة، المتلاشي بين حضورٍ وغيبة. فمناهل علومه رائقة، ورياض لطائفه فائقة. لا يسبقه في الفضل سابق، ولا يلحقه في شأوه لاحق. قد عرف الزمانَ وبنيه، وما زَ الغافل من العاقل النَّبيه. وجمع أشتات الفضائل، واطَّلع على آثار من غَبَر من الأوائل. فأنى يُجارَى هذا في مضمار فضائله، أو يُمارَى فيما تفرَّد به من حسن شمائله؟ وهو إن رجع إلى مقام الوطن، بعد أن ذاق أحوال الغربة في السرّ والعَلَن. جنى منه جنى أنسه وراحته، وجلا راحة التهاني براحته.

ثمَّ أخذ يزيل عنهما ما أضرَّ بهما من الجفا والبين، ويوقع بينهما أنواع الألفة ويصلح ذاتَ البين. حتى شكر كلٌّ منهما معروفه وجميله، ونظر صاحبه بعين الرضا فرأى جميع أحواله جميلة.

فلمَّا عاينت هذا الأمر العجيب، ورأيت ما مال إليه الشيخ من تفضيل الغريب. مع ما أبدى في وصف كلٍّ منهما من مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم، التي من أجلها مُدِحَتِ الغربةُ والإقامة بينَ سائر الأمم. حرَّكَ ذلك منِّي ساكنًا، وأظهر سرًّا كان كامنًا. شوقًا إلى من تحقَّق بتلك الصفات العظيمة، وتخلَّق بجميع هاتيك الأخلاق الكريمة. لقيامه في وطنه بالذبّ عنه بنفسه وماله، مع مساعفة من التجأ إليه ببلوغ آماله. وسيِّرِه في رعاياه بجميل السيرة، المنبئةِ عن صفاء الطويّة وحسن السَّريرة. ثم انتقالِهِ في هجرته إلى صفوة الله من بلاده، التي إليها يجتبي صفوته من عباده. فاستقام فيها على بذل المعروف، وإغاثة المضطرّ والملهوف. وتعاطي أسباب النجاح والنجاة، وأولى من أَمَّ حماه ما أمَّلَه ورجاه. مَن ارتقى أوجَ السيادة، وقرَّت به عين السعادة. وأعلا الله مقامه فانفرد بأبهى مقامه، في الغربة والإقامة. ذي الهمَم العليَّة، والشِّيَم الزكيَّة، حضرة

سيدنا وسندنا الأمير عبد القادر بن محيـي الدين، متَّعنا الله بوجوده، وأمدَّنا بفضله وجوده؛ في الدنيا ويوم الدين.

فقلت معترفًا بالعجز والتقصير، عن حصر بعض مزايا هذا الشهم الخطير: [من البسيط]

أيا نسيمَ الصبا قد زدتَني وَصَبا ... بذكرِ من هامَ عقلي فيهمُ وصبا

أجريتَ درَّ دموعي كالعقيق بتذ ... كارِ العقيقِ فجارى فيضُها السُّحبا

باللَّهِ حيّ عُرَيبَ الحيِّ عن كَلَفٍ ... بهم يباتُ الليالي يرصدُ الشهبا

فؤادُهُ قد غدا مُصلىً بنار جوىً ... وجسمُـهُ بيـدِ الأشـواقِ منتهبَـا

حتَّامَ أخفي غرامي والدموعُ بِهِ ... تنِـمُّ والـوجـدُ لا يخفـى إذا غَلَبـا

جلَّ المصابُ وعزَّ الصَّبرُ وا أسفي ... والبينُ من مقلتي طيبَ الكرى سَلَبا

وفي سبيل الهوى ذقتُ الهوانَ فكم ... وكم به شِمتُ من أهوالِهِ عَجَبا

كـم ذا أعلِّـلُ بـالآمـالِ كـلَّ مـدىً ... نفسي ولمَّا أنَلْ ما كنتُ مرتقِبا

عطفًا على مغرمٍ مغرىً عليهِ لقدْ ... جارَ الهوى والنَّوى أودَتْ بهِ عَطَبا

أمَا كفى ما جرى مِن كلِّ نائبةٍ ... يكادُ يقضي المعنَّى دونَها نَصَبا

قد حنَّ لي وشكى في الأيكِ ساجعةٌ ... ورَقَّ لـي وبكـى الجُلمـودُ منتحِبـا

يا لائمي في التصابـي لو عدلتَ لما ... عذلْتَ صبّا حليفَ الوجدِ مكتئبا

ولـو تـرى فـي الهـوى العـذريِّ عـذريَ مـا ... أمسيــتَ قــطُّ ضــلالَ العــذلِ مُــرتكِبــا

وبـي غزالٌ غزا منِّي الحشا بظُبا[1] ... أجفـانِـهِ فـاسـترقَّ القلـبَ وانقلبـا

بـديـعُ حسـنٍ حميًـا حبِّـه سلبَـتْ ... تنسّكــي ومحيَّــاه الفــؤادَ سبــى

(١) الظُّبا: جمع ظُبة، وهي حدُّ السيف وما أشبهه.

كالشمس حسنًا وكالبدرِ المنيرِ سنًا والغصـنِ قـدًّا إذا مـا رَنَّحَتْهُ صَبـا

غَيِّـــي أراهُ بـــهِ عيـــنَ الـــرشـــاد وذلّـ
ـــي عِـزَّتـي وعـذابــي فيـه قـد عَـذُبـا

ويلاه من رَشأ أفتى بسفكِ دمي يومَ الفراقِ وأفنى مُهجتي وَصَبا

وطالمَا باللقا قد جادَ دونَ قِلىً والقلبُ في القُربِ منهُ نالَ مَا رَغِبا

أجني ورودَ البهَا من روضِ وجنتِهِ ومِنْ لماهُ أذوقُ الرَّاحَ والضَّرَبا[1]

يا ليتَ شعريَ هل أحظى برؤيتِهِ يومًا وأقضي بهِ من وصلِهِ أرَبا

وهـل تعـودُ لُيَيْـلاتٌ سَلَفْـنَ لنـا نَجْلُو سُلافَ الهَنا في غفلةِ الرُّقَبا

وا لهَفَ قلبـي الشَّجِيْ من أغيدٍ جمعَ الضّـ
ـــدَّيـــنِ فـــي وجنتيـــهِ المـــاءَ واللَّهَبـــا

هـــذا يجـــودُ بـــهِ وذاكَ يمنعُـــهُ وليتَهُ كانَ لي بالعكسِ قد ضَرَبا

وقد حمىٰ ظَلْمُهُ[2] من ظُلمِهِ فمتى يُطفِي غليلَ عليلٍ في الحشا التهبا

أَحَـلّ حـلّ عُـرى ميعـادِهِ ورأى إنجـازَ إيعـادِهِ فـي شـرعِـهِ وجَبـا

ما شِمتُ[3] أنقضَ منهُ للعهودِ ولا مثلَ الأميرِ وفًا عُجمًا ولا عَرَبا

فخرُ الأماجدِ عبدُ القادرِ الحسني أرقـاهـمُ نسبًـا أنقـاهـمُ حَسَبـا

سما السِّماكين قدرًا في العُلا وعلى أوج المجـرَّةِ فخـرًا ذيلَـهُ سَحَبـا

إن شـاءَ إنشـاءَ أبكـارٍ مخـدَّرةٍ فمـا بـلاغـةُ سَحبـانٍ إذا خَطَبـا

كـالليـثِ والغيـث فـي بـأسٍ وفـي كَـرَمٍ
يُفنـي أنـاسًـا ويُحيـي إن سَطَـا وَحَبـا

---

(١) الضَّرَب: العسل الأبيض.

(٢) الظَّلْم: ماء الأسنان وبريقها.

(٣) ما رأيت متحققًا.

أعدَّه الدَّهرُ قِدْمًا حسنَ خاتمةٍ لَـهُ فنـالَ بـهِ تـالله مـا ارتَقَبـا

فيـا لَـهُ مـن إمـامٍ مفـردٍ جُمِعَـتْ بهِ المعالي وحازَ الفضل والأدَبا

مولايَ عطفًا على عبدٍ رضاك غدا أقصى مناهُ مِن الدنيا وما كَسَبا

فَلْيَهْـنَ إنْ أبَّ مقبـولاً وعـادَ قـريـرَ العينِ يختالَ في بُردِ الهنا طَرَبا

وهاكَها بنتَ فكرٍ لا تروم سوى الـ ـقبـولِ مَهـرًا وتـأبـى غيـرَهُ طَلَبـا

عـذرًا فـإن ثنـاءَ العبـدِ يقصُـرُ عَـنْ عُـلاكَ مهمـا عليـه دامَ أو دأَبـا

لا زلتَ في الدهر محفوظَ الجَنابِ ومَنْ قـدِ انتمـى لحِمـى عَليـاكَ وانتَسَبـا

ولا بَـرِحـتَ لكـلِّ العـالميـن مـلا ذًا ما بدا وجهُ شمسِ الحُسْنِ أو غَرَبا

بُشرايَ فُزْتُ لدى تاريخِها بهدي ونِلتُ في مدحِ عبدِ القادرِ الأرَبا

٢١ ٤٨٦ ٩٠ ٥٢ ٧٦ ٣٣٦ ٢٣٥

* * *

انتهـت هـذه المقـامـة فـي سلـخ ذي الحجـة سنـة ١٢٩٦، لمنشئهـا الأديب الفاضل محمد الشيخ نجل المبارك[١].

---

(١) محاضرة لطيفة، ومفاخرة شريفة. رشيقة التسجيع، رصيفة الترصيع، حَوَت البلاغة بالبيان البديع. أظهرت مقام المقيم الأريب، وأسفرت عن علوّ شأن الغريب بطرز عجيب. راقَتْ ورقَّتْ ورقَتْ أعلا المقامات، بمدح أمير الأمراء والسادات. شمس العلوم والمعارف المشرقة في المشارق والمغارب، بدر الحقائق البادي للصَّادق لكنَّه ليس بآفل ولا غارب. القطب الذي عليه تدور رحى العرفان، والنَّجم الذي يهتدي به الحيران. خاتمة المحدِّثين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين. صاحب الشأن الشامخ، والقدم الراسخ، والشرف الباذخ. السيِّد السَّند السني، الأمير عبد القادر بن محيـي الدِّين الحسني:

الألمعـي الـذي أدنـى فضـائلـه كـانـت نهـايـة أقـوام مبـاديهـا =

. . . .

* * *

= نجل السراة الأولى شادوا بمجدهم فوق السهى رتبًا عزَّت مراقيها
فهم مصابيح نور للإلـه بدت فمَن لها مطفيءٌ والله مذكيها
وحسبهم شرفًا تعنو الرقاب له أن المحاريب يتلى مدحُهم فيها
مفاخر من أبي الزهرا إلى حسن نمت إليه فقل من ذا يضاهيها
قد صار في الخلق مقدارًا ومنزلة كليلة القدر دام سعد رائيها

عزَّز الله تعالى قدره، ورفع في الملأ الأعلى ذكره. آمين.

فحازت به أبهى مقامة، أعلى غايات الكرامة. وفاه لسان حال الأفاضل والأفاخر، يتلو منشدًا يفاخر: «كم ترك الأول للآخر». وكيف لا وولي عهدها، وناظم لآلىء عقدها. بديع الزَّمان وحسانُه، وخطيب العصر وسحبانُه. الأجلّ: محمد الشيخ نجل الولي الصالح، الشيخ محمد المبارك الجزائري. لا زالت أقلامه بالعلوم تجري وتنثر الدر المكنون، مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. مصطفى فوزي الإمام، ولها يقول الأديب الأريب الشيخ طاهر بن الشيخ محمد صالح الجزائري مقرظًا:

لقد راقت الأبصار أبهى مقامة غدت كعروس فوق سامي الأرائكِ
يقيم بها فكر المقيم تنزُّهًا بروضة زهر أسفرت عن سبائكِ
ويسري بها فكر المسافر إذ حَوَتْ بحسن معانيها أجلَّ المسالكِ
علا كعبها بين المقامات قد غدت نسيج زهير العصر نجلِ المباركِ

سنة ١٢٩٦

المفاخرات والمناظرات

(٦)

مناظرة بين العلم والجهل

تأليف

الشيخ محمد بن محمد الديسي الهاملي الجزائري

(١٢٧٠ هـ ــ ١٣٤٠ هـ)

عُني بها

الدكتور محمد حسان الطيان

جامعة الكويت ـ كلية الآداب

دار البشائر الإسلامية



ترجمة المؤلف[1]

هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن سيدي إبراهيم الجزائري، من قرية الديس قرب بلدة بوسعادة بالقطر الجزائري.

وُلد سنة ١٢٧٠ هجرية بالقرية المذكورة. كان من أجلِّ المشايخ المعتبرين، وبقية السلف الصالحين، متخلقًا بالأخلاق الرائقة، والأحوال الفائقة، علمًا وعملاً، وزهدًا وورعًا، ومحبة في الله وأهله، ووقوفًا مع الكتاب والسنَّة، يقول كل من عاشره ووزنه بالميزان الشرعي: إن جزءًا من أحواله لم يخرج عن الشرع.

تربَّى في حجر والدته وجدته يتيمًا مكفوف البصر، حتى حفظ القرآن وأتقن أحكامه بالقراءات السبع، واشتغل بتعلم العلم على علماء قريته حتى حصل ما عندهم، ثم انتقل إلى زاوية الشيخ سيدي السعيد ابن أبي داود بجبل زواوة، فحصل ما قدر له من العلوم، ثم عاد إلى مسقط رأسه، ومنه انتقل إلى الزاوية المعمورة المشهورة زاوية الشيخ سيدي محمد بن بلقاسم الشريف الهاملي، واشتغل بنشر العلوم في تلك الزاوية

---

(١) نقلاً عن «شرح إيقاظ الوسنان»، للعلاَّمة المحقِّق الشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي، على منظومة المؤلِّف الشيخ محمد بن عبد الرحمن.

فاستفاد وأفاد، وتخرَّج على يده خلق كثير، كل على حسب ما قدر له.

له تآليف عديدة ما بين شروح وحواش، منها: شرح ورد سيدي محمد بن بلقاسم، المسمَّى بـ «فوز الغانم». وله نظم في الجمل سمَّاه «الزهور المقتطفة»، وشرحها بشرح سمَّاه «القهوة المرتشفة»، وحشَّى الشرح المذكور بحاشية سمَّاها «الحديقة المزخرفة». وله منظومة في التوحيد سمَّاها «عقد الجيد»، وشرحها بشرح سمَّاه «الموجز المفيد». وله المنظومة المشروحة المسمَّاة بـ «العقيدة الفريدة». وله بديعة من الرجز في مدح الشيخ سيدي محمد بلقاسم، وشرحها بشرح سمَّاه «تحفة الإخوان». وله شرح على منظومة الشبراوي سمَّاه «المشرب الراوي». وله «نظم الورقات» سمَّاه «سُلَّم الوصول»، وشرحه بشرح سمَّاه «النصح المبذول». وله «توهين القول المتين» في الرد على الإباضية. وله «مقامة في المفاخرة بين العلم والجهل»[1]، وشرحها بشرح سمَّاه «بذل الكرامة لقراء المقامة». وله «شرح على متن الشهاب» في الحديث. وله «شرح كنوز الحقائق للمناوي»، وله «شرح على الصلوات المشيشية» و «شرح على منظومته المسعودية» في مدح الأستاذ المذكور. وله «إفحام الطاعن بردّ المطاعن». وله «رسالة على التطهُّر بماء الغيب إن كنت ذا سر». وله رسالة في «تفضيل البادية بالأدلة الواضحة البادية». وله شرح على المنظومة الشعيبية في التوحيد، سمَّاه «الكلمات الشافية». وله «رسالة في نسب سيدي نائل». وله «الساجور للعادي العقور». وله «رسائل صغيرة في فنون شتى». كما جمع «النظائر الفقهية» عند تدريسه، و «الضوابط العلمية في

(١) وهي هذه التي نخرجها في هذا المجموع.

النحو»، وفي غيره. و«نظم مختصر خليل» ولم يكمله، ونظم تراجم أبوابه. وله «ديوان شعر» يبلغ نحو الأربعة آلاف بيت.

وكان يحفظ نحو خمسين متنًا في العلوم المتداولة، أعظمها مختصر خليل، وجمع الجوامع، ويحفظ المدائح النبوية. وقد برع في العلوم الشرعية والفنون الأدبية حتى كان أوحد زمانه. وكان يحب الخمول ويكره المحمدة والظهور، ليِّن الجانب صبورًا غيورًا على الدين صاحب حزم واجتهاد وذا خلق حسن، ما نطق بفحش قط، ولا ضبط عنه ساعة هو غافل فيها عن دينه. وكان يحفظ في اليوم مائة بيت من الفنون. وكان جيد النظم سهل العبارة ذكي الفهم غواصًا في المعاني الدقيقة. وأجاز وأجيز، ولم يترك التدريس في سائر الأوقات. وكان يحب الطلبة الذين يقرؤون عليه، ويعينهم على العلم ويواسيهم بما يقدر عليه، ولا سيما في شهر رمضان.

توفي رحمه الله يوم الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام عام أربعين وثلاثمائة وألف، رحمه الله والمسلمين رحمة واسعة.. آمين.

* * *

مناظرة بين العلم والجهل

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حَمْدِ مُلْهِم الصوابِ، وكاشفِ الأوصاب، والصلاةِ الكاملةِ، والتحياتِ المتواصلةِ الشاملةِ، على سيدنا ومولانا محمدٍ وآلهِ وصحبه والفئةِ العالمةِ العاملةِ، فقد اقتضى الحالُ، أن يقع بين العلم والجهل مناظرةٌ وجدالٌ(١)، فاجتمع قومٌ، وعينوا لذلك يوم.

فقام العلمُ، وقد شاخ وأسَنَّ، وأدركه الضعفُ والوهنُ، بادي الإعواز، يتوكأ على عكاز، في رثَّة حال، وأطمار وأسمال. فبَسْمَل وحَمْدَل، وحَسْبَل وحَوْقَل. وصلَّى وسلَّم، على خيرِ مَنْ عَلِمَ فعلَّم، وقال:

يا جهل، ما أنت لخطابي بأهل، ولا جدالي عليك بسهل؛ يا ميتَ الأحياء، ويا قليلَ الحياء. ويا سببَ تفليسِ إبليس، ويا حلية كلِّ دنيءٍ وخسيسٍ. كيف تكون لي أنت المجاري؛ والعلم صفة الباري، وميراث الأنبياء، وورد في فضله ما لا يحصى من الآيات والأنباء. ويكفيك لو كنت من قوم يفهمون ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) طُبعت هذه المناظرة في المكتبة السلفية بالمدينة المنوَّرة سنة ١٣٨٥هـ، وهي الطبعة الثانية لهذه الرسالة.

وجاء في السنَّة: «العالم والمتعلم والعلم في الجنة».

وأنت يا جهل بسيطُك عَدَمٌ، ومركّبُك موجودٌ لا يثبت له قدمٌ. ومن معلوماتي التفسير والحديث، المعظمان في القديم والحديث، وعلم التوحيد الذي هو لِبابِ الجنَّة إقليد. وإليَّ ترجع الأربعة أركان التي بها شرف الإنسان: علوم الأديان، وعلوم الأبدان، وعلوم الأذهان، وعلم اللسان.

ويكفي الجهلَ قبحُ وسمه، ولكل مسمًّى حظٌّ من اسمه. يخبطُ خبطَ عشواء، ويركب متنَ عمياء. ويتصور الأشياءَ على خلاف ما هي عليه، وكل شرٍّ في الدنيا منسوب إليه.

وبالعلم تدرك المراكب الفاخرة، وتنال سعادة الدنيا والآخرة. يزيد بالإنفاق، ووقع على فضله الاتفاق. معظّم في كل ملَّة، وبه تقوم قواعد كل نحلة. بنوه السادة، ولأهل الدنيا والآخرة قادة؛ مذاكرتهم زيادة، ومجالستهم عبادة. ونعم الأنيس في الوحدة، والمعين على الشدة والزاد والعُدَّة. يستغفر لأهله كلُّ شيء حتى حيتان الماء، ووحوش البر وطير السماء.

والعلم محبوب طبعًا، معظم عادة وشرعًا. لا تلحقه الآفات وأهله أحياء وهم رفات: [من الطويل]

أخو العلمِ حيٌّ خالدٌ بعدَ موتِه
وأوصالُه تحتَ الترابِ رَميمُ

وذو الجهل مَيْتٌ وهو ماشٍ على الثرى
يُعَدُّ مِنَ الأحياءِ وهو عَديمُ

وكفاه شرفًا: أن كلّ أحدٍ يدَّعيه، وكل ذي فطرة سليمة يقصده وينتحيه. وأنه يُنالُ بالهمم لا بالرمم. ولا يُحازُ بنَشَبٍ[1]، ولا يُورَثُ بنسب. يستوي فيه السُّوقَةُ والملوك، والغني والصعلوك، والحر والعبد، والشريف والوغد. يُدرَكُ بالاجتهاد والجِد، لا بالاتكال على الأب والجد.

وأنت يا جهل شناعة وأيّ شناعة، وخسارة للحياة وإضاعة. بَنُوك بهائم، وإن لبسوا العمائم. وأنعام، وإن غُذُوا بالإنعام. ومعشر طَغَام[2]، وإن تمتعوا بفاخر الثياب وألوان الطعام. وشرار، وإن تشدّقوا في الكلام. ورُعاع، وإن أحرزوا المتاع.

يا جادعَ مارنِ[3] الشَّرَف، يا مفتاحَ بابِ التهوّرِ والسَّرَف، يا عارَ الخَلَف على السَّلَف. يا هادم البيوت، يا أوهى حُجَّةً من نسج العنكبوت. يا مفسد العبادة، يا سيِّىء العادة، يا قليل الإفادة، يا مردود الشهادة. يا مُتْلفة الأموال، يا متناقض الأحوال، يا مُسَوِّد الأنذال، يا مُقَدِّمَ السّفلة والأرذال. يا عيبة العيب، ويا مثار الحيرة والريب.

بأي لسان أستوعب معايبَك؟ أم بأي بيان أستوفي مثالبك؟ وهل كالجهالة عمىً وعمَه؟ أو مثل الجاهلية سفالة وسَفَه؟ ألا يرى مجاهل المسالك، معاطبَ ومهالك؟ ومن سلك السبيل بالعلامة، فاز بالنجاة والسلامة. ألستَ صفة كل شرير ومارق؟ ومكسب كل متلصِّص وسارق؟ وإن نفق لك سوق، فذاك لعمري سوق الفسوق. وإليك ينتسب كل قَمَّار

(١) النَّشَبُ: المال والعقار.
(٢) الطَّغام: أرذال الناس وأوغادهم.
(٣) المارِن: الأنف، أو ما لان من طرفه.

وخَمَّار، ومُغْنٍّ وزمّار، ومحتال وغادر، ومنجم وساحر، ومشعبِذ[1] وكاهن، وخليع وماجن.

وإن فخرت بالملابس والمآكل؛ فذاك حظُّ المزابل. وأنشدوا:

[من الكامل]

ولقد سألتُ الدارَ عَنْ أخبارِهم فَتَبَسَّمَتْ عجبًا ولم تُبْدِ
حتى مررتُ على الكنيفِ فقال لي أموالُهم ونوالُهم عندي

أو بالخيل والليل فلأمِّك الويل. فكلُّ ما أضيف لك فهو حقًّا للشيطان، وليس له على عباد الله المخلصين من سلطان.

وإن عيَّرتَني بالفاقة فذاك من الحماقة؛ فالفقر شعار الصالحين الأخيار، وحلية عباد الله الأبرار. فاقعد عن المكارم؛ فإنك أنت الكاسي الطاعم. والبِطنة تذهب الفِطنة. والتُّخَم وَخَم. وأصل كل داء البَرْدَة[2]؛ قضية مسلَّمة. والمعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء؛ حكمة نبوية معظمة. وإن خدمتَ الأشباحَ الفانية، فأنا أخدم الأرواحَ الباقية. وإن قَصَرْتَ لذَّتَكَ على المباني، فقوت الروح أرواح المعاني.

وأبنائي الأكياس، خلاصة الناس. هداة العباد، ومصابيح البلاد. زينة المحافل، ورؤساء الجحافل. أيامهم بالمحاسن معمورة، ومساعيهم في الصالحات مشكورة. حياتهم طيبة بالقناعة، ولهم في الدنيا المكانة والطاعة، وفي الآخرة الحسنى والشفاعة: [من البسيط]

تلكَ المكارمُ لا قَعْبانِ[3] مِنْ لبنٍ شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا

---

(1) المشعبِذ: المشعوِذ.

(2) البَرْدة ويُحرّك: التُّخمَة. القاموس (برد).

(3) القَعْب: القدح الضخم.

فمـن أيـن لـك فَخـاري؟ وأنَّـى تسـامينـي فـي طِيـب أصلـي وكَـرَم نِجاري[1]؟

فمن أبنائي مفسِّرون وحُفَّاظ، وصوفية ووعَّاظ، ومتكلِّمون وفقهاء، وأصوليون وأدباء، ومؤرِّخون وأطباء، ومناطقة وحكماء، وفَرَضِيّون وحُسَّاب، وبُلغاء وكتَّاب، ومنجِّمون وجغرافيون، وأهل هيئة ومهندسون، ومِساحة وسياسة، وعلم حروب وفراسة. إلى غير ذلك مما لا أكاد أحصيه، ولا أقدر أستقصيه. انظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب وخواصِّ الفنون.

ومنهم واضعو العلوم، ومستنبطو الحدودِ لها والرسوم. وضع النحوَ بابُ مدينة العلم الإمام[2]، والحديثَ ابنُ عبد العزيز المجدِّد الهُمام، والتفسيرَ مالكٌ، والفقهَ أصحابُ الأربعةِ كذلك، وأصولَ الفقهِ الشافعيُّ ابنُ إدريس، ومسائلَ الكلام الشيخُ الأشعري الرئيسُ، والفرّاءُ التصريفَ، وابنُ المُعْتَزِّ في البديع اللطيفَ، والعروضَ الخليلُ، وعبدُ القاهرِ الجرجاني علمَ البيانِ الجليل. إلى غير ذلك مما ابتكره الأعلام، وفتحَ به العلَّام، واعترف فيه الأممْ بمزية الإسلام.

وكم لي من شمس وبدر، وفخر وصدر، وضياء ونجوم، وشُهُب لشياطين الجهل رُجوم، وغياث ومعين، وناصر وأمين، وبهاء وجمال، وبرهـان وكمـال؟ وكـم لـي من حُجَّـة، ووضـوح مَحَجَّـة؟ أمـا تـرى قوةَ عضدي، وطالعَ سعدي، وشهامةَ سيدي، وكرمَ مجدي؟ إلى ما لا يُحصى من أبنائي الأَنجاب، الذين تشرَّفوا بسَنِيِّ الألقاب.

---

(١) النِّجار: الأصل والحسب.

(٢) أي الصحابـي الجليل علي بن أبـي طالب رضي الله عنه.

أما تخشى يا جهلُ بأسَ حُماتي، وضربَ أكابرِ نُحاتي؟ وما للعروضيين من التفعيل والتقطيع، وللصرفيين من تنويع الأفعال والتفريع؟. ألا تخاف أحكامَ فقهائي، وأن يقْضوا عليك بمرٍّ قضائي؟. ألا تهاب تجريحَ رواة أنبائي، وصعوبةَ تجريح أطبّائي؟. ألا تفزَعُ من كلام المتكلِّمين، وأن يكونوا لعرضك من المُكَلِّمين[1]؟ وقد وجَّه أهل الأصول إلى صوبك السهام والنصول وأين تفرّ من عكوس المناطقة، وقضاياهم الكاذبة فضلاً عن الصادقة؟!.

ألا تتّقي تمزيقَ ألسنة شعرائي، وكنايةَ بلغائي؟ وتشبيهاتِ البيانيين أن يُلحقوك بباقل ومادر، وتلميحات البديعيين أن يُلمحوا لك بالبيت النادر؟ إلى ما لا يأتي عليه الحصر، ويتجدد مع كل أهل عصر.

ولا تنظر إلى ما رماني به الدهر من الكساد؛ فإنما ذلك لغلبة الفساد؛ فالدهر مغرى بحرمان الأفراد، ومساهلٌ لكل جاهل، وموافق لكل منافق. فقد قال الزمخشري العلاَّمة محمود، الذي علمه لولا الاعتزالُ محمود: [من الطويل]

وعانَدني دَهْري وساعَدَ مَعْشرًا ... على أنَّهم لا يعلمونَ وأعلَمُ
ومُذْ أفلحَ الجُهَّالُ أيقنتُ أنني ... أنا الميمُ، والأيامُ أفلحُ أعلمُ[2]

فقد كانت أسواقي نافقة، وأعلام عزِّي في الخافقين خافقة. فكم

---

(١) اسم فاعل من كلَّم بمعنى جرَّح.

(٢) الأفلح مشقوق الشفة السفلى، والأعلم مشقوق الشفة العليا، ومن كان كذلك، لم يستطع النطق بحرف الميم لأنه حرف شفوي، يريد الزمخشري أن زمانه لم يعرف قدره.

عالمٍ أصلحَ حرفًا فأخذ عليه كذا وكذا ألفًا. وكم أُجيزوا بالدرر على القصائد الغُرَر. وكم تمتَّعوا بالخِلَع البهية، والمآكل الشهية، والمراكب الهنية، والفرش الوطيّة. والمساكن المُطِلّة، والضياع المُغِلَّة. والكواعب الحِسان، إلى سائر ما أنعم به عليهم أهل الإحسان.

ألا تَرى إلى ما كنتُ عليه أيامَ الدولة الأموية من الحرمة والاعتزاز، بالشام واليمن والحجاز؟ وما حصل لي من الجلالة ببغداد والعراقين وخراسان وما وراء النهر أيام العباسة، وما كان لي من الإقبال بمصر وسائر ديار الإسلام أيام الدولة التركية وأيام الجراكسة؟ وخصوصًا بالمساجد الثلاثة التي تُشَدُّ لها الرحال؛ فكم كان فيها من فحول رجال!!

وصولتي ببلاد الروم صدرَ الدولة العثمانية. ومَنْ شكَّ فلينظر الشقائقَ النعمانية. وبإفريقِيَّة أيام الأدراسة والأغالبة، وبالعُدوة الأندلسية أيام الدولةِ المروانية القاهرة الغالبة. وما قصر فيَّ القيامُ في طوائف، أيامَ ملوكِ الطوائف. ونُصِرتُ بالأبيضِ والأسمر، مدةَ أيامِ بني الأحمر. ولم تزل لي بتلك العُدوة فخامة، إلى أن قوّض الإسلام من الجزيرة خِيامه. وعظُمَ شأني بمراكش والبيضا، أيام ابن تاشفين وابنه علي الرضا. وكنت بالمغربين منقطع القرين، أيام الموحِّدين وبني مَرين. ونُصرتُ بالهادين المهديين من الوطاسين والملوك السعديين. ولم أضِـع بتلمسان، أيام بني زيان، ولا ببجاية، كما في عنوان الدراية. وكذا بتونس والجزائر وزواوة، ونِعـم العِـدلانِ ونِعْمَـتِ العَـلاوة. فلتبـكِ علـى سلفـي الصـالـحِ المنـابـر، والأقلامُ والمحابر.

أمَّا الآن، وقد كان ما كان، وذهبت الجماعة، واقتربت الساعة، فلا يسعني إلاَّ الرضا، والصبرُ على مُرِّ القضا، والتقلّب على جمرِ الغضا،

فالشيء ينتهي إذا بلغ غايةَ حَدِّه، ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢].

* * *

فلمَّا فرَغ العلمُ من القيل، وسمع الجهلُ ما فيه قيل؛ أبرقَ وأرعد، ووعَد وأوعد، ونهضَ في أكملِ شارة وأحسن بزّة، وقد انتفخ من الكِبْر وأخذَته العزّة، وعلى رأسه التاجُ والعَلَم، وفي خدمته السيفُ والقَلَم؛ في عتوِّ تيمور أو جنكيز، وتعاظُم ممزِّق الكتابِ النبويِّ كسرى أبرويز ــ أما القيصر فما فرَّط في حفظ الكتاب المعظّم ولا قصَّر ــ فبربر وبرطم، وزمجر وجَرْسَم[1]. وقال:

يا عِلْم، ما هذا الإفراط في الظلم؟! أتكافحني في إقبال دولتي؟ وتنافحني في أيام صولتي؟! أما ترهَب بأسي وشدَّةَ شوكتي؟ وبيدي المناصب، وأنا الرافع والناصب. والمتصرف في الحكام، وإليَّ مرجع الأحكام، والنقض والإبرام، والقهر والإلزام!.

وإن كنتُ قِدْمًا أسكن الأطراف، وأستوطن الكُفور[2] والأرياف، فالآنَ قد ملكتُ الأمصار، وملأتُ الأقطار، وخفقَتْ في الخافقين بنودي، وطبّقت المشارق والمغارب جنودي. فأنَّى تشقُّ غباري؛ وأنا الأصل وأنت الطاري؟ ألم تسمع ما يتلون: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

---

(١) جَرْسَمَ: أحَدَّ النظر. القاموس (جرسم).

(٢) الكُفور جمع كَفْر وهو القرية، ومنه الحديث: «لا تسكن الكُفور، فإن ساكن الكفور كساكن القبور».

أليس نقصًا فيك ما قال عنك الإمام: إنك لعُسْرِك لا تُحَدّ، وأن غالب حدودك يُنقض ويُردّ؟! ومن الحَور[1]، نقض أشهر حدودك بالدَّور. ومن سعادة جَدّي[2]، سلامة حَدّي، وصحة عكسي وطردي. وإن كان بسيطي عدمًا يزول؛ فمُرَكَّبي صعب لا يتغير ولا يحول. شديد الرسوخ، سيما في أبناء البيوت والكثير من أولاد الشيوخ.

ومن أين لك على مقاومتي المقدرة؟ وأنت قليل الأنصار وعديم الميسرة. وأبنائي الأغنياء والأمراء، وأبناؤك الضعفاء والفقراء. يا صفر الراحة، يا من حكى مسلمٌ عنه في صحيحه أنه لا يُنال بالراحة. يا حليفَ الجوع، يا منافي الهجوع. يا مُضنيَ الأبدان، يا مصفِّرَ الألوان. يا قليلَ الحظوة، عند أهل السطوة. يا مسوِّدَ الموالي، ورافعَهم على الأعالي. يا قليل الجَدْوَى، يا داعيةَ الكِبْر والدعوى.

أتفخر ببنيك الشُّعثِ الغبر، الذين ليس لهم عند أهل الدنيا اعتبار ولا قَدْر؟! إن خطبوا رُدُّوا، وإن عُدَّ الناس فما عُدُّوا. وإن غابوا فما فُقِدوا، وإن حضَروا فكأنّهم ما وُجِدوا. ما لهم شارة، ولا إليهم إشارة، ولا يُرجع إليهم في استشارة. وإن نَطقوا أُسكتوا، وإن صَدقوا أُبهتوا. عاقلُهم حِلْس[3] البيت، وحيُّهم بمنزلة المَيْت. لا يطمعون في نيل الرُّتَب، وسُكنى غالبهم الزوايا والتُّرَب. قلوبُهم منكسرةٌ للغربة، وهم حلفاء كل

---

(١) الحَوْر: النقص.

(٢) الجَدّ: الحظ.

(٣) الحِلْس: ما يبسط في البيت من حصير ونحوه تحت السجاد وكريم المتاع. يقال: (هو حِلْسُ بيته) أي لا يبرحه.

محنةٍ وكُربة. لا ينفكُّون عن تألُّم، ويتجرَّعون كاساتِ ذُلِّ التعلُّم. عيشُهم شَظَف، ولا يأكلون إلاَّ على ضَفَف[1]، وشربهم من القداح نُطَف[2]. لباسُهم أَسمال، وفراشُهم تراب ورمال.

فهذا غالبَ حال بنيكَ يا مُكِدَّ الطِّباع، ويا حليةَ أهل العجز والضَّياع. مدارسُك دوارس، وأذقانُ حامليك نواكس. ليس على كلامهم مُعَوَّل، وهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّل.

أما أنا فقولي المشهور، وأبنائي الجمهور من الأحداث والرجال. وربَّات الحِجال. وإن ماتَ عالمٌ فتلكَ ثُلْمةٌ لا تنسد، وفائتٌ لا يمكن أن يُستَرَد. بشهادة: ﴿ نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١]، فألق استماعًا، وبما صحَّ في الحديث الشريف: «إن الله لا يقبضُ العلم انتزاعًا». وإن هلك جاهلٌ خَلَفَه ألفٌ، بشهادة ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

هذا، وأبنائي المترَفون والمنعمونَ، والقومُ الذين هم في العيون مُعَظَّمُونَ. يتمتعونَ بفاخِرِ الأكل واللباس، وسواءٌ عندهم ما لا بأسَ به وما به باس. فكم أجروا في الهوى أفراسًا، وزينوا ولائم وأعراسًا. وعمروا القهاوي والحانات، وملؤوا الإصطبلات والخانات. ولهم المعازفُ والعيدانُ، والمغنّون والقِيانُ. ولهم الليل، وصهوات الخيل. وهم الحماةُ والكُفاةُ، ولهم المكيِّفات والكافات. وبأيديهم المتاجرُ والأسواق، وإليهم الأرزاق عفوًا تساق. وهم القومُ كلُّ القوم، أنفقوا بضاعة الأعمار في الشَّبع

(١) الضَّفف: كثرة الأيدي على الطعام.
(٢) النُّطَف: قليل الماء.

والنوم. ينامون الصبحة، ويرتكبون كلَّ شيء لا يخافون قُبحه. أبناء الغفلةِ والكسل، وهمُّهم العسيلةُ[1] والعسلُ. يحبون العاجلةَ، ولا يتفكرونَ في الآجلة. لا يعرفون غيرَ هذه الدار، ويقولون إلى اللذات البدارَ البدار. إلى أن تأتيهم النقلة، على حين غَفلة. ورحمةُ الله مِن وراء ذلك لمن مات على الإيمان، فإنه جلّ وعلا هو الرحيم الرحمن.

وأنت يا علمُ تضني أولادكَ بذكر الوعدِ والوعيد، والنظر في حال الشقيِّ والسعيد. واحتجاجُكَ بقضية إبليس لو كنت ممن يتحقق، فإنه كان عالمًا غيرَ موفّق. والذي ما خصَّ بَلْ عم، قضيةُ ابنِ عوراء بلعم. فأصحّ القول فيه: أنه عالم سفيه. والعلم يهتفُ بالعمل، فإن أجابه أقام وإلاَّ ودَّع وارتحل.

وليس بين العلم والعمل ملازمة، فلا يصح لك في هذه النزاعُ والمخاصمة. فكم عالم زاغ في العمل والعَقْد[2]، وراغ[3] في جميع أحواله عن سبيل القصد. وكثير من أبنائه ذوو زندقة وإلحاد، ومنهم مَنْ يقول بالحلول والاتحاد. ومِنْ شُبَهِ ما يدَّعيه نَجَمَ الرَّفضُ والاعتزال. ومن فساد نظرهم تَشَعَّبَتْ سائر فِرَقِ الضلال. والغُمر الجاهل، عن هذا كله ذاهل. وجهلاءُ الأعراب، أقربُ في الجاهلية للإسلام من أهل الكتاب. فلذا دخلوا في الدِّين أفواجًا، وما أطالوا عنادًا وحجاجًا. ولم يؤمن من أهل الكتاب إلاَّ النادرُ الفذّ، وما قلّ وشذّ. وانظر إلى الترك والأكراد، كيف بادروا للانقياد إلى الدين بلا كبير عناد.

---

(١) العُسَيلة: حلاوة الجماع.

(٢) العَقْد: العهد.

(٣) راغ: مال وحاد.

وما عيَّرت أولادي به يا ذا البركة، من اللصوصية والسرقة والشعبذة والمجانة وما معها فتلك أوصافٌ بيننا مشتركة، يشهد لي ولك العِيان، وليس بعد العِيان بيان.

وليس كلُّ معلوماتِك شريفة، بل منها الدنيئة الخسيسة السخيفة. ألا ترى الفلسفة، وتلك المُضِلَّة المُتلِفة؟. والنجومَ والطلاسم، والأوفاق[1] والعزائم؟. وعلم جابر الكاسر، الغير الجابر؟. والعلومُ الشريفة أحوالُها في وقتنا هذا ضعيفة؟.

هـذا التفسيـرُ، فأيـن محـرِّروه؟ وهـذا الحديث، فأين مقرِّروه؟ وأين مَـنْ يعرف موضوعـه، ويميز صحيحـه وحسنه وضعيفه وموضوعـه؟ وهذا التصـوف، فأيـن زُهَّـاده؟ وهـذا منهـل المعارف، فأين وُرَّاده؟ وهذا الفقه، فـأين مُتقنوه؟ وهـذا الأصول، فأيـن محسنوه؟ وهـذا الكلام، فأيـن من فيه الكفاية، والقيام عنا بفرض الكفاية؟ على أنه حرَّم النظرَ فيه متقدمو الأئمة الأعـلام، حتـى ألَّـف الغـزالـي حجـةُ الإسـلام: «إلجـام العـوام عـن علـم الكلام».

والمنطق حرَّمه جمعٌ من أهل الصلاح، منهم النووي وابنُ الصلاح، وما يغني الاشتغال بالحكمة والبحث عن الأعراض والجواهر، والاستقسات والعناصر، والبسائط والمركبات، والهيولي والكليّات، والاشتغال بها سببُ ضلالة الفارابـي والرئيس، والموقع لهما في الاعتقاد الرديء والمذهب الخسيس. وقد حذَّر الأماثل من الاشتغال بعلوم الأوائل. والنحو حسن ولكن قال فيه، من يتحققه ويدريه:

---

(١) الأوفاق: من العلوم الخفية التي تعتمد على الحروف وخواصها.

[من الطويل]

وما ينفعُ الإعرابُ إنْ لم يكنْ تُقىً ... ومـا ضَـرَّ ذا تقـوى لِسـانٌ مُعْجَـمُ

وحديث: «وإن من البيان لسحرًا»، يحتمل القدح، كما يحتمل المدح.

والطب وإن كان حقًّا فقد دخله التدليس، وكثر فيه التمويه والتلبيس. والطبيب الحاذق لا يقدر أن يدفع عن نفسه العلل، فهو إذًا سواء والهَمَل[1]. قال المتنبي: [من السريع]

يمـوتُ راعـي الضـأنِ فـي جَهلِـهِ ... مـوتَـةَ جـالينـوسَ فـي طِبِّـهِ

[وقال][2] غيره في معناه: [من الخفيف]

مـا أفـاد الـرئيـسَ معـرفـةُ الطـ ... ـبِّ ولا حُكْمُـهُ علـى النَّيِّـراتِ

مـا شَفَـاهُ الشفـاءُ مِـنْ عِلَّـةِ المـو ... تِ ولـم يُنْجِـهِ كتـابُ النَّجـاةِ

ونظم الشعر، كاسد السعر. ومن جعله حرفةً ومكسبةً، كان للفقر والحرمان مجلبة. وسيلة التكفُّف، وسبب النقصان والتخلُّف. وحرفة الأدب بئس الاحتراف، وهي لعمر أبيك حرفة عن الخير أي انحراف. ولذا قال من قال: [من الكامل]

قـالـوا: تـركـتَ الشعـرَ، قلـتُ: ضـرورةً ... بـابُ السمـاحـةِ والمـلاحـةِ مُغْلَـقُ

خَلَـتِ الـديـارُ فـلا كـريـمٌ يُـرْتَجـى ... مِنْـهُ النـوالُ ولا مليـحٌ يُعْشَـقُ

---

(١) الهَمَل: المهمل المتروك ليلاً ونهارًا بلا رعاية ولا عناية.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

حتى صار حال الأديب مثلاً في الضعف والضيق، وقول العاملي في وصف نساء هواه به حقيق: [من الرجز]

أَضيَقُ مِنْ عَيْشِ الأديبِ ثَغْرُها أَضْعَفُ مِنْ حَالِ الأريبِ خَصْرُها

ومع هذا كله فَهَبْكَ أتقنتَ جميعَ العلوم، ووُفِّقْتَ في المنطوق منها والمفهوم. وخرجت في التفسير عن النظير، وبلغت في الحديث والفقه نهاية التحرير. وأحكمت الفروع والأصول، وأحطت بالمنقول والمعقول. وحصل لك من الأذواق والمعارف، ما تُفَكُّ به الفصوصُ والعوارف. وَفُقْتَ القاضي والأستاذ في الكلام، وقهرت بحذقك عبدَ الجبّار والعلاَّفَ والنظَّام. وفي النحوِ ابني مالك وهشام. وأتقنت في التصريف الشافية، ولم يُفْتك تحقيقاتُ شروحِ الكافية. ورقيت في السُلَّم المرونق، أعلى درجات سماء علم المنطق. وقرأتَ في البلاغة المفتاحَ والإيضاح، وزفَّت إليك عروسُ الأفراح. وأخذت اللغة عن الجوهري والمجد، وشافهت في البيان السيد والسَّعد. ووصلتَ إلى أصول ابني السبكي والحاجب، بلا مانع لك عنها ولا حاجب، والحكمةَ عن الرئيس والحفيد، والإنشاءَ والترسُّلَ عن الفاضل وعبد الحميد وابن العميد، والأدبَ عن الحريري، ذي النسج البديع الحريري. وفي التاريخ الكامل ويتيمة الدهر، وديوان العبر ودمية القصر، ونفح الطيب، وإحاطة لسان الدين ابن الخطيب. وفي الجغرافية تقويم البلدان. وفي الهيئة الجغميني ذا الإتقان. وجوَّدت بالطَّيِّبة والحِرْز، وفكَكْت كلَّ طِلَّسْم ورمز. ما غلت لك قيمة، وما كانت سيرتُكَ إلاَّ غيرَ مستقيمة. فإذا

كانت هذه مهماتِ الفنون، مَنْ أحرزها رجع بصفقة المغبون. فما أنشد السعد لنفسه في المطوَّل، هو الحق الذي لا شبهة فيه فعليه المعوَّل، وهو قوله: [من الطويل]

طويتُ بإحرازِ الفنونِ وَنَيْلِها ... رداءَ شبابي، والجنونُ فنونُ
فحينَ تعاطيتُ الفنونَ وحَظَّهَا ... تبيَّنَ لي أنَّ الفنونَ جنونُ

وهَبْكَ صرت العلاَّمةَ الثاني، ما بلغت الأماني. فسلِّم لي في سلطاني، فالزمان زماني. والناسُ خُدَّامي، والدهرُ عبدي وغلامي. وقد آن أن ترجع من حيثُ أتيت، وتموت كما كنت من قبل حييت. وأنا نزلت إلى الأرض في هذه الساعة، وعلى أبنائي تقوم الساعة. وليت شعري ماذا ينفعك ذكرُك السالفين من الأعلام، والمتقدِّمين من صالحي ملوك الإسلام. فرضي الله عن أولئك السلاطين، ورحم برحمته الواسعة ميامين السلاطين. تلك أمة قد خلت، ورسومٌ درسَتْ وعَفَت.

فهل بذكرهم ما مضى يُعاد، من رونق الأموي وبهجة الأزهري ومسجد قرطبة وفخامة الزيتونة وضخامة القرويين وشهرة المدارس الثمان ونظَّامية بغداد؟!. هيهات ما مضى فات، إن الفتى من يقولُ ها أنا ذا لا من يفتخر بالرُّفات. مضى والله الذين كانوا يجِلّون العلم ويكرمون العلماء ويجيزونهم على التصانيف، ويبذلون لهم الرغائب ويمنحونَهم التشاريف. أما الآن فقد صار التصنيف مسخرة، لا مفخرة. والتحقيق مثلبة، لا منقبة. فسلِّم لِتسلم، ولا تعد تتكلَّم. وعلى ربك فتوكَّل، فالبلاء بالمنطق موكَّل.

* * *

فلمَّا طالت بينهما المشاتَمة، وكاد الأمر يفضي إلى المضاربة والملاكمة. قام حينئذٍ الجميل الأوصاف، حلية المتقين والأشراف، المعروف بالإنصاف. فقال:

أيُّها الخصمان، دعا الشَّنَآن[1]. واتركا اللَّجاج، ولا تطيلا الحِجاج. وأنتما المتعاقبان على نوع الإنسان، والوصفان له اللازمان. إن فقد هذا وجد ذاك، فبينكما بهذا المعنى اشتراك. وكلاكما من آثار القدرة، وبدائع الفطرة. وقد اقتضت الإرادة الأزليّة أن يكون العالَمُ على هذا النظام: جهلاء وأعلام. فلو كان الناس علماء كلهم فمن ذا يقوم بالمهن، أو جهلاء كلهم فمن ذا الذي يحفظ الشرائع والسنن؟!.

وليست بينكما مضاددة، ولا كبير معاندة، بل بينكما تقابل العَدَم والمَلَكة، فاحذرا الهَلَكة وسوءَ المَلَكة، فالوفاق سكن إن شاء الله بينكما بركة.

وأنا أقضي بينكما بقضاءٍ فصل، وكلام جزل. فخيرُكما العالم العامل، ثم يليه المسترشد الجاهل. ولا خيرَ في غير ذين، من كلا الصنفين[2].

فانقضى الكلام، وافترقوا بسلام. وخُتمت المقامة، بحمد أهل الجنة في دار المقامة. والصلاة والسلام على الفاتح الخاتم، وآله وصحبه وهي أحسن الخواتم. والغرضُ من تلفيق هذه الكَلِم، ونظمها في سمط

---

(١) الشنآن: البغض.

(٢) في هذا الكلام نظر! فكم بين العالم والجاهل من بون شاسع! وربنا سبحانه يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

الحِكَم ــ والله أعلم بالنيَّات ــ إيقاظُ العزائم وتحريكُ الهِمَم. ختامَ سنةِ أربعَ عشرةَ وثلاثمائة وألف رابع الحجة، جعلها الله لمنشئها وقارئها وكاتبها وسائر من يعتني بها حُجَّة. انتهى.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

* * *

محتويات الكتاب

